لأجل الثورة الإفريقية

Frantz Fanon

Pour la révolution africaine

Écrits politiques

La Découverte/Poche
9 bis, rue Abel-Hovelacque • Paris XIIIe
2001

فرانز فانون

لأجل الثورة الإفريقية

ترجمة:
ماري طوق
و
ديالا طوق

ANEP – دار الفارابي

الكتاب: لأجل الثورة الإفريقية
المؤلف: فرانز فانون
الترجمة: ماري وديالا طوق
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
* منشورات آنيب ANEP
05 شارع خزناجي - الأبيار - الجزائر
الهاتف: 76 09 92 21 213
الفاكس: 77 09 92 21 213
e-mail: anep-edition@wissal.dz
الطبعة الأولى 2007
ISBN: 9953-438-90-0 - لبنان
ISBN: 9947-21-104-5 - الجزائر
Dépôt - légal: 1458-2004

ISBN: 2-7071-3438-4
Ouvrage publiè avec le concours du Ministère français chargé de la culture - Centre National du Livre.

المحتويات

ملاحظة الناشر

تغطّي نصوص فرانز فانون (Frantz Fanon) السياسية المنشورة في هذا الكتاب الحقبة الأكثر نشاطاً في حياته، منذ نشر كتاب «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» في عام 1952، حين كان في الثامنة والعشرين من عمره، وصولاً إلى تاريخ نشر «معذبو الأرض» في عام 1961 الذي تزامن مع تاريخ وفاته بفارق أيام معدودة.

تم نشر معظم هذه النصوص في مجلات ونشرات متعددة في السابق، لذا نحيلكم في كل مرة إلى مرجع النص الكامل وتاريخ نشره. إنما بقيت تلك النصوص موزعة ما بين المجلات ويصعب العثور عليها. ويستحيل اليوم مثلاً العثور على أي من نصوص المجاهد بشكل خاص، علماً بأن جزءاً محدوداً جداً من القراء استطاع الاطلاع عليها حين صدرت للمرة الأولى.

وبعد جمعها بحسب تاريخها الزمني، أبرزت هذه النصوص وحدة حيوية مدهشة إذ أظهرت مراحل النضال نفسه متعاقبة، فالنضال يتطور ويتوسع، وإن كانت غايته ووسائله محددة وثابتة منذ البداية. وأعطتنا الكتب الثلاثة المنشورة حتى الآن تحاليل ثلاثة متبلورة في تواريخ محددة من تطور فكر ف. فانون (.F

Fanon). أما النصوص التي تليها في هذا الكتاب، فتشكل دليلاً يومياً أكثر تفصيلاً، وترسم لنا طريقاً تسلكه فكرة تتطور بإستمرار وتتوسع وتغتني دائماً، فيما تبقى أبداً وفيةً لنفسها.

ويمكن للمقالتين الأوليين، اي التناذر المغربي والأنتيليين والأفارقة، المنشورتين في عامَي 1952 و1955 أن تسِما المراحل الأولى. ففي ذلك الوقت، كان فرانز فانون (Frantz Fanon) قد أنهى دراساته في طب الأمراض النفسية: فاستطاع، من جهة، أن يعرض حالة المستعمَر علمياً، مستعيناً بخبرته اليومية في مجال الطب؛ كما أنه تمكن، من جهة أخرى، من تحليلها، بما أنه عاش في تلك الحالة تاريخياً وظل يعيش فيها حتى أضحت تجربة شخصية بالنسبة إليه ما يمكنه أن يحكم عليها كذلك من الداخل. وبعدما قرر الابتعاد عن «الخطأ الأبيض الكبير» و «السراب الأسود الكبير» معاً، مشى في طريق جديد، طريق ثوري؛ ومن أجل طرح مسألة المستعمَر وإيجاد حل لها، شغل منصباً مميزاً: فتحلى بإدراك عميق لهذه المسألة وبوضوح في الرؤية عزّزا صلابة التزامه.

اختار ف. فانون (F. Fanon) ممارسة مهنته في الجزائر، بلاد الاستعمار بامتياز، حتى يعيش ويكافح بين المستعمَرين من أمثاله. فاستعاد الموضوع واستفاض فيه في خطاب بعنوان العنصرية والثقافة، ألقاه في المؤتمر الأول للمؤلفين السود في عام 1956. وأصبح التحليل هذه المرة أكثر دقة واكتسب الاتهام طابعاً جذرياً وبات الالتزام صريحاً وواضحاً. أما تشخيصه العنصرية بأنها «ليست اكتشافاً طارئاً»، بل «جزءاً من عملية واضحة تستغل فيها مجموعة من الناس مجموعة أخرى من البشر»، فهو تشخيص يستتبع حلاً وحيداً جاء على الحو التالي: «إن النهاية المنطقية

لإرادة الكفاح هذه تكمن في التحرير الكامل لأرض الوطن».

«... والكفاح بات الآن كفاحاً تاماً ومطلقاً». إن هذا الكفاح ليس كلامياً. فمذ أصبح طبيب أمراض نفسية في مستشفى بليدا، ناضل ف. فانون (F. Fanon) فعلياً كعضو في المنطقة الثورية الجزائرية واشتد نضاله بعد انطلاق التمرد. وأنجز في الوقت نفسه عملاً طبياً مدهشاً، فكان مجدِّداً في الميادين كافة، وشديد القرب بغريزته من مرضى رأى فيهم بشكل أساسي ضحايا النظام الذي يحاربه. وكدّس الملاحظات السريرية والتحاليل حول ظاهرات الاستلاب الاستعماري من منظار المصابين بأمراض عقلية. واستكشف التقاليد المحلية وعلاقتها بالاستعمار. وما زالت هذه المستندات الأساسية كاملة، إنما مبعثرة أيضاً هي الأخرى، فنأمل أن نتمكن من جمعها في كتاب على حدة.

لفت عمله كمناضل في جبهة التحرير الوطني أنظار الشرطة الفرنسية إليه. وفي نهاية عام 1956، وقبل دعوته الى تونس، كرّس التزامه الكامل الأقدم بكثير من خلال رسالة بعنوان رسالة استقالة. أما الرسالة إلى فرنسي، فتشكل النص الوحيد الشاهد على تلك الحقبة، فأتممنا من خلاله فصل من أجل الجزائر. وكان لا بد لخبرته المكتسبة بهذه الطريقة، في قلب الصراع نفسه، أن تؤدي إلى تأليفه «العام الخامس من الثورة الجزائرية».

وفي تونس، طلبت وكالة الصحافة التابعة لجبهة التحرير الوطني من ف. فانون الانضمام إليها. فبات عضواً فاعلاً في فريق عمل صحيفة المجاهد، وهي لمّا تُصدر إلا أعدادها الأولى. فثابر بلا هوادة على فضح المنظومة الاستعمارية كلها، ووحدتها التامة، والتضامن الذي يربط مَن ينحازون إليها طوعاً أو كرهاً، فيما تجري إبادة مليون جزائري. وفي تحليله لمسألة المثقفين

اليساريين وحرب الجزائر وربطها باليسار الفرنسي، يفضح خبث من لا يرون في الاستعمار ومخلفاته من حرب وتعذيب سوى وباء فطري مخيف يكفي أن نحول دون انتشاره أو أن نستهجنه، في حين أن الاستعمار عبارة عن منظومة منطقية تماماً ومتماسكة تماماً تحوّل كل من يعيش ضمنها متواطئاً حتمياً.

وهكذا امتلك فانون (Fanon) منذ ذلك الوقت وسيلة للإسهاب في واحد من مواضيعه الأولى: وهو توحيد كفاح المستعمَرين كافة. فبحث في هذا الإطار في مسألة الوحدة الإفريقية بطريقة واقعية، ولم ينظر إليها وكأنها «نظرة تنبؤية» إنما تعامل معها على أساس أنها هدف النضال الفوري. كما ربط باستمرار مصير الثورة الجزائرية بمصير القارة بكاملها، واعتبر تلك الثورة مقدمة للثورة الإفريقية. وطوّرت «المجاهد» بإستمرار هذا الخط: الثورة الجزائرية وتحرير إفريقيا، وجعلته عنواناً لكتيّب ضمّ مقالات ووثائق جمعتها جبهة التحرير الوطني، فكان الأكثر انتشاراً في تلك الحقبة، مما يبين بوضوح كم اهتم الثوريون الجزائريون بتلك المسألة آنذاك.

لم يتم توقيع أي من مقالات المجاهد إطلاقاً. فإغفال ذكر الأسماء كان كاملاً. أما المقالات المنشورة في هذا الكتاب تحت إشراف السيدة ف. فانون (F. Fanon)، فهي من تأليف ف. فانون (F. Fanon) بشكل أكيد لا مجال للشك فيها إطلاقاً. وتعدت مساهمته بالتأكيد هذه النصوص بالتحديد، ولكن كما يحدث داخل كل فريق عمل، وخصوصاً في خضم ثورة آخذة بالاندلاع، كان العمل عبارة عن تأثير متبادل مستمر بين مختلف الأعضاء وتفاعل دائم وتحفيز مشترك. وفيما بلغ ف. فانون (F. Fanon) أبعاداً جديدة لدى اتصاله بالنواة المطلِقة للثورة الجزائرية، كان في

الوقت نفسه يعطي هذه الثورة اندفاعاً جديداً. فقمنا بجمع النصوص المكتوبة بهذه الطريقة تحت عنوان تحرير إفريقيا.

أما الفكرة التي كوّنها «فانون» عن إفريقيا في طور تقدمها فأصبحت واقعاً حين تسلّم مهمة أداها في بلدان إفريقيا الغربية بعدما أنهى مهّمته كسفير في أكرا. وتوجب عليه بشكل خاص دراسة شروط تحالف أشد وثاقاً بين الأفارقة، بالإضافة إلى تجنيد متطوعين سود وفتح جبهة جديدة في الصحراء الجنوبية، إلخ... وتشكل صفحات الفصل الأخير هذا بعنوان الوحدة الإفريقية جزءاً من يوميات غير منشورة سابقاً، يتجلى فيها هذا المخطط بكامل وضوحه وعنفه.

عاد ف. فانون (F. Fanon) منهوكاً من هذه المهمة: فقد أصيب بسرطان الدم. وكرّس جهوده الأخيرة لكتابة «معذّبو الأرض». ووافته المنية بعد سنة من حضوره وسقوط صديقه لومومبا، القائد الإفريقي الذي حمل تصوراً لإفريقيا كان الأقرب الى تصوره. وحافظ على ثقته بالتحرير القريب لإفريقيا بكاملها، إذ كان مقتنعاً كما كتب في العام الخامس للثورة الجزائرية بأن الثورة الإفريقية قد أنشأت «حالة لا رجوع فيها».

أولاً ـ المستعمَر المقصود

1 ـ «التناذر(*) المَغربي»(1)

من الشائع القول إن الإنسان يتناول دوماً مسألة إنسانيته وإنه يتنكر لنفسه حين يدّعي عكس ذلك. ويبدو أن وصف البعد الأولي للمسائل الإنسانية كافة لا بد وأن يكون ممكناً. ويبدو بشكل أكثر تحديداً أنه يمكن إعادة كل المسائل التي يطرحها الإنسان حول موضوع الإنسان الى السؤال التالي:

«ألم أساهم في خفض قيمة الواقع الإنساني جرّاء أفعال قمت بها أو امتنعت عنها؟» ومن الجائز أيضاً طرح السؤال بطريقة مختلفة ليصبح كالتالي:

«هل طالبتُ في أي ظرفٍ كان بالإنسان الكامن في داخلي؟»

أريد أن أبرهن في هذه الأسطر أن حالة المَغربي المهاجر إلى فرنسا بشكل خاص قد تولّد نظرية غير إنسانية لها أسسها وقوانينها.

فكل هؤلاء الرجال الذين يحسّون بالجوع ويشعرون بالبرد ويرتعدون من الخوف...

(*) التناذر: أعراض المرض المزمن.

(1) نص منشور في مجلة فكر شهر شباط/ فيفري من عام 1952.

وكل هؤلاء الرجال الذين يخيفوننا ويسحقون زهرة أحلامنا الغالية ويمسحون الابتسامة الخجولة عن شفاهنا، وكل هؤلاء الرجال الذين لا يطرحون علينا أي سؤال، إنما يسمعون منا أسئلة غريبة،

من هم هؤلاء؟

إني أسألكم وأسأل نفسي في آن واحد. من هي تلك الكائنات المتعطشة إلى الإنسانية التي تثبّت أقدامها على حدود تحقيق الذات التام، علماً بأنّها حدود غير ملموسة إنما واضحة أشد الوضوح بحسب علمي وخبرتي الشخصية؟

ما هي حقيقة تلك الكائنات التي تستتر بنفسها كما يسترها الواقع الاجتماعي وراء صفات التيس والجَرِب والعربي والفأر الصغير والجُرَذ ومشوّه اللغة الفرنسية؟

الفَرَضية الأولى: هي أن تصرف المَغربي يؤدي غالباً إلى شعور الفريق الطبي بالريبة تجاه حقيقة مرضه.

فباستثناء الحالات الطارئة: كانغلاق الأمعاء والجروح والحوادث، يظهر المَغربي بمظهر يكتنفه الغموض.

يشكو من ألم في البطن والرأس والظهر وفي كل أنحاء جسده. يشكو من ألم مبرّح ووجهه يعبّر بصراحة عن ألمه ذاك، ولكنه في الوقت نفسه يوحي بالخداع.

يسأله الطبيب:

ـ ما الأمر يا صديقي؟

فيجيبه بصوت مرتعش خافت:

ـ سوف أموت يا سيدي الطبيب.

ـ ما الذي يؤلمك؟

ـ كل جسدي يا سيدي الطبيب.

بشكل خاص، لا تطلبوا منه أي إيضاح: فأنتم لن تحصلوا عليه. فإن كانت الآلام توحي بأنها قد تكون ناجمة عن قرحة مثلاً، فمن الضروري أن يعرف الطبيب توقيت نوبات الألم. إلا أنه يبدو أن المَغربي ليس متآلفاً مع فكرة الالتزام بتقسيم الوقت. ولا ينتج ذلك من عدم فهم من قبله، فهو غالباً ما يأتي بصحبة مترجم. وكأنه يصعب عليه أن يرجع إلى حيث لم يعد الآن. فالماضي بالنسبة إليه هو ماضٍ جارح. أما أمله فهو في عدم الشعور بالألم مجدداً وعدم مواجهة ذاك الماضي أبداً. فهذا الوجع الحاضر، الذي يستنفر عضلات وجهه بهذه الطريقة، يكفيه وحده. فلا يفهم لمَ يريدون أن يفرضوا عليه وجعاً لم يعد يحسّ به، وإن كان عن طريق الذاكرة. ولا يفهم لمَ يطرح عليه الطبيب هذا القدر من الأسئلة.

– ما الذي يؤلمك؟

– بطني. (ويشير حينذاك إلى صدره ومعدته).

– في أي أوقات؟

– كل الوقت.

– حتى في الليل؟

– خصوصاً في الليل.

– تتألم في الليل أكثر مما تتألم في النهار إذاً؟

– لا، كل الوقت.

– إنما في الليل أكثر مما في النهار؟

– لا، كل الوقت.

– وما الذي يؤلمك أكثر؟

– هنا. (ويشير إلى صدره ومعدته).

وهكذا يرى الطبيب المرضى ينتظرون في الخارج، والخطير في الأمر إحساسه بأن الوقت لن يساهم في إيضاح المسألة. فيُرسل مريضه حينذاك بعد اقتراحه تشخيصاً لمرضه ويصف له علاجاً تقريبياً ملائماً.

- اتبع هذا العلاج لمدة شهر. وفي حال لم تتحسن، عُد لرؤيتي.

وحينذاك يظهر حلان:

1) لا يرتاح طالب الاستشارة فوراً، فيعود ليطلب استشارة أخرى بعد ثلاثة أو أربعة أيام، فننقلب عليه لتصرفه هذا لأننا نعلم بأن الدواء الموصوف لن يتكفل بإزالة الجرح إلا بعد مهلة معينة (ونعتذر عن استخدام فعل تكفّل).

فنجعله يفهم هذا الأمر: أو بالأحرى هذا ما نقوله له. ولكن مريضنا لم يسمعنا. فهو وألمه واحد، لذا يرفض فهم كل كلام، ولا يكون بعيداً عن التفكير التالي: إن كوني عربياً هو ما يمنعهم من الاعتناء بي كما يعتنون بغيري.

2) لا يرتاح طالب الاستشارة فوراً، إلا أنه لا يعود إلى القسم نفسه ولا إلى الطبيب نفسه.

يذهب إلى مكان آخر. وينطلق من المبدأ القائل بأنه لا بد من طرق الأبواب كافة قبل الشعور بالرضى. فيطرق الأبواب، يطرق بعنف ولطف، يطرق بسذاجة وغيظ. يطرق الباب، فيُفتح له. ودائماً يُفتح له. فيصف ألمه، ألماً يصبح يوماً بعد يوم خاصاً به، فيعرضه حينذاك بفصاحة بالغة. ويمسك به في الفراغ ويقدّمه ليراه الطبيب بعينيه. ثم يأخذه ويلمسه بأصابعه العشرة ويكبّره ويعرضه. ويتّسع امتداد الألم، فيلتقطه من عن مساحة جسده

بكاملها. وبعد خمس عشرة دقيقة من الشرح بواسطة الإشارات، يتحيّر المترجم كما يُفترض فيه أن يفعل ويطلع بالجملة التالية: يقول إن بطنه يؤلمه.

كل حركات اليدين تلك في الفضاء، وكل تشنجات العضلات تلك في الوجه، وكل حملقات العينين تلك لم تُرد التعبير سوى عن وجه مبهم. فنحس بنوع من الإحباط في مجال الشرح. وتبدأ من جديد الكوميديا أو المأساة السابقة الكامنة في تشخيص وعلاج تقريبيين.

ما من سبب يدعو العجلة إلى التوقف عن الدوران. فيوماً ما، سيجرون له صورة بالأشعة تكشف عن قرحة أو التهاب في المعدة، أو أنها قد لا تكشف عن أي علة كما يحدث في أغلب الأحيان. وسيتم وصف نوبة ألمه بأنها «وظيفية».

إن هذا المفهوم مهم جداً ويستحق التوقف عنده. فعندما تُوصف مسألة ما بأنها مبهمة، تتم عادةً عن نقص في معرفة الحقيقة والواقع الموضوعي. فنحكم على وجه المَغربي بأنه غير حقيقي وغير واقعي لأننا لم نجد له أي جرح يعلله. ولكن المَغربي هو «من لا يحب العمل»، لذا سيتم تفسير تصرفاته كافة انطلاقاً من هذه الفكرة المسبقة.

يدخل المَغربي إلى القسم الطبي لكسله ووهنه وضعفه. فيصفون له علاجاً منشّطاً أساسه المقوّيات. وبعد عشرين يوماً، يقرّرون إرساله إلى المنزل. فيكتشف حينذاك أنه يشكو من علةٍ أخرى.

- قلبي يخفق بقوة داخل صدري.
- رأسي يكاد ينفجر.

أمام الخوف ذاك من المغادرة، يتوصل الطبيب إلى التساؤل

ما إذا كان الضعف الذي تعالج منه المريض سببه نوع من الدوار. ويتوصل إلى التساؤل ما إذا كان هو نفسه لعبة بين يدي مريض لم يتمكن من فهمه بوضوح تام. فيظهر الشك عنده ويقرر توخي الحذر في المستقبل من العوارض المزعومة.

وتصبح المسألة واضحة في الشتاء؛ لذلك ترى المَغاربة يكتسحون الأقسام كلها اكتساحاً فعلياً أثناء موجات البرد القارس. فالجو جميل ودافىء داخل قاعة مشفى. وبينما كان طبيب يوبخ أوروبياً مصاباً بداء النِّسا يتنقل طوال النهار بين قاعات مستوصف، شرح له أن الراحة تشكل في هذه الحالة بالذات نصف العلاج. وأضاف، فيما يخصنا، أن المسألة تختلف مع المَغاربة: فما من ضرورة لنصحهم بالراحة، حيث تجدهم في السرير طوال الوقت.

وأمام ذلك الوجع الخالي من أي جرح، وذلك المرض الموزع على الجسد بكامله والكامن في داخله، تستمر تلك المعاناة. وأسهل موقف قد ينقاد إليه الطبيب بسرعة هو نفي كل مرض. وفي نهاية المطاف، يتحول المَغربي إلى متظاهر وكاذب وخامل وكسول ومدّعٍ وسارق[1].

الفَرَضية الثانية: هي أن موقف الفريق الطبي ناتج من حكم مسبق في أغلب الأحيان. فالمَغربي لا يأتي بخلفية يشترك فيها أبناء عرقه، إنما بخلفية بناها له الأوروبي. وبتعبير آخر، إن المغربي يدخل تلقائياً وبمجرد ظهوره ضمن إطار محدد مسبقاً. ظهر منذ بضع سنوات توجه طبي يمكن تسميته من دون تردد بالأبقراطية الجديدة. ويقضي هذا الاتجاه بأن يهتم الطبيب بإيجاد

(1) راجع الضمان الاجتماعي؟ نحن من يدفع!

الأمراض. فِفِكرُ الطبيب الممارس يشكو من عيب في البنية، وهو عيب بالغ الخطورة.

سندركه في ميدان العمل.

يتم استدعائي حتى أعاين مريضاً معاينة طارئة، والساعة الثانية صباحاً والغرفة متسخة والمريض متسخ وأهله متسخون والجميع يبكي والجميع يصرخ. ويطغى على الجو انطباع غريب يُنبىء بأن الموت وشيك. فيُبعد الطبيبُ الشابُ عن نفسه كل حيرة وينحني «موضوعياً» فوق هذا البطن الذي يوحي بأنه مهيّأ للجراحة بشكل طارىء.

فيلمس ويجسّ وينقر وينتظر إجابة، لكنه لا يحصل إلا على تأوهات. فيجسّ من جديد وينقر ثانيةً، والبطن ينقبض ويقاوم الفحص... والطبيب لا «يرى أي علة». ولكن ماذا لو كان السبب متعلقاً بالجراحة؟ ماذا لو فاته تفصيل ما؟ إن فحصه سلبي ولكنه لا يجرؤ على المغادرة. وبعد تردد كبير، يوجّه المريضَ نحو قسم معين، بتشخيص ينص على أن بطنه يتطلب جراحة. وبعد ثلاثة أيام، يرى «البطنَ المتطلب جراحة» آتياً إلى غرفة المعاينة مبتسماً معافى تماماً. وما يجهله المريض هو وجود فكرة طبية موجبة، وأنه هزّأ هذه الفكرة.

الفكرة الطبية تذهب من العارض إلى الجرح. وقد اتفق كبار الأطباء في المحافل الشهيرة والمؤتمرات الطبية الدولية على أهمية الجهاز العصبي النباتي، والدماغ المتوسط، والغِدد الصّمّاء، والترابط بين الجسدي والنفسي في العِلل، ونوبات العَصَب الودي. ولكنهم ما زالوا يعلمون الأطباء أن كل عارض يفترض تشخيص وظيفي للمرض أكثر من اهتمامه بتشخيص عضوي له. إلا أنه لم يتم فرض التيار الفكري هذا بعد على منابر تدريس علم

وجود جرح يسبّبه. وحين يدّعي المريض إصابته بصداع ودوار، ويشتكي من طنين في أذنيه، فلا بد أن يشكو في الوقت نفسه من ارتفاع ضغط الشرايين. ولكن، حين تظهر هذه العوارض نفسها، ولا تكون مصحوبة بارتفاع ضغط ولا بتورّم داخل الجمجمة، ولا يتوصل الطبيب في أي حال إلى أي نتيجة إيجابية، فسيرى حينذاك أن الفكرة الطبية مزيّفة؛ وبما أن كل فكرة لا بد وأن تقترن بموضوع ما، فسيرى أن المريض مزيف، فهو مريض صعب المراس وغير مطيع وجاهل لقاعدة اللعبة، مع أن هذه القاعدة دقيقة للغاية فهي تنص على ما يلي: كل عارض يستلزم جرحاً.

وهذا المريض، ماذا أفعل به؟ فها هو عائد إليّ بتشخيص «التناذر المَغربي» من القسم حيث أرسلته حتى يخضع لجراحة محتملة. حينذاك سيصبح الأبقراطي الشاب الوافد حديثاً على اتصال فعليّ بالكاتب موليير (Molière) عبر مرضاه المَغاربة. إنه مريض بالوهم! لو كان موليير (Molière)... سأنطق الآن بحماقة، مع أن كل تلك الأسطر لا تقوم سوى بتوضيح حماقة أعظم منها وفضحها بشكل جلي. فلو قُيِّض لموليير (Molière) العيش في القرن العشرين، فبالتأكيد ما كان ليكتب المريض بالوهم لأنه ما من شك لأحد بأن بطل الرواية أرغان (Argan) مريض. إنه مريض فعلياً وبشكل فعال:

كيف تقولين أيتها الخبيثة لو كنت مريضاً؟! لو كنت مريضاً أيتها الوقحة؟!

إنه التناذر المَغربي. يحمل اليوم المَغربي الآتي من أجل معاينة وزناً معطّلاً يسببه مواطنوه كافة. هؤلاء هم كل من لم يحمل سوى عوارض وكل من قيل بشأنه: «ما من علة يمكن لمسها لمس اليد»، مما يعني: ما من جرح. ولكن هذا المريض

هذا الجسد يرغمني على التفكير بأنه يملك شيئاً من الوعي، فهو ما عاد جسداً كاملاً، أو بالأحرى استحال جسداً مضاعفاً لاضطرابه من الذعر. هذا الجسد، الذي يطلب مني الاستماع إليه فيما لا أكترث لطلبه، سيُشعل فيّ روح التمرد.

ـ ما الذي يؤلمك؟

ـ معدتي (ويشير إلى كبده).

فأغضب وأقول له إن المعدة هي في الجهة اليسرى وإن ما يشير إليه هو موضع الكبد. فلا يضطرب إطلاقاً، بل يمرّر راحة يده على ذاك البطن الغامض ويقول:

ـ يؤلمني كل ذلك.

وأنا أعرف أن «كل ذلك» يضم ثلاثة أعضاء؛ ولأكون دقيقاً تماماً، فالعدد خمسة أو ستة. وأعلم أن لكل عضو مرضاً خاصاً به. أما ذاك المرض الذي ابتكره العربي فلا يهمنا بما أنه مريض وهمي.

كل عربي هو مريض بالوهم. أما الطبيب الشاب أو الطالب الشاب، الذي لم يرَ في حياته عربياً مريضاً، فيعلم علم اليقين أن «هؤلاء القوم مهرجون»، (وفي ذلك راجعوا العرف الطبي القديم). ويشعر أن في المريض خللاً ما يدعوه دوماً إلى التفكير. فأمام العربي يميل الطالب أو الطبيب إلى رفع الكلفة من دون حرج. وقد يقولون لنا إن ذلك هو من باب اللطف... حتى يشعروا بالراحة... فهم معتادون على رفع الكلفة... أقدم اعتذاري، فأنا غير قادر على تحليل هذه الظاهرة متسلحاً بالموقف الموضوعي الذي فرضته على نفسي.

قال لي طبيب معاون ذات مرة إنه لا يستطيع المقاومة، فهو لا يقدر أن يخاطبهم كما يخاطب سائر المرضى.

أجل! ولمَ لا؟ إنه لا يستطيع المقاومة. آه لو عرفتم ما لا

أستطيع مقاومته في حياتي. لو عرفتم ما ينكّد حياتي عندما يخدّر الآخرون عقولهم. آه لو عرفتم... ولكنكم لن تعرفوا يوماً.

يكتشف الفريق الطبي وجود تناذر مَغربي. لم يكتشفه بواسطة التجارب إنما من خلال عُرف شفهي. يحتل المَغربي مكانه داخل هذا التناذر غير العَرَضي ويتحدد موقعه تلقائياً على خارطة عدم الانضباط (وفي ذلك راجعوا الانضباط الطبي) وعدم المطابقة (بالنسبة إلى قانون: كل عارض يستلزم جرحاً) والخداع (فهو يدّعي المعاناة في حين أننا على يقين بعدم وجود أي دواع للمعاناة). تظهر في هذا الإطار فكرة غير ثابتة تتأرجح على حدود سوء نيتي، وحين يكشف العربي عن نفسه عبر كلامه: «سيدي الطبيب! سوف أموت!»، ستفرض هذه الفكرة نفسها بعد أن تجتاح بضع تعرّجات في دماغي وستخدعني.

حتماً إن هؤلاء ليسوا بالقوم الجديين.

الفَرَضية الثالثة: هي أن أفضل الأرادات وأصفى النيّات تستوجب إيضاحاً. وضرورة تشخيص وضعي.

في مقالة حول الطب الجسدي ـ النفسي، يستعيد الدكتور شترن (Stern) أعمال هاينريخ منغ (Heinrich Meng) فيكتب: لا يكفي مجرد العثور على العضو المصاب وطبيعة الجروح العضوية في حال وجودها ونوعية الجراثيم التي اجتاحت الجسم؛ ولا تكفي معرفة «تكوين المريض الجسدي»، إنما لا بد من محاولة معرفة ما يسميه منغ «وضعه» أي علاقاته بمحيطه، ومشاغله وانشغالاته، وحياته الجنسية، وتوتره الداخلي، وشعوره بالأمان أو

---

(1) د. إ. شترن E. Stern، طب جسدي ـ نفسي، النفس، كانون الثاني/ جانفي ـ شباط/ فيفري 1949، ص 128.

بعدم الأمان، والمخاطر التي تهدد حياته؛ ولنُضِف أيضاً تطوره وقصة حياته. فلا بد من إقامة «تشخيص وضعي». يقترح الدكتور شترن (Stern) علينا تصميماً مذهلاً. سوف نتبعه.

1) علاقاته بمحيطه. – هل لا بد من الحديث عنها فعلاً؟ أليس في الحديث عن علاقات المَغربي بمحيطه في فرنسا شيء من الكوميدي؟ هل لديه علاقات؟ هل لديه محيط؟ أليس وحيداً؟ أليسوا وحيدين؟ ألا يبدون لنا عبثيين أي من خارج الواقع وهم يركبون القطارات الكهربائية أو الباصات الكهربائية؟ من أين يأتون؟ وإلى أين يذهبون؟ نلمحهم من وقت إلى آخر يعملون في عمارة، ولكننا لا نراهم بل نلمحهم ونشاهدهم. أتقولون محيطاً؟ وعلاقات؟ لا اتصالات لهم مع غيرهم بل مجرد صدامات. أتعرفون كم تحمل كلمة اتصال من لياقة وعذوبة (عذوبة وليس تعذيباً)؟ فهل من اتصالات؟ وهل من علاقات؟

2) مشاغله وانشغالاته. – يعمل ويشتغل ويكون مشغولاً ويأتيه شغل. أما انشغالاته؟ أظن أن الكلمة غير موجودة في لغته. وبمَ ينشغل؟ يُقال في فرنسا: إنه ينشغل بإيجاد عمل، أما في المَغرب العربي فيقال: إنه يشتغل على إيجاد عمل.

– عذراً سيدتي، ما هي انشغالات المَغربي بحسب رأيك؟

3) حياته الجنسية. – أسمعكم بوضوح: إنها قائمة على الاغتصاب. وحتى أبرهن كم يمكن لدراسة معتّمة أن تسيء إلى كشف ظاهرة معينة على حقيقتها، أود استعادة بعض الأسطر من أطروحة دكتوراه في الطب ناقشها الدكتور ليون مونييري (Léon Mugniery) في ليون في عام 1951:

«في المنطقة الفرنسية الجنوبية، قام ثمانية من أصل عشرة بالزواج من مومسات. ويعيش معظم الباقين في معاشرة طارئة وقصيرة يرافقها زواج في بعض الأحيان. وغالباً ما يستضيفون لبضعة أيام مومساً أو أكثر يصطحبون إليهنّ أصدقاءهم.

«لأن الدعارة تؤدي كما يبدو دوراً مهماً في الوسط المَغربي[1]... وتنجم عن نزوع جنسي قوي خاص بهؤلاء الجنوبيين ذوي الدم الحامي».

وفي موضع آخر:

«ومن الجائز تقديم اعتراضات متعددة واستخدام أمثلة كثيرة للإثبات بأن محاولات إيواء المَغاربة بشكل ملائم محكومة بالفشل.

«إنهم شبان بمعظمهم تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين يتمتعون بحاجات جنسية عظيمة لا يمكن لروابط زيجة مختلطة أن تحصرها إلا بشكل مؤقت ويعتبرون المُثلية الجنسية ميلاً مفجعاً...

«لهذه المشكلة حلول قليلة: علينا إما تيسير جمع العائلة العربية في فرنسا واستقدام شابات ونساء عربيات رغم مخاطر[2] غزو تلك العائلات للمجتمع الفرنسي نوعاً ما في هذه الحال؛ أو السماح لهم بإقامة مواخير...

«إذا لم نأخذ هذه العوامل بعين الاعتبار، فقد نشهد أكثر فأكثر محاولات اغتصاب كالتي تورد الصحف أمثلة عنها

---

(1) استرعي انتباهكم إلى هذه الجملة (ص 20).
(2) استرعي انتباهكم إلى هذه الكلمة (ص 20)

باستمرار. ومما لا شك فيه أن هذه الواقعات تشكل تهديداً أكبر للآداب العامة مما تشكله إقامة بيوت دعارة».

وليختم الموضوع، يستنكر الدكتور مونييري (Muniery) خطأ الحكومة الفرنسية، فيكتب في أطروحته الجمل التالية بحروف كبيرة بارزة: «يبدو أن منح المواطنية الفرنسية المتضمنة مساواة في الحقوق كان مبكراً للغاية ومستنداً الى دوافع عاطفية وسياسية أكثر من استناده إلى واقع التطور الإجتماعي والفكري لعرق تتسم حضارته بالرقي أحياناً، إنما لا يزال تصرفه الاجتماعي والعائلي والصحي تصرفاً بدائياً». (ص 45).

هل من إضافات لازمة؟ أمن الضروري استعادة تلك الجمل واحدة تلو الأخرى؟ وهل من الضروري تذكير الدكتور مونييري (Mugniery) بأنه إذا اكتفى المَغاربة بالمومسات في فرنسا، فلأنهم أولاً يجدون فيها مومسات، وثانياً لا يجدون فيها أي نساء عربيات (فقد يغزين الأمة).

4) توتره الداخلي ـ ألا فكرة لديكم عن الواقع؟ حري بكم التحدث عن توتر الحجر الداخلي. التوتر الداخلي؟! يا لها من مزحة!

5) شعوره بالأمان أو بعدم الأمان. ـ لا بد من إلغاء الاحتمال الأول. فالمغربي يعيش في عدم أمان دائم أو عدم أمان مجزأ.

أتساءل في بعض الأحيان إن لم يكن من الأفضل إطلاع الفرنسي المتوسط على مصيبة الانتماء إلى المَغرب العربي، فالمَغربي ليس أكيداً من نفسه. قد تقولون لي إن له حقوقاً، ولكنه لا يعرف حقوقه. بالفعل حقاً! ما عليه إلا معرفتها. أجل، ولمَ لا؟ فالمعرفة وحدها تخلصه من الورطة. حقوق وواجبات

ومواطنية ومساواة، كلها مفاهيم رائعة! ولكن المَغربي الواقف على عتبة أمّة فرنسية، هي أمته بحسب ما يقال له، لا يشكل في المجال السياسي وعلى الصعيد المدني سوى حالة معقدة لا يريد أحد مواجهتها. أتسألون عن صلة هذه المسألة بمعاناة المغربي في الوسط الاستشفائي؟ إن الصلة قائمة بالفعل.

6) المخاطر التي تهدد حياته.

إنه مهدد في وجدانه،

ومهدد في نشاطه الاجتماعي،

ومهدد في إنتمائه إلى المدينة،

إن المَغربي يجمع كل الشروط التي تجعل الإنسان إنساناً مريضاً.

إن كان من دون عائلة ولا حب، ومن دون علاقات إنسانية ولا مشاركة مع الجماعة، فلا بد للقاء الأول مع ذاته أن يجري بطريقة عُصابية وبطريقة مَرَضية وأن يشعر بالفراغ وبإنعدام الحياة وبدنوّ الموت، موت يتخطى الموت، موت في الحياة. فهل من أمر يثير الشفقة أكثر من سماع رجل مفتول العضلات يقول بصوت يرتعش خوفاً: «سأموت يا حضرة الطبيب».

7) تطوره وقصة حياته. ـ إنها بالأحرى قصة موته. إنه موت يومي:

موت في الترامواي،

موت أثناء المعاينة الطبية،

موت مع المومسات،

موت في ساحة العمل،

موت في السينما،

موت متكرّر في الصحف،

موت خوفاً من كل الناس الشرفاء عندا يخرج بعد منتصف الليل.

إنه الموت بحد ذاته،

لا بل إنه الموت بكل جبروته.

ستقولون لي: إن كلامك لرائع جداً، ولكن ما الحل الذي تقترحه؟

تَسِمونهم بالغموض وضعف الشخصية... وتقولون:

«من واجبنا الاحتراس منهم».

«لا بد من دفعهم خارج المستشفى».

«إذا استمعنا إليهم، فسنطيل فترة شفائهم إلى ما لا نهاية».

«لا يجيدون التعبير عن أنفسهم».

كما أنهم كاذبون،

وهم سارقون أيضاً (إذ يقال: سارق كالعربي)، وأيضاً وأيضاً وأيضاً.

العربي سارق،

وكل العرب سارقون.

إنه عرق متكاسل،

متسخ،

مقرف.

لا يمكن تحسين وضعهم،

ولا يمكن اجتراح المعجزات معهم.

إنهم بالتأكيد يقاسون الأمَرّين من حالتهم تلك،

من شدة قرفهم،

ولكن لنفترض أخيراً أن الخطأ ليس خطأنا في الأصل.

– في الحقيقة إن الخطأ هو خطأنا نحن.

إن الخطأ هو خطأك أنت تحديداً.

كيف تدعي ذلك وأنت ترى الرجال يجتازون مرةً تلو الأخرى رواقاً بنيتَه من أجلهم، إنما لم توفر فيه مقعداً واحداً يستريحون عليه، بل ركزتَ فيه عدداً من الفزّاعات تصفع وجوههم بغضب شديد، فيجرحون فيه وجوههم وصدورهم وقلوبهم.

لا يجدون فيه مكاناً لهم،

ولا تخصص لهم مكاناً فيه،

فلا مجال كي يكون لهم مكان فيه إطلاقاً.

ثم تجرؤ على إخباري بأن المسألة لا تعنيك!

وأن الخطأ ليس خطأك!

كيف تدّعي ذلك وأنت تشيّىء هذا الرجل الإنسان والذي تُطلق عليه اسم محمد، ثم تعيد بناءه أو بالأحرى تفككه إنطلاقاً من فكرة تعرف مدى نذالتها. فأنت تعلم جيداً أنك تنزع عنه صفة محددة، صفة كنت مستعداً منذ فترة غير بعيدة أن تضحي من أجلها بكل ما لديك حتى بحياتك.

ماذا إذاً؟ ألا تشعر بأنك تجرّد هذا الإنسان من جوهره؟ ما عليهم سوى البقاء في بلادهم!

بالفعل! إن المأساة هي التالية: ما عليهم سوى البقاء في بلادهم. ولكن تم إبلاغهم بأنهم فرنسيون. تعلّموا ذلك في المدرسة وفي الشارع وفي الثكنات حيث كانوا ينتعلون أحذية وعلى ساحات المعارك أيضاً. لقد تم إدخال فرنسا في كل جزء من أجسادهم و «نفوسهم» يتسع لفكرة عظيمة من دون شك.

أما الآن، فيتردد على مسامعهم بشتى الطرق بأنهم في «بلادنا». وإن لم يكونوا مسرورين، فما عليهم سوى العودة إلى مساكنهم الفخمة. ولكن هذه المسألة تطرح مشكلة بحد ذاتها.

إذ يدعي البعض أنه مهما تغيرت أحوال المَغربي في فرنسا، فهو سيكون أكثر سعادة في بلاده...

كما تبين الباحثون في إنكلترا أن الطفل الذي يتغذى بشكل كامل ويحصل على رعاية حاضنتين تعتنيان به طوال الوقت، إنما لا يعيش ضمن وسط عائلي يعرف المرض مرتين أكثر من طفل لا يتغذى جيداً إنما يعيش مع والديه. وما من داع للتوسع أكثر في المسألة، فلنفكر فقط في كل من عاش حياة لا مستقبل لها في بلاده ورفض مناصب رفيعة في الغربة. فما نفع المنصب الرفيع حين لا يفضي به إلى وسط عائليّ أو أبويّ ولا يسمح له بتوسيع «الوسط»؟

يعتبر علم التحليل النفسي أن التغرّب هو ظاهرة مَرَضية. وهو محق في ذلك تماماً. إن هذه الملاحظات تسمح لنا باستنتاج ما يلي:

1) لن يكون المَغربي أكثر سعادةً في أوروبا مما هو عليه في بلاده، لأنه مُرغم على العيش محروماً حتى من سبب وجدانه. فبعد انقطاعه عن جذوره وغاياته، يتحول إلى غرض مرميّ داخل الصخب الكبير، خاضع قسراً لقانون الجمود.

2) يُظهر هذا الكلام سوء نية جلياً ودنيئاً. فإذا كان مستوى معيشة (؟) المَغربي في فرنسا أفضل من المستوى الذي اعتاد عليه في بلاده، فذلك يعني أنه ما زال أمامه الكثير ليقوم به في وطنه، ذلك «الجزء الآخر من فرنسا». فعليه بناء المنازل وافتتاح المدارس وشق الطرقات وتدمير الأكواخ القذرة وجعل المدن تنبثق من باطن الأرض ورسم الابتسامة على شفاه الرجال والنساء والأطفال، خصوصاً الأطفال. وذلك يعني أن عملاً كثيراً ينتظره هناك، عملاً إنسانياً، عملاً

يوازي تأسيس بيت لا مجرد غرفة أو ثكنة. وذلك يعني أن الأمة الفرنسية (بدولتها الأصلية ومستعمراتها) بحاجة إلى من يجفف فيها الدموع ويحارب المواقف غير الإنسانية ويجعل الشتائم العنصرية غير مقبولة ويعيد إلى الناس شيئاً من صفاتهم الإنسانية ويُرجع حركة السير إلى شوارع من مثل شارع مونسي[1].

تسألني: ما هو حلك يا سيد؟

ولكن لا تُغظني ولا تجبرني على قول ما يتوجب عليك معرفته يا سيد. فإن لم تطالب أنت بنفسك بالرجل الواقف أمامك، فكيف تريدني أن أفترض بأنك تطالب بالرجل الكائن في داخلك؟

وإن لم تستدع الرجل الكائن في داخلك وتضحِّ به حتى يكون الرجل على هذه الأرض أكثر من مجرد جسد، أكثر من شخصٍ اسمه محمد، فأي طريق مرواغ عليّ أن أسلك لأتأكد من أنك، أنتَ أيضاً، تستحق حبي؟

---

(1) شارع في حي فقير في ليون يسكنه عدد كبير من المَغاربة.

2 ـ الأنتيليون والأفارقة[1]

منذ سنتين، وفيما كنت أنهي عملاً[2] حول مسألة الرجل الأسود في العالم الأبيض، عرفت أنه لا ينبغي اقتطاع الواقع إطلاقاً. ولم أكن أجهل يوماً أن داخل «الشعب الأسود» نفسه وداخل ذلك الكيان، يمكن تمييز حركات مقيتة للغاية لسوء الحظ. فما أقصده مثلاً هو أن عدو الزنجي ليس الأبيض في أغلب الأحيان بل هم أناس من أمثاله. لذلك، أعلنت عن إمكانية إجراء دراسة تساهم في حل عُقَد انفعالية قد تقسم بين الأنتيليين والأفارقة.

وقبل الخوض في المناقشة، نود أن نلفت النظر إلى أن قصة الزنوج تلك قصة بشعة، قصة تصيبكم بالغثيان، قصة نجد أنفسنا أمامها مجرّدين تماماً من أي سلاح إذا سلّمنا بمنطق الأنذال. وحين أقول إن عبارة «شعب أسود» تشكل كياناً، فأشير بذلك إلى أننا لو استبعدنا التأثيرات الثقافية عنها، فلن يتبقى منها شيء. فالتباين بين الأنتيلي والدكاري قد يكون موازياً للتباين بين

(1) نصّ منشور في مجلة فكر في شباط/فيفري من عام 1955.

(2) «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» (مجموعة فكر، دار سوي (Seuil)).

البرازيلي والمدريليني. وما يبحث عنه البعض في شمل الزنوج كافة ضمن تسمية «الشعب الأسود» هو انتزاع كل إمكانية تعبير فردي منهم. وما يبحث عنه البعض إذاً هو إجبارهم على الامتثال للفكرة التي يكوّنونها عنهم. وممن قد يتألف «الشعب الأبيض»؟ أليس من الواضح أنه من غير الممكن الحديث إلا عن عرق أبيض؟ وهل من الضروري أن أشرح الفارق بين الأمة والشعب والوطن والجماعة؟ حين نقول «شعباً أسود»، نفترض منهجياً أن السود جميعاً يتفقون على أمور معينة؛ وأن بينهم مبدأ مشاركة. والحقيقة أن ما من سبب يدعو إلى الافتراض مسبقاً بوجود شعب أسود. فوجود شعب إفريقي مثلاً هو واقع أقرّ به؛ ووجود شعب أنتيلي هو واقع أقرّ به أيضاً[1]. ولكن، حين يحدثونني عن «ذلك الشعب الأسود»، أحاول الفهم. وحينذاك أفهم لسوء الحظ أن في ذلك مبعثاً للنزاعات. فأحاول تدمير ذلك المبعث.

ستروننى أستخدم كلمات مثل: الذنب الماورائي أو جنون النقاء. وسأطلب من القرّاء ألا يدهشوا إطلاقاً: فذلك يصبح دقيقاً إذا فهمنا أننا حين لا نستطيع إدراك الجوهر، ولنكون أكثر تحديداً، حين لا نتمناه، نرتد إلى ما هو عَرَضي. إنها إحدى قواعد المهاترة وسوء النية. لذا، فلا بد من استعادة الجوهر ونزع ظاهرة العَرَضي بشكل طارىء.

ما هي المسألة التي أتناولها تحديداً؟ في خلال خمسة عشر

---

(1) فلنقل إن تنازلاتنا غير واقعية. فلا وجود لشعب إفريقي من الناحيتين الفلسفية والسياسية إنما لعالم إفريقي، كذلك إنه عالم أنتيلي. وبالمقابل يمكن الحديث عن وجود شعب يهودي وليس عن عرق يهودي.

عاماً، حدثت ثورة في العلاقات الأنتيلية - الإفريقية. وأود أن أبيّن أسباب هذا الحدث.

إن المواقف العنصرية المتصلبة هي شبه نادرة في المارتينيك. فالمشكلة العنصرية تغطيها التفرقة الاقتصادية وتنتج عنها بشكل خاص رواية الطُّرَف وسط طبقة اجتماعية محددة. فإزدياد سواد البشرة ليس كفيلاً بتشويه العلاقات. ومهما ازدادات أو تدنت درجة اسوداد البشرة بفعل القُتامين، فبين الطرفين اتفاق ضمني يسمح لكل منهما بتعرّف جماعته من أطباء وتجار وعمال. فالعامل الأسود يقف إلى جانب العامل الخلاسي ضد البورجوازي الأسود؛ مما يبرهن لنا أن الروايات العنصرية ليست سوى بنية سطحية أو غطاء أو تعبير مبهم عن إيديولوجية تخفي وراءها واقعاً اقتصادياً.

وحين يلاحظ المرء هناك أن رجلاً معيناً إنما هو شديد السواد، لا تتم ملاحظته عن احتقار أو كراهية. ولفهم ما يجري، لا بد من الاعتياد على ما يسمى بروح أهل المارتينيك. لقد برهن يانكيليفيتش (Jankelevitch) أن السخرية هي من أشكال راحة الضمير. وتشكل السخرية، في جزر الأنتيل تحديداً، آلية للحماية من الإصابة بالعصاب النفسي. فلا بد أن يكتشف الأنتيلي يوماً ما واقع كونه زنجياً لا سيما إذا كان مثقّفاً تخطى حدود السخرية. هذا هو الحال إذاً، ففي حين أن السخرية في أوروبا تحمي الأسود من القلق الوجودي، فهي في المارتينيك تحميه من الشعور بإنتمائه إلى الزنوج أو بزنجيته. وهكذا، تقتضي مهمتنا تغيير وجهة المشكلة وإعادة العَرَضي إلى مكانه وإفساح المجال أمام أهل المارتينيك أن يختاروا القيم العليا. وندرك الآن إذاً كل ما يمكن قوله في حال درسنا هذا الوضع انطلاقاً من المراحل التي وضعها

كيركيغارد (Kierkegaard). وندرك أيضاً أن دراسة السخرية في جزر الأنتيل تعتبر أساسية بالنسبة إلى علم الاجتماع في تلك المنطقة. فالعدائية هناك تبطنها السخرية[1] في معظم الأحيان.

ولتسهيل عرضنا، يبدو لنا أنه من المفيد التمييز بين حقبتين عرفهما التاريخ الأنتيلي هما: زمن ما قبل الحرب التي امتدت بين العامين 1939 و1945 وما بعدها.

زمن ما قبل الحرب

كان الأنتيلي قبل عام 1939 يقول إنه سعيد[2]، أو هذا على الأقل ما كان يظنه. إذ يدلي بصوته ويذهب إلى المدرسة حين يقدر ويشارك في الطواف ويهوى شرب الروم ورقص البيغينة. ومن يتمتع بامتياز الذهاب إلى فرنسا يتحدث عن باريس بإعجاب ويجل فرنسا. ومَن لم يتسنّ له معرفة فرنسا يدع الآخرين يهدهدونه بأخبار عنها.

ومن الأنتيليين كذلك الموظفون العاملون في إفريقيا. نرى من خلالهم بلاد المتوحشين والمتخلفين والسكان الأصليين والغلمان. وإذا لم نرد أن نشوّه المسألة، فلا بد لنا من إضافة معلومات محددة. فلقد عَوَّدنا الموظف لدى الدولة المستعمِرة العائد من إفريقيا على أفكار سلبية معادة: كالشعوذة والسحر التيمي (عبادة الأشياء المسحورة) وقرع الطبول والبساطة والوفاء

(1) العودة مثلاً إلى الكرنفال والأغاني المؤلفة لهذه المناسبة.

(2) كان بإستطاعتنا القول: مثل بورجوازيي فرنسا في تلك الحقبة، إلا أن ذلك ليس هدفنا. فما نبغيه من هذا البحث هو دراسة تغير موقف الأنتيلي تجاه الزنجية.

احترام الأبيض والتخلف. والمأساوي في المسألة هو أن الموظف الأنتيلي لا يتحدث بطريقة مختلفة عن إفريقيا. وربما أن الموظف ليس حارس المستعمرات فحسب بل هو الشرطي وموظف الجمارك وكاتب المحكمة والجندي، عرف أفراد المجتمع الأنتيلي بمستوياته كافة شعوراً ثابتاً بالتفوق على الإفريقي وأخذ هذا الشعور ينمو وينتظم ويتصلب. ولم يكن كل أنتيلي قبل حرب عام 1939 على يقين بتفوقه على الإفريقي فحسب، بل باختلافهما الجوهري. فالإفريقي كان زنجياً، والأنتيلي أوروبياً.

ويبدو أن الجميع يعرفون هذه الحقائق جيداً، ولكنهم لا يعيرونها أي أهمية على الإطلاق. فقبل عام 1939، كان الأنتيلي الملتزم طوعاً داخل المستعمرة، أمياً كان أم مطلعاً على أصول القراءة والكتابة، يخدم داخل وحدة أوروبية فيما يخدم الإفريقي داخل وحدة أهلية بإستثناء من كان إفريقياً قادماً من إحدى المقاطعات الخمس. إن الخلاصة التي نود لفت إنتباهكم إليها هي تفوق الأنتيلي على الإفريقي في كل الميادين نظراً لاختلاف جوهره وتشبيهه بواحد من أهل البلد المستعمِر. ولكن، بما أن ظاهره إفريقي بعض الشيء، لأنه في الواقع أسود البشرة، اضطر أن يرسّخ حدوده ليتجنّب كل احتقار، ما يعتبر ردة فعل طبيعية منه ضمن إطار تركيبه النفسي.

فلنقل إن الأنتيلي غير الراضي عن تفوقه على الإفريقي كان يحتقره في الوقت نفسه. وإذا استطاع الأبيض أن يسمح لنفسه بالتطاول على السكان الأصليين، فالأنتيلي لم يستطع القيام بذلك إطلاقاً. إذ لم يكن من داع للتنبيه على الالتزام بالنظام بين البيض والأفارقة، فذاك أمر جلي. ولكن يا للفاجعة إذا ما حسب أحدهم الأنتيلي إفريقياً على حين غرة!...

ولنقل أيضاً إن أوروبا صدقت على مركز الأنتيلي هذا، فالأنتيلي لم يكن زنجياً بل أنتيلياً أي أشبه بواحد من أهل البلد المستعمِر. وبإتخاذه هذا الموقف، اعتبر الأبيض أن الأنتيلي محق في احتقاره للإفريقي. فالزنجي هو من كان يسكن إفريقيا في الإجمال.

وفي فرنسا قبل عام 1940، كان تقديم أنتيلي إلى مجتمع راقٍ في بوردو أو باريس يترافق دائماً مع الإضافة التالية: إنه قادم من المارتينيك. وأشدد على ذكر المارتينيك حتى ألفت إنتباهكم إلى أن الغوادلوب كانت تعتبر بلاداً للمتوحشين، أما خلفيات هذا الاعتبار فلا تزال مجهولة حتى الآن. واليوم أيضاً ونحن في العام 1952، قد يحدث لنا أن نسمع شخصاً من المارتينيك يؤكد لنا: «إنهم (أي سكان الغوادلوب) أشد توحشاً منا».

أما الإفريقي فكان، من جهته، الممثل الحقيقي للعرق الأسود في إفريقيا. حتى أنه إذا طلب رب عمل من عامله الآتي من المارتينيك القيام بمجهود عظيم، تلقى منه الجواب التالي: «إذا أردت لك زنجياً، فعليك أن تأتي به من إفريقيا»، قاصداً بقوله أن استخدام العبيد وعمال الأشغال الشاقة يجري في مكان آخر، هناك عند الزنوج.

أما الإفريقي المنتَقَصة قيمته والمحتَقَر عادةً ماخلال بعض «المتطورين» النادرين، فكان، من جهته، يوغل داخل متاهة بشرية. فكما نرى، كانت المراكز جلية واضحة: الزنجي الإفريقي من جهة؛ والأوروبي والأنتيلي من جهة أخرى. ويبقى الأنتيلي أسود البشرة، إنما يبقى الأسود في إفريقيا.

وفي عام 1939، لم يعلن أي أنتيلي عن كونه زنجياً ولم يطالب بزنجيته. وإذا فعل ذلك، قام به في علاقاته مع الأبيض.

كان الأبيض، «الأبيض السيِّىء» مَن يجبره على المطالبة بلون بشرته، أو الدفاع عنه لمزيد من الدقة. ولكن يمكننا التأكيد أن ما من مطالبة عفوية واحدة بالزنجية برزت في عام 1939 في جزر الأنتيل.

حينذاك وقعت أحداث ثلاثة بشكل متتابع.

كان أولها وصول سيزير (Césaire).

فللمرة الأولى عرف المجتمع الأنتيلي معلم مدرسة أي رجلاً فاضلاً بحسب الظاهر يقول له ببساطة إنه «الجميل وجيد أن يكون المرء زنجياً». كانت بالتأكيد فضيحة. فبدأت الروايات في تلك الحقبة عن جنونه وأخذ زملاء دفعته على عاتقهم إعطاء التفاصيل حول مرضه المزعوم.

فما الأكثر نفوراً فعلياً من رجل متعلم بل خريج جامعي لا بد أنه فهم دروس الحياة ومنها «أنه من السيِّىء أن يكون المرء زنجياً»، يذهب إلى حد الإعلان بأن بشرته جميلة وبأن «الثقب الأسود الكبير» هو مصدر للحقيقة؟ لم يفهم الخلاسيون ذاك الهذيان ولم يفهمه الزنوج؛ لأن الخلاسيين هربوا من الليل، ولأن الزنوج يتطلعون إلى الخروج منه. إن قرنين من الحقيقة البيضاء كفيلان بإعلان خطأ ذلك الرجل. كان لا بد من أن يكون مجنوناً، فما من مجال لأن يكون عاقلاً محقاً.

وبعد هدوء الانفعال، بدا أن الحياة استعادت طابعها الأول... وكان خطأ سيزير (Césaire) سيتأكد حين وقع الحدث الثاني: أقصد بذلك الهزيمة الفرنسية.

لقد شهد الأنتيلي من خلال هزيمة فرنسا مقتل والده إذا جاز القول. وكان من الممكن أن يعيش الناس هذه الهزيمة الوطنية كما حصل في البلد المستعمِر، إلا أن قسماً كبيراً من الأسطول

الفرنسي بقي محتجزاً داخل الأنتيل في خلال سنوات الاحتلال الألماني الأربع. والآن أريد أن ألفت انتباه القارىء، إذ أظن أنه من الضروري أن يعرف أهمية تلك السنوات الأربع من الناحية التاريخية.

فقبل عام 1939، كان يعيش حوالى الألفي أوروبي في المارتينيك. وشغل هؤلاء الأوروبيون مناصب محددة واندمجوا في الحياة الاجتماعية واهتموا باقتصاد البلد. ولكن بين ليلة وضحاها، أصبحت مدينة فور - دو - فرانس وحدها مكتسحة بما يقارب العشرة آلاف أوروبي متمتعين بعقلية عنصرية ثابتة أبقوها مضمرة حتى ذلك الوقت. وأقصد أن بحارة بيارن وإميل - برتين الذين وصلوا إلى فور - دو - فرانس منذ ثمانية أيام فقط لم يتّسع أمامهم الوقت لإظهار أحكامهم العنصرية المسبقة. ولكنهم كانوا مجبرين في خلال أربع سنوات على العيش منغلقين على أنفسهم وعاطلين عن العمل ورهائن للقلق عند تفكيرهم بأهلهم المتروكين في فرنسا، وضحايا اليأس في ما خص المستقبل في أغلب الأحيان. وسمحت لهم تلك السنوات الأربع أن يظهروا على حقيقتهم ويتخلوا عن حساباتهم السطحية ليتصرفوا «كعنصريين حقيقيين».

ولنضف إلى ذلك أن الاقتصاد الأنتيلي عانى ضربةً قاسية، فبذلك أيضاً ومن دون أي تمهيد استحال الاستيراد وكان لا بد من تأمين الغذاء لعشرة آلاف رجل. وتمكن أيضاً الكثير من أولئك البحارة والجنود من استقدام نسائهم وأولادهم واضطروا إلى البحث عن مأوى لهم. فعرفت المارتينيك أزمة سكن بعد أزمتها الاقتصادية. وحمّل أهل المارتينيك أولئك البيض العنصريين مسؤولية مأساتهم. وبدأ الأنتيلي بالشك في قيمة إزاء أولئك

الرجال الذين يحتقرونه. فعرف الأنتيلي وتجربته الماورائية الأولى.

وبعد ذلك، تحررت فرنسا. وتحدث ديغول في لندن عن الخيانة وعن جنود سلّموا أسلحتهم قبل أن يشهروها. فساهم كل ذلك في إقناع الأنتيلي بأن فرنسا، بلد هؤلاء، لم تخسر الحرب إنما قام خونة ببيعها. وأين كان أولئك الخونة إن لم يكونوا مختبئين في جزر الأنتيل؟ كما شهد الناس واقعة غير مألوفة: إذ رفض أنتيليون أن ينزعوا قبعاتهم أثناء عزف النشيد الوطني الفرنسي. وأي أنتيلي لا يتذكر سهرات أيام الخميس تلك حين كانت دوريات البحارة المسلحين تطالب بالوقوف صمتاً أثناء عزف النشيد الوطني في ساحة السافان؟ فماذا حصل إذاً؟

اتبع الأنتيليون نهجاً يسهل فهمه حين اعتبروا أن فرنسا الخاصة بأولئك البحارة هي فرنسا السيئة وأن النشيد الوطني الذي يحترمه أولئك الرجال لا يخصهم. ولا بد من التذكير بأن أولئك الجنود كانوا عنصريين. ولكن «لا يخفى على أحد أن الفرنسي الحقيقي ليس عنصرياً أي أنه لا يعتبر الأنتيلي زنجياً». وبما أنهم كانوا يقومون بذلك فلأنهم لم يكونوا فرنسيين حقيقيين. ومن يدري؟ لربما كانوا من الألمان؟ وفعلاً تم اعتبار البحّار منهجياً وكأنه ألماني. إلا أن النتيجة التي تهمنا هي التالية: استنتج الأنتيلي أنه ملزم على الدفاع عن نفسه أمام عشرة آلاف عنصري. ولكان واجه صعوبة في المسألة لولا سيزير (Césaire). إلا أن سيزير (Césaire) كان حاضراً وبدا الجميع ينشدون معه تلك الأغنية المعتبرة مقيتة في السابق ومفادها أنه من الجميل والجيد أن يكون المرء زنجياً!...

وخلال سنتين دافع الأنتيلي خطوةً خطوة عن «لونه الفاضل»

ورقص فوق الهاوية من دون أدنى شك. فخلاصة الأمر أنه إذا كان اللون الأسود فاضلاً، فسيكون المرء فاضلاً أكثر كلما ازداد سواده! فخرج حينذاك من الظلمة ذوو السواد الحالك، أو «ذوو الدم النبيل» العِراق. وسيزير المنشد الوفي يردد: «مهما حاولوا طلاء جذع الشجرة باللون الأبيض، فالجذور تحت التربة تبقى سوداء». عند ذاك، لم يتحول الواقع إلى الرفع من قيمة الأسود كلونٍ فحسب، إنما تعداه إلى الأسود كوهم ومثَل أعلى، الأسود في المطلق وفي طابعه البدائي أو الزنجي. فماذا تسمون كل ذلك إن لم يكن تحريض الأنتيلي على إعادة بناء عالمه بالكامل وتغيير جسمه بشكل جذري؟ وماذا تسمون ذلك إن لم تكن مطالبته بنشاط خِلاقي معكوس ورفع قيمة المرفوض؟ ولكن القصة لم تنته بعد. ففي عام 1943 وبعد أنْ ملوا من نبذٍ لم يعتادوا عليه وثارت حفيظتهم وعرفوا الجوع، لم يعد الأنتيليون موزعين ضمن مجموعات اجتماعية كما في السابق، بل حطموا الحواجز كلها واتفقوا على ثوابت معينة منها أن الألمان تخطوا الحدود وانتزعوا منهم انضواءهم إلى فرنسا الحرة بدعم من الجيش المحلي. فاستسلم الأميرال روبير (Robert)، «ذاك الألماني الآخر». حينذاك، وقع الحدث الثالث.

ويمكن القول إن مظاهرات التحرير التي حصلت في جزر الأنتيل وفي المارتينيك تحديداً خلال شهري تموز/ جويليه وآب/ أوت من عام 1943 جاءت نتيجة لولادة البروليتاريا. فنظمت المارتينيك للمرة الأولى وعيها السياسي. ومن المنطقي أن تسفر الانتخابات التي تلت التحرير إلى وصول نائبين شيوعيين من أصل ثلاثة إلى المجلس. فتزامنت تجربة المارتينيك الماورائية الأولى أو بالأحرى تجربتها الأونطولوجية مع تجربتها السياسية الأولى.

لقد جعل كونت من البروليتاري فيلسوفاً نظامياً، أما البروليتاري المارتينيكي فهو من جهته زنجي منظّم.

زمن ما بعد الحرب

هكذا إذاً، غيّر الأنتيلي قيمه بعد عام 1945. ففي حين كان يعلّق آماله على أوروبا البيضاء قبل عام 1939 وينظر إلى الخير على أنه الهروب خارج لونه، اكتشف في عام 1945 أنه ليس أسود اللون فحسب، إنما زنجياً عليه أن يوجه امتداده نحو إفريقيا البعيدة. وكان الأنتيلي في فرنسا يذكّر الآخرين في كل لحظة بأنه ليس زنجياً: ولكن، ابتداءً من العام 1945، سيذكر الأنتيلي في فرنسا في كل لحظة بأنه زنجي.

وفي هذا الوقت، كان الإفريقي يتابع طريقه. لم يُصَب بالتمزق الداخلي، فما كان عليه أن يتخذ موقفاً من الأنتيلي ومن الأوروبي في آنٍ واحد. وكان لا بد من وضع هؤلاء في سلّة واحدة، سلة المجوّعين والمستغلين والأنذال. إلا أنهم كانوا بالطبع يعرفون إيبويه الأنتيلي الذي خاطب الأفارقة في مؤتمر برازافيل قائلاً لهم: «إخواني الأعزاء». ولم تكن هذه الأخوّة عائدة إلى الإنجيل، إنما مرتكزة إلى اللون. فتبنى الأفارقة إيبويه وأصبح واحداً منهم. وكان بإمكان الأنتيليين الآخرين أن يأتوا، فادعاؤهم بأنهم أوروبيون بات معروفاً. ولكنهم دهشوا كثيراً حين وصل الأنتيليون إلى إفريقيا بعد عام 1945 وتقدموا منهم بأيادٍ متضرعة وظهور محنية منهارين تماماً. وصلوا إلى إفريقيا وقلوبهم ممتلئة بالأمل يرغبون في استرجاع المصدر والرضاعة من ثدي الأرض الإفريقي الحقيقي. فشعر الأنتيليون جميعاً، الموظفون

والجنود والمحامون والأطباء بالتعاسة عند نزولهم في دكار لأنهم لم يكونوا سوداً كفاية. منذ خمسة عشر عاماً، قالوا للأوروبيين: «لا تعيروا بشرتي السوداء أي اهتمام فالشمس أحرقتها، أما نفسي فبيضاء مثل نفوسكم». وابتداءً من عام 1945، غيّروا حديثهم. فقالوا للأفارقة: «لا تعيروا بشرتي البيضاء أي اهتمام فنفسي سوداء مثل نفوسكم، وهذا هو الأهم».

ولكن الأفارقة كانوا يحقدون عليهم إلى درجة كبيرة فلم يستطيعوا أن يتغيروا بالسهولة نفسها. ولأنهم عُرفوا خلال خمس عشرة سنة بسوادهم ودكانتهم وبما كان يسمى بالذنب، لم يستطيعوا إلا أن ينفوا عن الأنتيلي كل تردد في هذا المجال. واكتشفوا أخيراً أنهم يملكون الحقيقة ويحملون النقاء الثابت منذ القدم. فأرسلوا الأنتيلي إلى الجهة الأخرى وذكروه أنهم هم لم يفرّوا ولم يخونوا، بل عانوا وتعذبوا وناضلوا على الأرض الإفريقية. وإذا قال الأنتيلي لا للأبيض، فالإفريقي قال لا للأنتيلي.

وكان هذا الأخير يمر بتجربته الماورائية الثانية. فأحس حينذاك بخيبة الأمل مجدداً. وهكذا طارده عدم النقاء وأرهقه الذنب ولازمه الشعور بالذنب وهو يعيش مأساة ألا يكون لا أبيض ولا زنجياً. فصرخ ونظم الأشعار وغنى لإفريقيا، إفريقيا الأرض الصلبة والجميلة، إفريقيا تفجر الغضب والإنهماك الصاخب والتدفق، إفريقيا أرض الحقيقة. وتعلّم البمبارية في معهد اللغات الشرقية في باريس. أما الإفريقي بعظمته فأدان المساعي كلها. وهكذا أخذ الإفريقي بالثأر ودفع الأنتيلي الثمن...

وإذا حاولنا الآن شرح الوضع وإيجازه، يمكننا القول إنه لم

يكن في المارتينيك قبل عام 1939 الزنجي من جهة والأبيض من جهة أخرى، بل سلّم ألوان يمكن اجتياز مسافاته بسهولة وسرعة. إذ يكفي إنجاب طفل من شخص أقل سواداً. ولم يفصل بين الناس أي حاجز عرقي أو تمييز عنصري. ولكن نما فلفل السخرية ذلك الذي ميّز العقلية المارتينيكية.

إلا أن التمييز العنصري كان واقعاً في افريقيا. فالزنجي الإفريقي الأسود المتسخ من السكان الأصليين جرى رميه واحتقاره ولعنه هناك. وتم إنكار الإنسانية وتجاهلها هناك.

فحتى عام 1939، كان الأنتيلي يعيش ويفكر ويحلم وينظم القصائد ويؤلف الروايات كالأبيض تماماً (كما أظهرنا في بحثنا بشرة سوداء وأقنعة بيضاء). ففهم الآن لِمَ استحال عليه التغني بالليالي السوداء كالشعراء والأفارقة في حديثهم عن «المرأة السوداء ذات الأعقاب الزهرية». إذ كان الأدب الأنتيلي قبل سيزير (Césaire) أدباً خاصاً بالأوروبيين، حيث تماهى الأنتيلي بالأبيض وتبنى موقفاً أبيض و «كان أبيض».

في السابق، كان الأنتيلي ملزماً بتأثير من أوروبيين عنصريين بالتخلي عن مواقع ضعيفة إجمالاً لأنها عبثية ومغلوطة ومستعبدة، أما اليوم فمن يبصر النور هو جيل جديد. إن الأنتيلي في عام 1945 هو زنجي...

وتبرز حقبة إفريقية داخل سجل عودة إلى مسقط رأس لأنه:
لشدة ما فكرتُ في الكونغو
استحلتُ كونغو تتمتم فيه الغابات والأنهار[1].
وهكذا استدار الأنتيلي نحو إفريقيا ليناديها بأعلى صوته.

(1) سجل عودة إلى مسقط رأس، ص 49.

واكتشف أنه ابن عبيد مقتلع من جذوره، وأحس بالذبذبات الإفريقية في قرارة نفسه، ولم يتطلع إلا الى هدف واحد: الغوص في «الثقب الأسود» الكبير.

ويبدو إذاً أن الأنتيلي بعد خطأه الأبيض الكبير يعيش الآن السراب الأسود الكبير.

ثانياً ـ العنصرية والثقافة[1]

إن التفكير في معيار القيم الصادر عن جهة واحدة في بعض الثقافات يستحق أن يسترعي انتباهنا. وسرعان ما صادفنا في بحثنا مفارقات عديدة، منها عواقب التحديدات الأنانية الذاتية والاجتماعية الذاتية.

تؤكّد هذه التحديدات أولاً وجود مجموعات إنسانية لا ثقافة لها؛ يليه مبدأ الثقافات المتدرّجة؛ ثم مفهوم نسبية الثقافة.

وتنتقل من النفي الإجمالي إلى الاعتراف الفردي والمحدد. لذا، ولنتمكن من دراسة المسألة من جانبها الأنتروبولوجي الثقافي، لا بد لنا من رسم الخطوط العريضة لهذه القصة المجزّأة والدموية بالتحديد.

ويمكننا القول إن مجموعات معينة من المؤسسات أنشأها رجال محددون ضمن إطار مناطق جغرافية محددة خضعت لهجوم مباشر ووحشي شنته هيئات ثقافية مختلفة. وهكذا ظهر فريق

---

(1) نص مداخلة فرانز فانون (Frantz Fanon) في المؤتمر الأول للمؤلفين والفنانين السود في باريس في أيلول/ سبتمبر من عام 1956. تم نشره في عدد خاص من وجود إفريقي في حزيران/ جوان ـ تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1956.

اجتماعي سمح له تطوره التقني العالي إجمالاً بتطبيق هيمنة منظمة. وشكلت عملية طمس الهوية الثقافية الجانب السلبي لمشروع أضخم هدفه الاستعباد الاقتصادي وحتى البيولوجي نفسه.

فعقيدة التدرج الثقافي ليست إذاً سوى مجرد صيغة تسلسل منظم ومتابع بصرامة. وتشكل النظرية الحديثة لغياب التكامل في القشرة الدماغية لدى الشعوب المستعمِرة الجانب التشريحي والفيزيولوجي لتلك العقيدة. ولا يُعتبر ظهور العنصرية عاملاً حاسماً بشكل جوهري. فالعنصرية ليست الكل، إنما العنصر الأكثر ظهوراً على وتيرة يومية، فهي بإختصار شديد العنصر الأشد فظاظةً أحياناً داخل بنية محددة. إن دراسة علاقة العنصرية بالثقافة تعني التساؤل حول تأثيرهما المتبادل على بعضهما البعض. وإذا كانت الثقافة مجموع التصرفات المحرِّكة والذهنية الناشئة عن التقاء الإنسان بالطبيعة وبنظيره الإنسان، فلا بد من القول إن العنصرية هي عنصر ثقافي بإمتياز. لذا يمكننا التحدث عن ثقافات تعرف العنصرية وثقافات تجهل العنصرية.

إلا أن العنصر الثقافي هذا تحديداً لم يتم احتواؤه. فالعنصرية لم تستطع أن تتجمد. كان عليها أن تُجدّد نفسها وتنوّعها وتغيِّر من هيئتها. وكان عليها أن تخضع لمصير المجموع الثقافي الذي يزودها بالمعلومات.

وادعت العنصرية المبتذلة والبدائية المبسطة أنها وجدت في علم الأحياء الأساس المادي لعقيدتها حين اتضح أن الكتابات المقدسة لم تكن كافية. وسيكون من الممل التذكير بالجهود المبذولة آنذاك: مثل مقارنة شكل الجمجمة، ودراسة عدد شقوق الدماغ وشكلها، ومميزات الطبقات الخلوية لقشرة الدماغ، وأحجام فقرات العمود الفقري، وطابع البشرة المجهري، إلخ...

وظهرت البدائية الفكرية والعاطفية كتابعة تافهة أو إقرار بالوجود.

فمهدت التأكيدات العنيفة الجماعية المماثلة لبرهنة تزيدها دهاءً. ولكن بقيت بعض الأفكار القديمة تنبثق من أماكن متفرقة. لذلك نصادف معطيات لدى بعض المؤلفين المعاصرين من مثل «تخلف السود العاطفي»، و «التكامل في القشرة الدماغية عند العرب»، و «ذنب اليهود شبه الشامل». فتمسكت دراسة ج. كاروذرز الأحادية على سبيل المثَل بإهتمام منظمة الصحة العالمية بالجراحة الفَصِيّة (جراحة تجري في فصوص المخّ الجبَهية) الفيزيولوجية عند سود إفريقيا إنطلاقاً من «براهين علمية».

وتميل تلك المواقف المستَتبَعة إلى الاختفاء في أي حال. أما تلك العنصرية التي تدعي العقلانية والاستقلال والحزم في موضوعي الطراز العرقي والطبع الوراثي، فتتحول الآن إلى عنصرية ثقافية. ولم يعد غرض العنصرية كل إنسان على حدة، إنما شكلاً معيناً للوجود. فيجري الحديث عن المراسلة الثقافية والأسلوب الثقافي إلى أقصى حد. وتنضم «القيم الغربية» بشكل خاص إلى النداء السابق المشهور لمكافحة «الصليب بالهلال».

ولم تختف المعادلة الشكلية بالكامل بالطبع، ولكن أحداث السنوات الثلاثين الماضية زعزعت المعتقدات الأكثر تقوقعاً وقلبت الأوراق وأعادت تنظيم عدد كبير من العلاقات.

أما ذكرى النازية والشقاء المشترك لأشخاص مختلفين عن بعضهم، والعبودية المشتركة لمجموعات اجتماعية مهمة، وظهور «مستعمرات أوروبية» أي إقامة نظام استعماري وسط أوروبا نفسها، ووعي عمال الدول المستعمِرة والعنصرية وتطور التقنيات فساهمت جميعاً بتغيير طابع المسألة تغييراً جذرياً.

وعلينا البحث عن نتائج هذه العنصرية على مستوى الثقافة.

لقد رأينا أن العنصرية لا تشكل إلا جزءاً من مجموعة ضخمة: مجموعة الاضطهاد الشعبي المنظم. ولكن كيف يتصرف شعب مضطهِد؟ في هذا المجال، يمكن العثور دوماً على الثوابت نفسها.

فنشهد تدمير القيم الثقافية وأنماط العيش. كما يتم تحقير اللغة واللباس والتقنيات. ولكن، كيف نحلل هذه الثابتة؟ يميل علماء النفس عادةً الى تبرير التصرفات كافةً من خلال أهواء النفس، لذا يدّعون أنهم يشهدون تصرفاً مماثلاً على مستوى العلاقات بين البشر: كإنتقاد قبعة غريبة المظهر أو طريقة في الكلام أو المشي، إلخ...

تتجاهل محاولات مماثلة خصوصية الحالة الاستعمارية عن قصد. ففي الواقع، لا تهتم الدول التي تشن حروباً استعمارية بمواجهة الثقافات. فالحرب مجرد عملية تجارية ضخمة. لذا، لا بد من دراسة كل احتمال على ضوء هذا المعطى. إذ يصبح استعباد السكان الأصليين بالمعنى الحصري للكلمة ضرورة قصوى لدى الدولة المستعمِرة.

لذلك، فلا بد من تحطيم صورة مراجعه المعتادة. ويأتي نزع الملكية والسّلب والغزو والاغتيال المستهدَف لمواكبة نهب البنى الثقافية أو على الأقل لتوجيه ذاك النهب. كما يجري هدم المشهد الاجتماعي وإهانة القيم وسحقها وتصفيتها.

وتتوقف موازين القوى المقوّضة عن إصدار الأوامر. وتنشأ بمقابلها منظومة جديدة مفروضة فرضاً، لم تأت نتيجة اقتراح إنما جاءت مؤكدة تزن ثقلها مدافع وسيوفاً. إلا أن إقامة النظام الاستعماري لا تؤدي الى موت الثقافة الأصلية، بل وعلى

العكس، إذ يظهر من المراقبة التاريخية أن الهدف المنشود هو احتضار الثقافة السابقة أكثر من اختفائها بالكامل. فتنغلق تلك الثقافة الحية في السابق والمنفتحة على المستقبل وتتجمد في وضعها المستعمَر وتقع في غُل القمع. وبما أنها حاضرة ومحنطة في آن، تشهد ضد أعضائها وتحدّهم بالفعل من دون جدوى. فالتحنيط الثقافي يجرّ تحنيط الفكر الفردي. ولا تشكل بلادة الشعوب المستعمَرة المعروفة عالمياً سوى التابعة المنطقية لتلك العملية. وتعتبر لائمة الجمود الموجهة إلى «السكان الأصليين» قمةً في سوء النية، كما لو كان ممكناً أن يتطور إنسان في إطار مختلف عن الثقافة التي تعترف به ويقرر أن ينهض بها.

وهكذا نشهد قيام هيئات جاهلية وجامدة تعمل تحت رقابة المضطهِد وتقلد بصورة هزلية مؤسسات كانت غنية في ما مضى...

وتترجم هذه الهيئات ظاهرياً احترام التقاليد والخصوصيات الثقافية وشخصية الشعب المستعبَد. ويتطابق هذا الاحترام الموهِم في الواقع مع الاحتقار الأشد خطورة والسادية الأكثر تطوراً. وتكمن ميزة الثقافة عادةً في الانفتاح واختبار موازين القوى العفوية، الغنية والمعطاء. ويعتبر تنصيب «رجال أمناء» موكلين بتنفيذ مهمّات معينة عملية تهريج لا تخدع أحداً. وهكذا لا يعترف السكان الأصليون بجَمعَات قبليّة التي عينتها السلطة الفرنسية، بل ينتخبون جمعية أخرى بطريقة ديموقراطية. وتُملي الثانية نهجها على الأولى بطبيعة الحال.

فلا يكون الاهتمام الثابت على الدوام «بإحترام ثقافة الشعوب الأصلية» مرادفاً إذاً لمراعاة القيم التي تحملها هذه الثقافة ويجسدها هؤلاء الرجال. وعوضاً من ذلك، نكشف خلف هذا

المسعى إرادة إسقاط وإحاطة وسجن وحجز. وتعبّر جمل من مثل «إني أعرفهم» و «هم هكذا» عن هذا الإسقاط الناجح بإمتياز. وبهذه الطريقة نتعرّف الحركات والأفكار المعرّفة عن هؤلاء الرجال.

وتعتبر الإغرابية (L'exotisme) شكلاً من أشكال هذا التبسيط. ومنذ ذلك الحين، يستحيل أن تجري أي مواجهة ثقافية. فتظهر من جهة ثقافة معترف بمزايا الدينامية والإزدهار والعمق لديها؛ هي ثقافة في حركة وتجدد دائم. وتبرز في وجهها مجرد مميزات وطرف ونوادر لا تجمعها بنية متماسكة أبداً.

وهكذا يقيم المحتل سيطرته في مرحلة أولى ويؤكد تفوقه بكثافة. ويصبح الفريق الاجتماعي المستعبَد عسكرياً واقتصادياً مسلوباً من إنسانيته وفق نهج متعدد لأبعاد. وتقع أعمال الاستغلال والتعذيب والغزو والعنصرية والاغتيالات الجماعية والقمع المنظّم وتتعاقب على مستويات مختلفة لتحول السكان الأصليين حرفياً إلى أدوات بين يدي الأمة المحتلة.

أما ذلك الرجل الذي تحول إلى أداة مسلوبة من سبيل العيش وعلة الوجود، فيتحطم حتى في أعماق كيانه. وتصبح الرغبة في الحياة والمتابعة طيفاً حائراً يضمحل أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم. فتظهر في هذه المرحلة عقدة الذنب الشهيرة ويصفها «رايت» في رواياته الأولى وصفاً مفصلاً جداً.

غير أن تطور تقنيات الإنتاج، والتصنيع المحدود في البلدان المستعبَدة من جهة أخرى، والحاجة المتزايدة لمتعاونين تفرض على المحتل اتخاذ موقف جديد بشكل تدريجي. أما تعقيد وسائل الإنتاج، وتطور العلاقات الاقتصادية الذي يجر طوعاً أو كراهية تطور الإيديولوجيات، فيُفقدان المنظومة توازنها. وتوافق العنصرية

المبتذلة بشكلها البيولوجي حقبة استغلال سواعد وألاجل الناس استغلالاً وحشياً. ويؤدي كمال وسائل الإنتاج حتمياً إلى تمويه تقنيات استغلال الإنسان وبالتالي إلى تمويه أشكال العنصرية.

فلا تفقد العنصرية من حدّتها إذاً تبعاً لعملية تطور فكري. ولا تعلّل أي ثورة داخلية إلزامية تغيّر العنصرية تلك وتطورها. وفي كل مكان، نرى الرجال يتحررون، دافعين عنهم سباتاً حكم به كل من الاضطهاد والعنصرية عليهم.

وفي قلب «الأمم الممدِّنة»، يكتشف العمال أخيراً أن استغلال الإنسان، أي قاعدة نظامهم، يستعير وجوهاً متنوعة. ففي هذه المرحلة، لا تجرؤ العنصرية على الظهور بصراحة إنما تُنكر نفسها. ويختبىء العنصري في عدد أكبر من الظروف. ومَن ادّعى أنه «يحس بهم» و «يكشفهم»، يكتشف أنه هو نفسه مستهدَف ومُراقب ومحكوم عليه. فيصبح مشروع العنصري حينذاك مشروعاً يطارده الإحساس بالخطأ. ولا يمكن أن يأتيه الخلاص إلا عبر التزام عاطفي كالذي نشهده في بعض حالات الاختلال العقلي. وللبروفسور باروك الفضل الأعظم في تحديد أغراض ذاك الهذيان العاطفي تحديداً علمياً دقيقاً.

لا تكون العنصرية أبداً مادّةً مضافة تم اكتشافها صدفة داخل المعطيات الثقافية لجماعة معينة. فوجود العنصرية يغير المؤسسة الاجتماعية والمجموعة الثقافية تغييراً جذرياً.

ويقال عادةً إن العنصرية جرح في خاصرة الإنسانية. ولكن علينا ألا نكتفي بجملة مماثلة، بل علينا أن نتقصى بلا كلل انعكاسات العنصرية على المستويات الاجتماعية كافة. فأهمية المشكلة العنصرية في الأدب الأمريكي المعاصر معبِّرة للغاية. ويستقي الكتّاب من مواضيع الزنجي في السينما، والزنجي

والفولكلور، واليهودي وقصص الأطفال، واليهودي في الحانة أفكاراً لا نهاية لها.

وإذا عدنا إلى أميركا، رأينا أن العنصرية تطارد الثقافة الأمريكية وتفسدها. وتتفاقم هذه «الغنغرينة» الجدلية إثر وعي ملايين السود واليهود ورغبتهم في الكفاح ضد عنصرية تستهدفهم.

إن هذه المرحلة العاطفية والمخالفة للعقل والتي لا مبرر لها تُظهر عند امتحانها وجهاً مخيفاً. أما تبادل الفئات، وتحرر رجال كانوا مسفّلين في السابق في مناطق معينة من العالم، فيجعلان التوازن أكثر فأكثر تزعزعاً. وتستنكر الفئة العنصرية ظهور العنصرية لدى الرجال المضطهَدين بطريقة لا يمكن توقعها منهم على الإطلاق. ويحل «تعصب القرون الوسطى، أو حتى تعصب زمن ما قبل التاريخ» في حقبة التحرير محل «البدائية الفكرية» الخاصة بحقبة الاستغلال.

في زمن معين، صدّقنا أن العنصرية اختفت. وجاء هذا الانطباع الباعث للغبطة والبعيد عن الواقع ببساطة نتيجة تطور أشكال الاستغلال. وتحدث علماء النفس آنذاك عن حكم مسبق أصبح جزءاً من اللاوعي. أما الحقيقة فهي أن قسوة النظام تجعل تأكيد التفوق اليومي أمراً غير ضروري. ولكن الحاجة إلى استعادة درجات مختلفة من انضمام السكان الأصليين وتعاونهم تغيّر العلاقات لتصبح بمعنى آخر أقل وحشية إنما أكثر دقة وأكثر «ثقافة». كما يحدث غالباً أن تظهر في هذه المرحلة إيديولوجية «ديموقراطية وإنسانية». وتفسح مؤسسة الاستعباد والتدمير الثقافي التجارية المجال لنشوء خداع كلامي بشكل تدريجي.

وتكمن فائدة هذا التطور في إتخاذ العنصرية موضوعاً للتأمل وأحياناً حتى كتقنية إعلانية.

وبهذه الطريقة، تم تقديم موسيقى البلوز أو «شكوى العبيد السود» أمام إعجاب المضطهدين. إنه شيء من الاضطهاد المنمنم العائد الى المستغِل والعنصري. فلولا الإضطهاد ولولا العنصرية، لما شهدنا موسيقى البلوز. وهكذا قرعت نهاية العنصرية جرس حزن الموسيقى السوداء العظيمة.

وكما قال تومينبي الأشهر من أن يُعرّف، فالبلوز هي ردّ العبد على تحدي الاضطهاد. وفي الوقت الحالي أيضاً، يَعتبر عدد كبير من الناس، حتى السود منهم، أن موسيقى أرمسترونغ (Armstrong) لا تكتسب معناها الحقيقي إلا من هذا المنظار.

إن العنصرية تورّم وجه الثقافة الممارِسة لها وتشوّهه. أما الأدب والفنون التشكيلية والأغاني الشعبية والحكم والعادات والنماذج، فتعيد بدورها العنصرية، إن كان بقصد إدانتها أو تسفيهها. وذلك يعني أنه لا يمكن لأي فئة اجتماعية أو أي بلد أو أي حضارة أن يكونوا عنصريين من دون أن يعوا الأمر.

ونقول مرة أخرى إن العنصرية ليست اكتشافاً عَرَضياً. كما أنها ليست عنصراً محجوباً أو مخفياً. ولا حاجة لجهود تفوق قدرة البشر لإبراز هذا العنصر.

فالعنصرية أوضح من ضوء النهار لأنها تدخل تحديداً ضمن إطار منظومة موصوفة: منظومة استغلال مجموعة من البشر توصلت إلى مرحلة متفوقة من التطور التقني لمجموعة أخرى من البشر استغلالاً سفيهاً. ولهذا السبب يسبق الاضطهاد العسكري والاقتصادي في معظم الأحيان العنصرية حتى يجعلها ممكنة ويشرّعها.

ولا بد من التخلي عن عادة النظر إلى العنصرية وكأنها حالة استعداد ذهني أو كعاهة نفسية.

ولكن كيف يتصرف الإنسان الذي تستهدفه العنصرية؟ وكيف تتصرف المجموعة الاجتماعية المستعبَدة والمستغَلة والمنتزَع كيانها؟ وما هي وسائل دفاعها؟

وما المواقف التي نكتشفها في هذه الحالة؟

لقد رأينا في مرحلة أولى المحتلّ يشرّع سيطرته بواسطة حجج علمية، و «العرق المتخلّف» ينفي نفسه كعرق. فتحاول الفئة الاجتماعية التي تحولت إلى فئة عنصرية أن تقلّد المضطهد وبذلك تنفي عنصريتها لأن ما من خيار آخر أمامها. فينفي «العرق المتخلف» نفسه كعرق مختلف ويشارك «العرق المتفوق» معتقداته وعقائده وحيثيات أخرى تخصّه.

وبعد شهودهم تصفية نظمهم المرجعية وانهيار البنى الثقافية لديهم، لم يبق أمام السكان الأصليين سوى الاعتراف مع المحتلّ بأن «الله لم يعد إلى جانبهم».

ومن خلال سلطته الشاملة والمخيفة، يتوصل المضطهد إلى فرض وجهات نظر جديدة على السكان الأصليين بالإضافة إلى أحكام سلبية حول أشكال عيشهم الأصلية بشكل خاص.

وتعتبر هذه الواقعة، المسماة عادةً استلاباً، حدثاً مهماً للغاية في طبيعة الحال. ويمكن مصادفتها في النصوص الرسمية تحت عنوان التكييف.

إلا أن ذاك الاستلاب لا ينجح أبداً بشكل كامل، إما لأن المضطهد يحدّ كمياً ونوعياً من التطور أو بسبب بروز ظواهر شاذة وغير متوقعة.

وكانت الفئة المستقلة قد سلّمت بواقع أن شقاءها يأتي كنتيجة مباشرة لمميزاتها العرقية والثقافية بسبب حتمية قدرتها على الاستنتاج.

الجدلية.

فالشعور بالذنب والدونية هما نتيجتان طبيعيتان لتلك الجدلية. ويحاول المضطهَد حينذاك أن يهرب منهما، فيعلن من جهة عن التحاقه الكامل وغير المشروط بالنماذج الثقافية الجديدة ويدين من جهة أخرى أسلوبه الثقافي الخاص إدانة لا رجوع عنها[1]. غير أن حاجة المضطهد في وقت معين لإخفاء أشكال الاستغلال لا تؤدي إلى اختفاء الاستغلال بحد ذاته. وتتطلب العلاقات الاقتصادية الأكثر تطوراً أو الأقل خشونةً تغليفاً يومياً، إلا أن الاستلاب يبقى مرعباً على هذا المستوى.

وبعدما يكون المضطهَد قد حكم على أشكاله الثقافية ولغته وطعامه ومساعيه الجنسية وطرق جلوسه واستلقائه وضحكه وتسليته، ثم أدانها جميعاً وتخلى عنها، يهجم بإتجاه الثقافة المفروضة بطاقة الغريق وتشبثه.

وبعدما يطور المضطهَد معارفه التقنية بعمله على آلات أكثر فأكثر إتقاناً ويدخل ضمن حلقة الإنتاج الصناعي الدينامية ويلتقي برجال يأتون من مناطق بعيدة ضمن إطار حشد رؤوس الأموال وبالتالي أماكن العمل، ويكتشف السلسلة وفريق العمل و «وقت» الإنتاج أي المردود بالساعة، يرى في الحفاظ على موقف الاحتقار العنصري تجاهه فضيحة مشينة.

---

(1) تبرز أحياناً في هذه المرحلة ظاهرة قلما تم البحث فيها. فيدرس مثقفون وباحثون من الفريق المسيطر المجتمع المغلوب بجماليته وعالمه الخُلقي «دراسة علمية». ويكشف المثقفون المستعمَرون النادرون نظامهم الثقافي في الجامعات. ويحدث أن يتحمس علماء البلدان المستعمِرة لميزة خاصة محددة. وتظهر مبادىء النقاء والسذاجة والبراءة. لذا، فعلى المثقف من السكان الأصليين أن يضاعف من تيقظه في هذه المرحلة.

وعلى هذا المستوى يتم تحويل العنصرية إلى قصة أشخاص ويجري الحديث عن «بعض العنصريين غير القابلين للإصلاح، ولكن لا بد من الاعتراف بأن السكان بمجموعهم يحبون. . .».

ومع الوقت، ستختفي القصة بكاملها.

فهذا البلد هو الأقل عنصرية.

وتبقى في منظمة الأمم المتحدة لجنة مكلفة بالكفاح ضد العنصرية،

وأفلام حول العنصرية وقصائد حول العنصرية ورسائل حول العنصرية. . .

وتستمر إدانات العنصرية الاستعراضية والعديمة الجدوى. والحقيقة أن البلد الاستعماري هو بلد عنصري. وإذا بقي في إنكلترا أو بلجيكا أو فرنسا بعض العنصريين رغم المبادىء الديموقراطية التي ثبّتتها هذه الأمم تباعاً، فهؤلاء العنصريون هم المحقون بخلاف باقي السكان.

وليس من المستحيل استعباد أشخاص من دون إنقاص قدرهم منطقياً من جهة إلى أخرى، وما العنصرية إلا التفسير الانفعالي والعاطفي والفكري أحياناً لذاك الانتقاص.

فالعنصري داخل ثقافة تقبل العنصرية هو شخص طبيعي إذاً. وتأتي الملاءمة ما بين العلاقات الاقتصادية والإيديولوجية عنده وافيةً تامةً. ولا ترتبط فكرة نكوّنها عن شخص ما ارتباطاً كاملاً طبعاً بالعلاقات الاقتصادية أي العلاقات التي تربط الرجال بالجماعات تاريخياً وجغرافياً، ودعونا لا ننسى ذلك. فيتخذ عدد أكبر فأكبر من أعضاء المجتمعات العنصرية مواقف مشرّفة. ويكرّسون حياتهم لخدمة عالم يخلو من العنصرية. إلا أن هذا البعد وهذا التجرد وهذا الالتزام المهيب ليسوا في متناول

الجميع. ولا يمكن مطالبة رجل بمخالفة «أحكام جماعته المسبقة» من دون إيذائه. ولكن، فلنصرّح مجدداً بأن كل جماعة مستعمِرة تبقى عنصرية بالتأكيد.

أما المضطهَد «المتأقلم ثقافياً» والمنتزَعة منه ثقافته في آن فيتعثر بالعنصرية كما في السابق. ويرى أن هذه العاقبة منافية للمنطق. فما تخطاه لا يمكن شرحه أو تعليله أو وصفه بدقة. أما معلوماته وامتلاكه تقنيات دقيقة ومعقدة وتفوّقه الفكري على عدد كبير من العنصريين أحياناً، فتقوده جميعاً إلى وصف العالم العنصري بالعاطفي. ويتبين أن الجو العنصري يطبع عناصر الحياة الاجتماعية كافةً بطابعه الخاص. فيعتريه حينذاك شعور بظلم فادح يكبّله. ثم ينسى أن العنصرية أتت كتابعة فينقضّ على العنصرية وكأنها السبب. ويباشر بشن حملات لتقويم الرأي العام. وينادي بحس الإنسانية والحب واحترام القيم العليا...

وفي الواقع، تخضع العنصرية لمنطق واضح. فالبلد الذي يعيش ويؤمّن قوت شعبه من استغلال شعوب أخرى يحتقر هذه الشعوب، ويرى من الطبيعي تطبيق العنصرية إزاء تلك الشعوب. فالعنصرية ليست إذاً ثابتةً في فكر الإنسان. إنما تأتي على شكل استعداد مدرج في نظام محدد كما سبق ورأينا. ولا تختلف العنصرية ضد اليهود عن العنصرية ضد السود. فإما يكون المجتمع عنصرياً أو لا يكون. فما من درجات للعنصرية. وليس من الحري القول إن بلداً معيناً ليس عنصرياً، بل إننا لم نشهد فيه عمليات إعدام تعسفية أو معتقلات إبادة. والحقيقة أن كل ذلك يظهر بطابع مختلف. فهذه الأعمال المضمرة والمستترة تنتشر بديناميكية وتتوغل في العلاقات النفسية والعاطفية والاقتصادية.

وبعد هذه المرحلة من فقدان الثقافة والخروج من المحيط، يعود المحتقَر إلى أحواله الأصلية، لا سيما عندما يكتشف عدم جدوى استلابه وشدة عوزه. ويلتزم بشغف تلك الثقافة المتروكة والمهجورة والمرفوضة والمحتقرة. ويدخل في مزايدة واضحة جداً مرتبطة على الصعيد النفسي بالرغبة في نيل السماح.

إنما تكمن وراء هذا التحليل المبسِّط استبصار المضطهد الفعلي لحقيقة عفوية ظاهرة. وتصب هذه القصة النفسية في التاريخ العظيم وفي الحقيقة المطلقة. وبما أنه استعاد أسلوباً منتقصاً في المادي، يُقبل هذا المضطهد على ثقافة الثقافة. وتدل صورة هزلية مماثلة عن الحياة الثقافية على إمكانية عيش الثقافة واستحالة تجزئتها إذا تحتّم ذلك. إذ لا يمكن وضعها تحت المجهر.

غير أن المضطهَد ينذهل من كل حدث يعيد اكتشافه. وتستمر دهشته على الدوام. فالسكان الأصليون يستكشفون ثقافتهم الآن بحماسة في حين أنهم هجروها في ما مضى. وتبدأ حينذاك الأعراس المستمرة. إذ بات المضطهد السابق في حالة من النعمة. ولكن يستحيل اختبار الاحتلال من دون تحمل العواقب. إذ تصبح ثقافة الشعب المستعبَد متحجّرة ومنازعة. ولا تدور فيها أي حياة بل يتم إخفاء الحياة الوحيدة فيها تحديداً. أما مَن يتسلم عادةً بضعة أجزاء من الحياة بشكل متقطّع ويحافظ على أهمية المؤسسات الدينامية فيبقى متستّراً، وينتمي في النظام الاستعماري إلى مجموعة التقليديين.

أما المهاجر القديم فيسبّب فضيحة لغموض تصرفه المفاجىء. ويقابل تستّر التقليديين باستعراض عنيف وعدائي.

فالنعمة والعدائية ثابتتان دائمتان في هذه المرحلة. فالعدائية هي الآلية العاطفية التي تسمح له بالهروب من هجمة التناقض.

وبما أن المهاجر القديم يمتلك تقنيات دقيقة، وبما أن مستوى تحرّكه يأتي في إطار علاقات معقدة منذ القدم، تتخذ اكتشافاته تلك طابعاً غير عقلاني. إذ تنشأ هوّة وفارق كبير بين التطور الفكري والتخصص التقني وأنماط التفكير والمنطق المتميزة جداً من جهة، والأساس العاطفي «البسيط والنقي» من جهة أخرى.

فحين يكتشف الشخص المنزوعة منه ثقافته التقاليد من جديد ويعايشها وكأنها آلية دفاع ورمز نقاوة وخلاص، يوحي للآخرين بأن الوساطة تنتقم من خلال عودتها إلى الجوهر. ولهذا الارتداد إلى الأوضاع الجاهلية البعيدة عن التطور التقني سمة تناقضية. إذ لم تعد المؤسسات القديمة المرفوعة قيمتها من جديد تتلاءم مع وسائل العمل المتطورة المكتسبة حديثاً.

وهكذا بات للثقافة الخاملة والمحاط بها منذ السيطرة الأجنبية قيمة جديدة. ولكن لم يتم البحث فيها من جديد وترميمها وتنشيطها من الداخل، بل جرت المطالبة بها. لذا اكتسب رفع القيمة الآني والكلامي غير المنظم هذا طابعاً تناقضياً.

عندئذٍ، يجري الحديث عن تصرفات المسفّلين غير القابلة للتهذيب. فالأطباء العرب ينامون أرضاً ويبصقون في كل مكان، إلخ....

والمثقفون السود يستشيرون السحرة قبل اتخاذهم أي قرار، الخ...

ويحاول المثقفون «المتعاونون» تبرير موقفهم الجديد.

فيرفعون مجدداً من قيمة الأعراف والتقاليد والمعتقدات المرفوضة والمهملة في السابق ويؤكدونها بشدة.

فما عادت المجموعة تسخر من العادات وتوقفت عن الهرب. وبدأت بإستكشاف معنى الماضي من جديد وإقامة شعائر الأجداد...

وأصبح الماضي من الآن وصاعداً مماثلاً للحقيقة. إنّ إعادة الاكتشاف هذه ورفع القيمة المطلق هذا بطابعه شبه البعيد عن الواقع بحيث لا يمكن الدفاع عنه بطريقة موضوعية، يكتسبان أهمية ذاتية فريدة. فلدى خروجهم من تلك الأعراس المتّقدة، يقرر السكان الأصليون «لمعرفتهم الوقائع» الكفاح ضد كل أشكال استغلال الإنسان واستلابه. في حين أن المحتل يضاعف في هذه الحقبة نداءاته بالتكيف ثم الانصهار والانضمام إلى الجماعة.

إن مواجهة السكان الأصليين لثقافتهم هي عملية حرّية بالتبجيل والمباغتة الى درجة أنها لا تسمح بأي إخفاق. ولا يمكن لأي تغيير مبتكر أن يحجب الوضوح الجديد: فالغطس في لجة الماضي هو شرط للحرية ومصدر لها.

وتكمن النهاية المنطقية لإرادة الكفاح هذه في التحرير الكامل لأرض الوطن. ولتحقيق هذا التحرير، يستخدم المضطهد وسائله كافةً ومكاسبه كافةً، القديمة منها والجديدة، وتلك الخاصة به والخاصة بالمحتل أيضاً.

والكفاح بات الآن تاماً ومطلقاً. ولكننا لا نرى أي أثر للعنصرية في هذا الوقت.

وكان المضطهِد قد استعان ببراهين علمية حين أراد فرض سيطرته وتبرير العبودية. أما الآن، فالمشهد أصبح مختلفاً.

فعندما يبدأ شعب بالكفاح من أجل التحرير، نادراً ما يشرّع العنصرية. وحتى أثناء حقبات الكفاح العسكري التمردي الضارية، لا نشهد إطلاقاً موافقة جماعية على التبريرات البيولوجية.

ويأتي كفاح المسقّل على مستوى أكثر إنسانيةً بشكل واضح. فأهدافه جديدة جذرياً. وتبدأ منذ ذلك الحين المفارقة التقليدية بين كفاحي الغزو والتحرير.

وتحاول الأمة المسيطرة نشر الحجج العنصرية ثانيةً، ولكن يتضح أن إعداد الفكر العنصري أصبح أكثر فأكثر عمقاً. فيجري الحديث عن العصبية والمواقف البدائية في مواجهة الموت، إلا أن الآلية المنهارة لم تعد تستجيب. ويتشبث الجامدون السابقون والدستوريون الجبناء والمذعورون والمسقَّلون بمواقعهم على الدوام ويبرزون مشاكسين من عدمهم.

فلا يفهم المحتلّ ما الذي يحصل.

وتبدأ نهاية العنصرية بعدم فهم مفاجىء.

فتتحرر أخيراً ثقافة المحتل المنقبضة والمتصلبة وتتفتح على ثقافة شعب أصبح شقيقاً فعلياً لشعبها. ويمكن بالتالي للثقافتين أن تتواجها وتغتنيا.

ففي النهاية، تكمن العالمية في قرار مماثل تأخذ من خلاله الثقافات المختلفة على عاتقها مبدأ تبادل النسبية بمجرد أن تستبعد عنها الحالة الاستعمارية استبعاداً نهائياً لا رجوع عنه.

ثالثاً ـ من أجل الجزائر

1 ـ رسالة إلى فرنسي

حين أطلعتني على رغبتك في ترك الجزائر، تحفّظتُ فجأةً عن صداقتي لك. وبالطبع ارتسمت في ذاكرتي صور متدفقة، ثابتة وحاسمة.

فرأيتك وزوجتك إلى جانبك.

وكنتَ تتخيل نفسك وقد أصبحت في فرنسا.. وتحوط بك وجوه جديدة بعيداً جداً عن هذا البلد، فالأوضاع فيه ما عادت جيدة بالفعل منذ بضعة أيام.

قلتَ لي إن الجو يتعكّر وعليك أن ترحل. وإن لم يكن قرارك نهائياً، ولكنه بدأ يأخذ منحاه تدريجياً بما أنك عبّرت عنه صراحةً.

هذا البلد الشائك بغموضه! الطرقات فيه ما عادت آمنة، وحقول القمح تحولت ناراً متقدة، والعرب أصبحوا أشراراً. روايات وروايات.

سيجري اغتصاب النساء، وقطع الخُصى وغرزها بين الأسنان.

وتذكّر سطيف! أتريد سطيفاً آخر؟ تمكنوا منها، ولكنهم لن يتمكنوا منا.

قلتَ لي ذلك وأنت تضحك.
إلا أن زوجتك لم تكن تضحك.
ورأيتُ ما يختبىء وراء ضحكتك.
رأيتُ جهلك الأساسي لشؤون هذا البلد.
قلتُ شؤوناً بشكل عام لأني سأوضحها لك.

سترحل على الأرجح. ولكن قل لي بماذا ستجيب إذا سألك أحدهم: «ماذا يجري في الجزائر؟»

إذا سألك أشقاؤك: «ماذا حصل في الجزائر؟»، فبماذا ستجيبهم؟

وإذا أرادوا بشكل أكثر تحديداً أن يفهموا لمَ تركتَ هذا البلد، فماذا ستفعل لتنتزع عنك العار الذي بدأ يُذِلك؟

عارك أنك لم تفهم ولم ترد يوماً أن تفهم ما كان يدور حولك كل يوم.

عشتَ في هذا البلد طوال ثماني سنوات.
ولم يستطع أي جزء من هذا الجرح الهائل أن يمنعك!
ولم يستطع أي جزء من هذا الجرح الهائل أن يُرغمك!
فلم تكتشف حقيقة ما أنت عليه.
يُقلقك غيرك، ولكن ليس العربي تحديداً.
تغتمّ وتكرب وتتعذب.
إلا إنك تنغمس وسط الحقل في الوحل نفسه والبَرَص نفسه.
فما من أوروبيّ إلا ويثور ويغتاظ ويقلق على أي قضية ما
عدا المصير المرسوم للعرب،
العرب غير المَلحوظين،
العرب المجهولين،
العرب المهملين،

العرب المختلَسين والمخفيين، العرب المنكَرين يومياً والمحولين زينة صحراوية. فيما أنت تنضم إلى من:

لم يصافح يوماً إنساناً عربياً،

ولم يشرب يوماً القهوة،

ولم يتحدث يوماً عن الطقس مع إنسان عربي.

فالعرب مهمَلون،

والعرب مبعَدون،

والعرب مرفوضون بسهولة،

والعرب محبوسون،

والمدنية الأصلية مسحوقة،

مدينة سكانها الأصليون نيام،

فما من شيء يحدث أبداً عند العرب،

كلّ هذا البرص يغطي جسدك.

سترحل، ولكن ماذا عن كل تلك الأسئلة، تلك الأسئلة الباقية بلا إجابة. وماذا عن صمت الثمانمئة ألف فرنسي، ذاك الصمت الجاهل، ذاك الصمت البريء. ويبقى تسعة ملايين رجل تحت كفن الصمت ذاك.

أقدم لك هذا الملف حتى لا يموت أحد، لا موتى البارحة ولا من قاموا من الموت اليوم.

أريد أن يكون صوتي خشناً، لا أريده ناعماً ولا أريده صافياً ولا أريده بجميع الأبعاد. أريده ممزقاً من جهة أخرى. ولا أريده أن يلهو لأني في النهاية أتحدث عن الإنسان ورفضه ونتانته اليومية واستقالته المخيفة.

أريدك أن تتكلم.

إذا قلت لك على سبيل المثل: تواجه الجزائر أزمة مدارس، فكرتَ: يا للأسف، لا بد من معالجة الأمر.

وإذا قلت لك: عربي واحد من أصل ثلاثمئة يعرف كيف يوقع اسمه، فكرتَ: يا للتعاسة، لا بد من وضع حداً لذلك.

واسمع ما هو أعظم من ذلك:

اشتكت مديرة مدرسة أمامي، اشتكت لي من كونها ملزمة أن تستقبل كل سنة في مدرستها عرباً صغاراً جداً.

اشتكت مديرة مدرسة من كونها ملزمة أن تُدخِل بعض العرب الصغار إلى مدرستها بعد تسجيلها الأوروبيين كافةً.

فأمية هؤلاء الجداء الصغار لها الثقة الكاملة بصمتنا.

أن نعلم العرب! ولكنكم لستم جديين!

تريدون إذاً أن تصعّبوا علينا حياتنا.

إنهم بأفضل حال في وضعهم الحالي.

وكلما قلّ فهمهم كلما زادت منفعتهم.

وممّن نستلف؟

فمشروعكم سيكلفكم غالياً جداً.

عدا أنهم لم يطلبوا منكم ذلك.

إذ أظهر استقصاء أُجري في مراكز إعادة إنشاء المدارس أن العربي لا يطالب بإقامة مدارس.

ملايين ماسحي الأحذية الصغار.

ملايين «دعيني أحمل عنك يا سيدتي».

ملاين «أعطني قطعة خبز».

ملايين الأميين الذين «لا يعرفون كيفية التوقيع ولا يوقع ولا يوقعون».

ملايين البصمات على محاضر تودي إلى السجون،

وعلى أحكام السيد القاضي،
وعلى استمارات الانخراط في أفواج القناصين الجزائريين.
ملايين الفلاحين المستَغلين والمخدوعين والمسروقين.
فلاحون مختطفون في الرابعة صباحاً،
ومتروكون في الثامنة مساءً،
من شروق الشمس إلى طلوع القمر.
فلاحون شبعوا ماءً وشبعوا أوراقاً وشبعوا طلمية قديمة عليها أن تكفيهم شهراً كاملاً.
فلاحون جامدون يحركون سواعدهم ويحنون ظهورهم مع أن حياتهم منتهية.
تمر السيارات ولا يتحركون. وإن مرت فوقهم، فهم لن يبرحوا مكانهم.
عرب على الطرقات.
العصا مشبوكة بمقبض السلة.
سلة فارغة وأمل فارغ، موت الفلاح كله هذا.
مئتان وخمسون فرنكاً في اليوم.
فلاح من دون أرض.
فلاح من دون عقل.
إن لم تكونوا مسرورين، فما عليكم سوى الرحيل. فالأطفال يملأون الكوخ، والنسّاء يملأُنَ الأكواخ.
فلاحون جفت أحلامهم. ستّ مرات مئتين وخمسين فرنكاً في اليوم.
وهم لا يملكون شيئاً في بلادهم.
يعاملونكم بطلف، فمم تشتكون؟
ماذا كنتم فعلتم لولانا؟ يا لجمال هذا البلد إن نحن تركناه!

حتماً ستحولونه مستنقعاً في وقت قياسي.
أربع وعشرون مرة مئتين وخمسين فرنكاً في اليوم.
اعمل أيها الفلاح. ففي دمك إعياء ذل حياة بكاملها.
ستة آلاف فرنك في الشهر.
وعلى وجهك اليأس.
وفي داخلك الاستسلام...
وما همك أيها الفلاح إن كانت بلادك جميلة.

2 - رسالة إلى الوزير المقيم (1956)

السيد الدكتور فرانز فانون (Frantz Fanon)
طبيب مستشفيات الأمراض النفسية
طبيب - رئيس قسم في
مستشفى الأمراض النفسية في
بليدا - جوانفيل
إلى السيد الوزير المقيم
الحاكم العام في الجزائر
مدينة الجزائر

سيدي الوزير،

بناءً لطلبي، ووفقاً لقرار رسمي بتاريخ 22 تشرين الأول/أوكتوبر 1953، أراد السيد وزير الصحة العامة والإسكان أن يضعني تحت تصرف السيد الحاكم العام في الجزائر لتعييني في مستشفى للأمراض النفسية في الجزائر.

فتم تنصيبي في مستشفى بليدا - جوانفيل للأمراض النفسية في 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1953، فبدأت أمارس مهمّة طبيب - رئيس قسم فيه منذ ذلك التاريخ.

ورغم أن الظروف الموضوعية لممارسة طب الأمراض النفسية في الجزائر تشكل لوحدها تحديداً للعقل السليم، فقد تبين لي أنه لا بد من بذل جهود للحد من فساد نظام تتعارض مبادئه العقائدية بشكل يومي مع الأبعاد الإنسانية الحقيقية.

فكرّست نفسي بشكل كامل لخدمة هذا البلد وسكانه لمدة ثلاث سنوات. ولم أوفر جهودي ولا حماستي. ولم يبق أي جزء من عملي إلا طالب ببزوغ عالم متين، وتلك غاية يتمنى الجميع تحقيقها.

ولكن ما مصير حماسة المرء وقلقه إذا كان الواقع اليومي منسوجاً بالأكاذيب والنذالة واحتقار الآخر؟

وما مصير النوايا إذا كان تجسيدها مستحيلاً بفعل انعدام المشاعر وعجز الفكر وكره سكان هذا البلد الأصليين؟

الجنون هو أحد السبل المتاحة أمام المرء لفقدان حريته. ويمكنني القول إني من على هذا التقاطع شعرت بالرعب حين تبين لي مقدار الحرمان لدى سكان هذا البلد. وإذا كانت المعالجة النفسية تقنية طبية هدفها أن تسمح للإنسان بعدم البقاء غريباً عن محيطه، فعليّ أن أؤكد أن العربي المحروم دوماً في بلده يعيش في حالة ضياع مطلق لشخصيته.

وما حالة الجزائر؟ يجري فيها انتزاع منظم للإنسانية.

ولكننا كنا نريد برِهاننا العبثي أن ننشيء بأي ثمن بعض القيم، فيما كان غياب القانون وعدم المساواة وقتل الناس الجماعي اليومي مشرّعة كلها كمبادىء قانونية. كما تعارضت البنية الاجتماعية القائمة في الجزائر مع كل محاولة لإعادة الفرد إلى مكانه الصحيح.

سيدي الوزير، نصل أحياناً إلى وقت يصبح فيه التشبث مثابرة

مَرَضية. فلا نرى نافذة أمل مفتوحة على المستقبل، إنما حفاظاً غير منطقي على موقف ذاتي منقطع بانتظام عن الواقع.

سيدي الوزير، إن الأحداث الحالية الدامية في الجزائر لا تشكل فضيحة لمن يراقبها. فهي ليست ناجمة عن عارض طارىء أو عن عطل في النظام.

إن الأحداث في الجزائر تشكل النتيجة المنطقية لمحاولة غسل دماغ جماعي باءت بالفشل.

فليس من الضروري أن يكون المرء عالماً نفسانياً ليتبين وراء طيبة الجزائري الواضحة وخلف تواضعه البسيط حاجته الأساسية إلى الشعور بالكرامة. ولا حاجة للاستعانة بشكل من أشكال المواطنية عند بروز ظواهر لا يمكن احتواؤها.

وتكمن وظيفة البنية الاجتماعية في إنشاء مؤسسات تقلق على مصير الإنسان. وحين يُرغم مجتمع ما أعضاءه على اللجوء إلى حلول يائسة، يصبح مجتمعاً غير قابل للاستمرار، مجتمعاً لا بد من استبداله.

ومن واجب المواطن أن يقول ذلك صراحة. فلا يمكن في هذه الحالة أن تطغى أي أخلاق مهنية ولا أي تضامن طبقي ولا أي رغبة في حل المصاعب الداخلية بشكل سري. ولا يمكن التسامح في مسألة اللجوء إلى أي خداع وطني موهِم عوض المطالبة بالفكر الحر.

سيدي الوزير، إن قرار معاقبة المشاركين في إضراب 5 تموز/جويليه 1956 يبدو لي إجراءً مخالفاً للمنطق بالكامل.

وبما أن الإرهاب قد مورس على أشخاص المُضربين وعائلاتهم، كان لا بد من تقدير موقفهم وإيجاده طبيعياً نظراً للجو السائد.

وبما أن امتناعهم عن العمل يترجم تياراً فكرياً جامعاً واقتناعاً لا رجوع عنه، فكل موقف معاقبة تجاههم سيكون حتماً موقفاً اعتباطياً لا تأثير له وغير ضروري. وعليّ أن أقول إني لم أجد الخوف سمة غالبة عند المضربين. إنما الغالب بالأحرى كان القرار المحتّم لأحياء عصر جديد من السلام والكرامة عبر التزام الهدوء والصمت.

وعلى العامل في المدينة أن يشارك في التظاهرة الاجتماعية. إنما عليه أن يقتنع بجودة هذا المجتمع المعاش. ولكنه وصل إلى وقت أصبح فيه السكوت كذباً.

كما أن النوايا الرئيسية بالعيش الفردي لا ترضى بالتعرض الدائم لأبسط القيم.

وهكذا، فإن ضميري يشهد منذ شهور طويلة مشادات لا ترحم. وخلاصتها الرغبة في عدم اليأس من الإنسان أي من نفسي.

وقررت ألا أتحمل مسؤولية بأي ثمن وبحجة خادعة مفادها أن هذا أفضل ما يمكنني إنجازه.

فلهذه الأسباب كلها، لي الشرف سيدي الوزير أن أطلب منكم قبول استقالتي وإنهاء مهمتي في الجزائر. وتفضلوا بقبول فائق احترامي وتقديري.

رابعاً ـ نحو تحرير الجزائر

1 ـ خيبات الاستعمار الفرنسي وأوهامه[1]

منذ عشرين سنة والشعوب المستعمِرة تفكك السيطرة الأجنبية وتمكّن نفسها على الساحة العالمية. واحدةً تلو الأخرى وبطرق مختلفة تنسحب الدول المستعمِرة من ممتلكاتها. وإذا كانت البعثات المستعمِرة تخضع لمخطط محدد ومعروف مفاده ضرورة بسط النظام عند الشعوب المتخلفة وحماية امتيازات الدول الأوروبية ومصالحها وتقدم الحضارة الغربية بسخاء، فإننا لم نُظهر كفايةً مدى قولبة الوسائل التي تلجأ إليها الدول المستعمِرة للتمسك بمستعمراتها.

وتسمح حدة الحرب الفرنسية ـ الجزائرية وأبعادها كافة برؤية محاولات فرنسا للحفاظ على سيطرتها بصورة إجمالية وذلك بسبب فشلها المتكرر.

---

(1) المجاهد، العدد العاشر، أيلول/سبتمبر 1957. في سلسلة مقالات لسان حال جبهة التحرير الوطني هذه، ما زالت الأحداث التي يشير إليها ف. فانون (F. Fanon) حاضرة في ذاكرتنا جميعاً. كما أن الكاتب نفسه ذهب بعيداً كفاية في همه الإيضاحي والإرشادي، فلم نر منفعة في إثقال هذه النصوص بموجزات تاريخية تفسيرية.

التعاون المستحيل

تقوم خطة البلدان المستعمِرة الأولى على الاعتماد على المتعاونين الرسميين والإقطاعيين. فيجري اختيار جزائريين معروفين بشكل خاص بتنازلاتهم العديدة للمستعمِر ويتم جمعهم ويُطلب منهم أن يدينوا علناً «ذاك التحرك المتمرد الذي يعكر سلام المدينة». وهكذا، في عام 1954 وفي خلال الأشهر الأولى من العام 1955، باشرت فرنسا بتعداد خدامها المخلصين والأوفياء وتعبئتهم حتى تتم صياغة التصريحات والإدانات والدعوة إلى التعقل ويجري نشرها أو تلاوتها عبر المذياع. وتنتظر السلطات الاستعمارية نتائج تلك الرسالات بثقة تامة، ثم تبدأ بالقلق، وفي النهاية تفقد الأمل. وحين يتم تحريضهم ثانيةً، يكتسب الخدام عادةً مجهولةً إلى ذلك الحين، فيبدأون برفض الدعوات وتفادي حضور المسرحيات الرسمية ويتبنون غالباً خطاباً جديداً، إذا اتضح أن الالتزام الثوري بات أكثر فأكثر شمولاً وتنبه المتعاونون إلى يقظة الشعب المسلّح الهائلة.

الحجة الاقتصادية

أمام رِدّة رجال قامت باستخدامهم وتشويه سمعتهم بنظر الشعب الجزائري، وأمام عدائية النخبة الفاعلة، أطلقت السلطة الفرنسية عمليتها الثانية.

وتقوم هذه العملية بشكل أساسي على فصل السكان «السليمين» بحسب زعمها عن الحركة الثورية.

وبعد عجزها عن إدراك المعنى الفعلي لحركة التحرير، اعترفت فرنسا كخطوة أولى بوجود مشكلة، وأعلنتها مشكلة اقتصادية واجتماعية. وأملاً في إسكات الكرامة الوطنية، «التزمت

رسمياً بمحاربة البؤس وحل مشاكل السكن». ورفعت الأجور بشكل رمزي وأعلنت عن برامج استثمار. إن مقارنة المطالبة الوطنية هذه بثورة فلاحين أو بسخط اجتماعي أتت نتيجة خداع مزدوج: إيمانها بغياب الوعي الوطني في الجزائر وبأن وعود تحسين مستوى معيشة السكان كافية لإعادة الأمن والسلام. إلا أن السلطات الفرنسية، بإستخدامها مخبرين أكثر فأكثر ندرةً وأكثر فأكثر كلفة، علمت، على امتعاض، أن الحركة صلبة حرّكتها الطبقات الشعبية فأصبحت ثابتة وراسخة.

أساليب وحشية وقحة لمواجهة جبهة موحّدة

نظمت الإدارة الفرنسية كخطوة ثانية لها عمليات طالت بني مزاب والقبائل واليهود والمتعاملين مع فرنسا بإزدواجية قل مثيلها. وما بحثت عنه بشكل ملموس كان ظهور تيارات داخلية متناقضة في الوسط الشعبي لتناصر الثورة المضادة. وتميزت هذه العمليات باستغلال عدد من الأعمال الحربية المحلية بدأها الاستعمار وبرعاية خلافات ثقافية وافتعالها وتعزيزها وتحويلها إلى صراع قَبَلي أو «عرقي» في بعض الأحيان.

وبلغت أساليب الشدة حدها الأقصى في ميلوزا وفاغرام حيث تم ارتكاب أعمال اغتصاب وقتل ونسبت جهاراً إلى جبهة التحرير الوطني وتمشيط قرى بكاملها بهدف إثارة تمرد السكان وإدانة الحركة الثورية. ويكمن الخطأ المشترك بين مختلف تلك المناورات في نسيان السلطات الفرنسية بشكل خاص أن جبهة التحرير الوطني تتماثل مع الشعب الجزائري؛ وأن أزواج النساء المغتصبات ينتمون إلى فريق جبهة التحرير الوطني المحلي؛ وأنهم

ينزلون في المساء من قطاع عملياتهم ليقبّلوا أطفالهم؛ وأن منازل القرية المدمّرة بناها المجاهدون في الجبل المجاور.

ظن مجلس القيادة أن أي شيء قد يحدث في القرى، فقد كان ضحية سياسة لا علاقة لها بالحاضر كما أنه لم يستطع أن يستعلم بشكل واضح عن بنية جبهة التحرير الوطني.

ولكن لم يحدث أي شيء لم تتحسّب له الجبهة وتقرره.

فالفِرق لا تتحرك إلا وفقاً لبرنامج استراتيجي يحدده مجلس قيادة جيش التحرير الوطني. وكل وحدة لها قطاع محدد وحزب مركزي ينظمها.

وما من وحدة متنقلة تابعة لجبهة التحرير الوطني، إن كانت متماسكة أم لا، تستطيع ارتكاب المجازر في أي مكان. فحين تتحرك فرقة أو كتيبة خارج إطار نطاقها أو إقليمها، تتحرك بناءً لأمر صادر عن مجلس قيادة الولاية. وتصل الإبلاغات بشكل مسبق إلى مختلف المراكز الإقليمية أو المناطقية وتغطي الوحدات المحلية تقدمها. ولجهلها كل ذلك، أطلقت السلطات الفرنسية جنودها والمتطوعين لديها على المدنيين الجزائريين.

وفي كل مرة كانت إرادة الاستقلال أكثر تماسكاً.

فلم تدم عملية بني مزاب سوى بضعة أيام. وبما أن أغلبيتهم من التجار، تلقى هؤلاء الجزائريون رسائل تهديد. وتم شن الغارات على محلاتهم وإثارة جو طابعه عنصري. إلا أن تلك المحاولة الفظة باءت بالفشل سريعاً بعدما أوضحتها جبهة التحرير الوطني.

وشُنّت عملية اليهود من منظار عنصري مماثل. فاستنكرتها جبهة التحرير الوطني في الرسالة الشهيرة إلى المجتمع اليهودي.

إلا أن خريطة الاستعمار الرئيسية مثلتها جبهة الحركة الوطنية

الجزائرية. فبغيابه عن أرض الوطن، استفاد فكر أتباع مصالي الحاج في فرنسا من دعم العدو المطلق. وسهل الفرنسيون نقل المئات من أتباع مصالي على دفعاتٍ عدة وقاموا بتسليحهم. فتعرف إليهم سريعاً مكتب التعليمات التابع لجبهة التحرير الوطني لدى وصولهم إلى أرض الوطن، فانضم بعضهم إلى صفوفنا وحُكم على آخرين بالموت وأُعدموا لخيانتهم القضية الوطنية ولتعاملهم مع العدو.

تفسير تقليدي

لم يبق أمام فرنسا سوى عملية ثالثة وأخيرة كي تشنها. وتم التوحيد بين فصليها بشكل عام بعد اكتشاف تأثر حركات التحرير الوطنية بإيحاء خارجي وشيوعي بشكل خاص.

وتُظهر المرحلة الأولى على ضخامتها درجة انعدام الضمير لدى الحكومات الفرنسية بشكل واضح، إذ قصدت بعثة السويس أن تضرب الثورة الجزائرية في عرينها. فقامت بقصف مصر بالقنابل ومخالفة القوانين الدولية بعد اتهامها بقيادة كفاح الشعب الجزائري. فهددت بذلك السلام العالمي لبرهة من الزمن، ولكن جاء موقف منظمة الأمم المتحدة الواضح والشديد اللهجة لإنقاذ الموقف.

إلا أن العمليات العسكرية تكثفت في هذا الوقت في الجزائر. وكانت جبهة التحرير الوطني تأخذ المبادرة على كامل الأراضي. كما أثبت إضراب الثمانية أيام الكبير من جديد الإجماع الوطني على الكفاح والحفاظ على الأهداف.

وهكذا ابتدأت المرحلة الثانية وتوقفت ثم انطلقت من جديد ولكنها لم تبلغ هدفها ولم يتم استغلال الترويع بالشيوعية إلا

قليلاً، إذ ارتبك المستعمِرون الفرنسيون وشعروا بعدم تماسك هذه الفَرَضية ويبدو أنها لم تقنعهم.

وهكذا إذاً اصطدمت ثلاث عمليات سياسية بالقوى الوطنية الجزائرية تماماً كما حصل في حالة العمليات العسكرية الموازية لها. فأصبحت الأساليب كلها معروفة واتضح أن المناورات الاعتيادية كانت عقيمة وعديمة الجدوى ولم تفِ بالغرض. وبالطبع أعيد إطلاق تلك العمليات واحدة تلو الأخرى بشكل متقطع، إلا أن المعنويات قد تحطمت.

أحلام جنونية

لم يعد خبراء الخطط الحربية والاستراتيجية الفرنسيون يعرفون كيفية مواجهة الشعب الجزائري. إذ تعذر بعد ذلك استخدام مخططاتهم التقليدية والمختَبَرة طويلاً. حتى إن فرنسا بدأت منذ بضعة أشهر تغرق بشكل محدد في عملية الترجيح. فغالباً ما اتخذت تصريحات سياسية طابعاً تنبؤياً.

قد تنشأ خلافات داخل جبهة التحرير الوطني. وقد يحاول العسكريون الاستيلاء على إدارة الحركة. وقد يبدأ كفاح داخلي شديد الضراوة بين المتطرفين والمعتدلين. وقد يقوم سكان القبائل قريباً بانقلاب سياسي. وقد يكون أخيراً الكفاح بين زعماء الحركة وشيكاً.

فبعدما تخلت عن التحرك وتهربت من اتخاذ القرارات الواقعية، كانت فرنسا داخل الجزائر تعتمد على الآمال والأمنيات والتنبؤات.

وبعدما أصبحت معزولة داخل الأراضي الوطنية من دون أي

اتصال مع الشعب الجزائري، تبنت فرنسا مواقع أكثر فأكثر بعداً عن الواقع وأكثر قرباً من الأوهام.

وفكر الحكام الفرنسيون في أن الجزائريين لا بد وأن يبدأوا يشعرون بالتعب كما يحدث عادةً.

فيعبرون عن أمانيهم ويطلقون الفَرَضيات ويحولونها واقعاً ملموساً تبعاً لمنطق واضح للغاية: إذ سينقسم أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية وسيرعب العسكريون الأشرار أنصار التفاوض. وحين يخيب أمل الفرنسيين في بعض الأحيان من عقم أمنياتهم، يستاءون ويحردون.

فيلومون جبهة التحرير الوطني على طابعها الأحادي وغياب الانشقاقات فيها ويأخذون على الشعب الجزائري رغبته في القتال حتى الموت.

إلا أن مواجهة الواقع تتطلب تقنيات مختلفة. وعلى السلطات الفرنسية أن تدرك في النهاية أن ما من مجال للهروب من الواقع، وأن اللجوء الى عالم الأماني والاستياء غير النافع لا يشكلان حلاً للحرب الفرنسية - الجزائرية.

أجل، إن الشعب الجزائري على رأي واحد منذ ثلاث سنوات، ذلك لأن شعاره واضح وبسيط بشكل غير اعتيادي.

فلتحقيق الاستقلال الوطني من خلال الكفاح المسلح، تم تحديد أهداف الكفاح وحدوده وسبله ووسائله بشكل نهائي وحاسم.

لقد أظهر التوهم بحصول انشقاقات محتملة نقصاً كاملاً في الحس النقدي بما أن الواقع لا يريد هو الآخر أن يخضع لتلك الرؤى أو لتلك الأماني.

فجبهة التحرير الوطني لا تمثل مجموعة مصالح،
المجلس القيادي السياسي والعسكري لأمة تكافح لنيل استقلال

فالسلطات الفرنسية تعيش اليوم في جو من الأ
والنبوءات، في ظل عدم اتصالها بالواقع ورفضها أو عدم قد
على الاعتراف بالإرادة الوطنية الجزائرية واستخلاص النت
المنطقية التي تفرض نفسها.

2 ـ الجزائر في مواجهة الجلّادين الفرنسيين[1]

انطلقت الثورة الجزائرية منذ ثلاث سنوات، مستلهمةً الحس الانساني العميق الذي يحرّكها والايمان الراسخ بقدسية الحرية، في عملية تدمير منهجي لأخاديع تاريخية عدة.

لا شكّ أن الثورة الجزائرية تستعيد حقوقها في الوجود القومي، ولا شك أنها تشهد أيضاً على ارادة شعبها، لكن الفائدة الأساسية لثورتنا وقيمتها الفعلية تتجسد في الرسالة التي تحملها.

تثير الممارسات الشنيعة التي تحصل منذ أول تشرين الثاني/ نوفمبر 1954 الدهشة بطابعها التعميمي، إذ يندرج موقف الجيوش الفرنسية في الجزائر في إطار من الهيمنة البوليسية والتعصب العرقيّ الشامل وانعدام الحس الانساني المنظّم والمعقلن فالتعذيب والتنكيل ممارسات تنطبق على المنظومة الاستعمارية برمّتها.

إن الثورة الجزائرية، إذ تضع نصب عينيها تحرير الأراضي القومية، تهدف إلى القضاء على المنظومة الاستعمارية وانشاء مجتمع جديد. فاستقلال الجزائر ليس نهاية للاستعمار فقط بل هو

(1) المجاهد، عدد 10، أيلول/سبتمبر 1957.

أيضاً القضاء على جرثومة المرض المزمن في هذه البقعة من العالم ووضع حدّ لمصدر الوباء.

تحرير الأراضي الجزائرية هزيمة للعنصرية ولاستغلال الانسان للإنسان وتكريس السيادة غير المشروطة للعدالة.

التناقض الحقيقي

يجري تبرير حروب التحرير الوطنية غالباً وكأنها تعبّر عن التناقضات الداخلية للبلدان الاستعمارية. ورغم أن الحرب الفرنسية ـ الجزائرية تندرج في سياق تاريخي يتزامن مع المشا[ريع] النامية والمتسلسلة لحركات التحرر القومي، إلا أنها تتسم مع ذلك بمميزات خاصة.

عاشت الجزائر بوصفها مستعمَرة إستيطانية وأرضاً تابعة للدولة الفرنسية في ظل هيمنة بوليسية وعسكرية لا مثيل لها في أي بلد مستعمَر آخر. وهذا مردّه إلى أن الجزائر لم تُلقِ السلاح عملياً منذ 1830، ثمَّ إنَّ فرنسا تعرف جيداً الأهمية التي تحتلها الجزائر من بين الدول التابعة لنفوذها الاستعماري. إذ لا شيء يمكن أن يفسّر إصرار فرنسا على احتلال الجزائر وجهودها المضنية في سبيل الإبقاء عليه، إن لم يكن اليقين بأن استقلال الجزائر سيتسبب خلال فترة قصيرة بإنهيار امبراطوريتها.

إنّ الجزائر، الواقعة عند أبواب فرنسا تكشف للعالم الغربي بالتفصيل وبوضوح تناقضات الواقع الاستعماري.

أن تستدعي فرنسا احتياطها من الجنود وأن تستنفر طبقات عدة وأن تحشد الضباط ومساعدي الضباط وأن توجّه الدعوات دورياً إلى الشعب لكي يقوم ببذل المزيد من التضحيات وأن

تفرض الضرائب وتجمّد الأجور، . . . كل ذلك يشكّل توريطاً لمجموع الأمة الفرنسية وزجّها في حرب شعواء هدفها الابقاء على الاستعمار القائم.

إنّ الحماسة العامّة المضرّجة أحياناً بالدماء الذي ميّز مشاركة العمال والمزارعين الفرنسيين في الحرب ضد الشعب الجزائري، جعل الفكرة القائلة بوجود بلد حقيقي يعارض بلداً شرعياً، اهتزت في أساساتها.

ووفقاً لجملة معبّرة تفوّه بها أحد رؤساء المجلس الفرنسي، فإن الأمة الفرنسية تماهت مع جيشها المحارب في الجزائر.

فقد شارك في الحرب الجزائرية جميع الفرنسيين مشاركة واعية، وما الانتقادات القليلة التي وُجّهت حتى الآن من قبل بعض الأفراد إلا تنويه ببعض الأساليب التي تمارسها السلطات والتي «تعجّل في خسارة فرنسا الجزائر». إن أحداً من الفرنسيين لا يدين في الجوهر إعادة الفتح الاستعماري هذه ولا الحملات العسكرية ولا محاولات وأد حرية شعب من الشعوب.

التنكيل ضرورة أساسية عند العالم الاستعماري

يُحكى كثيراً، منذ بعض الوقت، عن أعمال تعذيب يمارسها الجنود الفرنسيون على المواطنين الجزائريين، نُشرت نصوص كثيرة ودقيقة ومرعبة بهذا الخصوص وأُجريت مقارنات تاريخية عدة، كما قامت شخصيات أجنبية ومن بينها شخصيات فرنسية بإدانة مثل هذه الممارسات.

لا شك أن الفرنسيين الذين ثاروا ضد أعمال التعذيب أو الذين ندّدوا بالتمادي فيها، يُذكّرون بتلك النفوس التي تحدث

عنها أحد الفلاسفة. ثم أن تسمية «المثقفين المتعبين» التي أطلقها عليهم مواطنوهم أمثال لاكوست (La coste) ولوجون (Lejeune) تبدو صائبة، إذ لا يمكن أن نجمع بين الرغبة في الإبقاء على الهيمنة الفرنسية في الجزائر وإدانة الوسائل التي تستخدمها هذه الهيمنة في الوقت نفسه.

ليس التعذيب في الجزائر عارضاً أو كبوة أو خطأ. ولا يمكن فهم الاستعمار من دون إمكانية التعذيب أو الاغتصاب أو القتل التي ترافقه. التنكيل شرط من شروط العلاقة بين المغتصب والمحتل. ورجال الشرطة الفرنسية الذين كانوا لوقت طويل يدأبون بمفردهم على ممارسة أعمال التعذيب هذه، لا يجادلون في ذلك ويعتبرون ضرورة تبرير العذابات التي يقومون بها فضيحة ومفارقةً خطيرة.

التعذيب، أسلوب حياة

الجدير بالإشارة إليه أن النظام الاستعماري يتعرض برّمته إلى أحداث وأعطال، وتحليلها يبدو أمراً في غاية الأهمية:

فخلال الفصل الأول من عام 1956 كثرت الحالات بين رجال الشرطة الذين وصل بهم الأمر إلى حد الجنون.

والاضطرابات التي كانوا يتعرضون لها في أوساطهم العائلية (كانوا يهددّون نساءهم بالموت ويمارسون العنف على أطفالهم) وتعتريهم حالات الأرق والكوابيس ويهددون باستمرار بالانتحار[1] ويقترفون الأخطاء المهنيَّة كالمشاجرات مع زملائهم والتهاون أثناء

---

(1) انتحر مفوض شرطة في خراج قنسطنطينة، عام 1956.

الخدمة وانعدام الحيوية والمواقف التي يقلّلون فيها من احترام رؤسائهم...) استلزمَتْ في مرات عدة عناية طبية نفسية أو انتقالاً إلى مركز جديد أو في معظم الأحيان عودة إلى فرنسا.

إن الظهور الكثيف للأجهزة الثورية الديناميكية وردود الفعل الصاعقة التي يقوم بها فدائيّونا وانتشار جبهة التحرير الوطني على كامل رقعة أرض الوطن... كل هذا يطرح على رجال الشرطة الفرنسيين مشاكل يصعب تخطيها. كما أن حالة الاستنفار الدائم التي تُبقيهم فيها جبهة التحرير هي السبب في استفزازهم السريع وغضبهم.

بَيْدَ أن رجال الشرطة يشرحون موقفهم:

يضربون أطفالهم بقسوة لأنهم يعتقدون أنهم لا يزالون في مواجهة الجزائريين.

يهددون زوجاتهم لأنهم يهددون المساجين طوال النهار وينفّذون الأوامر.

يصيبهم الأرق لأنهم يسمعون صراخ ضحاياهم وانتحابهم.

تطرح مثل هذه الواقعات بعض المشاكل بالطبع:

هل نحن في حضرة أناس يتأكلهم الندم؟

هل يتعلق الأمر بيقظة للضمير الأخلاقي؟

هل تشكل العذابات التي يعترف بها رجال الشرطة حالات استثنائية؟

هل يمكن تفسير التحول النفسي الذي طرأ على شخصيات هؤلاء الشرطيين واقترابهم من حالاتٍ مرضيّة، وردّه إلى أعمال التعذيب غير العادية وغير المألوفة وغير الشرعية التي يمارسونها على ضحاياهم؟

وبكلام آخر، هل يعيش الشرطيّ الجلاّد في تناقض مع
الجماعة التي ينتمي اليها والنظام الذي يدافع عنه؟

لكن الفرنسيين ينفون أعمال التعذيب التي تُمارس في الجزا
متوسلين حجة مزدوجة:

يؤكدون أنها حالات استثنائية.

ويصدّق المثقفون الفرنسيون هذه الكذبة ويتساهلون معها
ويشكّل هذا التساهل تنازلاً كبيراً واستقالة من مهمتهم الانسانية
قالت الحكومة إنها ستنزل العقوبات بمرتكبي هذه الممارسات دو
أن تجعلها علانية. لكأنَّ تعذيب انسان أو لكأنَّ المجزرة المنظ
لا يخضعان لأحكام القانون الإجرامي العام. إنَّ كل من يدَّعي
حرصاً شغوفاً بالحق والعدالة لا يمكنه القبول بهذه الخدع
المضّللة دون أن يقع في تناقض مع ذاته.

التهرب من تحمل المسؤوليات

لكن الأدلة تزداد وتبدو أعمال التعذيب أقل فأقل استثنائية
وتُلقى المسؤولية بأكملها على عاتق عناصر أجنبية تخدم في
الجيش الفرنسي. تبدو هذه الحجة الثانية مهمّة لأنها تُظهر في
الوقت نفسه استخفاف السلطات الفرنسية وعجزها المتزايد عن
الخداع أو التعتيم أو الكذب. لا يكفّ الفرنسيون منذ عام
التكرار بأن من يقوم بالتعذيب عناصر قديمة في المخابرات تخد
في الفيلق. لكن أكثرية الهاربين من الجيش الفرنسي هم
الجنود المرتزقة، والسبب أن الطرق البوليسية الفرنسية تثير
اشمئزازهم. يترك الجنود الألمان والإيطاليون صفوف الأعدا
ليلتحقوا بجيش التحرير الوطني. تحدّثنا مع العشرات منهم

عودتهم الى أوطانهم وبدا لنا أن هؤلاء المرتزقة القدامى متفقون على أمر واحد وهو أنَّ وحشية القوات الفرنسية وساديّتها مرعبتان.

من الأهمية بمكان ألا ننسى أن ظهور الجنود الجلادين يرقى إلى شتاء 1955، كان رجال الشرطة هم الذين يمارسون بمفردهم طوال عام أعمال التنكيل في الجزائر.

كما نملك اليوم في حوزتنا معلومات دقيقة عن الوسائل التي يستعملها الفرنسيون. نُشرت شهادات عدة ووضعت الجداول بأصناف التقنيات المستعملة في التعذيب. إلا أننا نفتقر إلى المبادىء المتعلقة بعقيدة التعذيب وفلسفتها. ثمة معلومات تملكها جبهة التحرير الآن وهي تلقي الضوء بشكل خاص على هذا التبرير العقلي لعملية التعذيب.

لوفريدو (Lofrédo) وبودڤان (Podevin) مُنظرا عقيدة التعذيب

إن الشرطيين الفرنسيين لوفريدو (المفوّض في الجزائر العاصمة) وبودڤان (رئيس الشرطة القضائية في البليدة) أوضحا أمام زملائهما وضمن عروض تقنية قُدمت إلى مساعديهم الجدد بعض الوسائل التي يستعملونها:

1) عندما تشير شهادات وتقارير متجانسة إلى أحد الأشخاص الجزائريين الذين يلعبون دوراً مهمّاً في أحد التنظيمات المحلية لجبهة التحرير الوطني، يتم توقيف هذا المواطن واقتياده إلى أحد مراكز الشرطة القضائية. عندئذٍ لا يُوجّه إليه أي سؤال لأنه في هذه المرحلة من التحقيق «لا نعرف الوجهة التي يمكن أن يتخذها

الاستجواب ويجب ألا نلفت انتباه المشتَبه به إلى جهلنا». وأفضل وسيلة لتحطيم مقاومته هو استعمال الطريقة التي تدعى «العمل التمهيدي من خلال إعطاء المثل».

ويكون المثل بأن تترك بعض سيارات الجيب العسكرية مركز الشرطة لتلقي القبض على عشرات الجزائريين بطريقة عشوائية. قد تلتقطهم من الشارع أو في أكثر الأحيان من الدوار المجاور ثم تقتادهم الواحد تلو الآخر أمام المشتبه به وثم تعذيبهم حتى الموت. ويمكن المباشرة في عملية الاستجواب الحقيقي بعد خامس أو سادس عملية قتل تستهدف أحد الموقوفين.

2) أما الطريقة الثانية فتقوم على تعذيب المشتبه به منذ البداية. ويُفترض القيام بعدة جلسات تعذيب لتحطيم طاقته ومقاومته. لا يُطرح أي سؤال على المشتبه به، استعمل المحقق بودڤان هذه الطريقة في البليدة على نطاق واسع ثم في الجزائر العاصمة. لكنه يعترف بأنه من الصعب عدم قول شيء للمشتبه المنكّل به حين يطالب جلاّده بتفسيرات. لذا، يجب التعجيل بتحطيم مقاومته.

عند الجلسة السادسة أو السابعة، كل ما يُقال له: تستطيع الكلام فنحن نصغي اليك.

وهنا لا يتخذ التحقيق أي وجهة معينة، يجب على المشتبه به أن يقول كل ما يعرفه.

وفي الحالين تطالعنا الظاهرة نفسها: الاستجواب مرجأ.

من الطبيعي إذاً، في إطار تبرير الغاية أن يتحرر التحقيق من الاهتمام بالوسائل المستعملة، ويصبح التعذيب عملاً مشروعاً وهدفاً بذاته. لكَيْ يكون النظام الاستعماري منطقياً مع نفسه، عليه أن يتقبل بأن يكون التنكيل إحدى وسائله الأساسية.

المثقفون الفرنسيون والصحافة الفرنسية

ليس بإمكان السيد مارتان ـ شوفييه (Martin Chauffier) أن يتفلّت من هذه المعضلة إذ يلاحظ بسهولة في أحد تقاريره الحذرة التي يرفعها الى رؤسائه ما يشبه الموافقة على أعمال التعذيب التي تُمارس بحق الجزائريين، يستعيد الكاتب الحجة القائلة بأن التعذيب استثنائي ويشدد على الأمر بشكل خاص. إلا أنه يعترف أخيراً بأن هذه الجرائم المرتكبة تظل بعيدة عن الأضواء ولا تحفل بإهتمام السلطات العليا بها وبما أن هذه الجرائم لا تلقى عقاباً رادعاً فهي تشجّع بالتالي على المضي بها. وتوشك أن تصير نظاماً فعلياً. لا يمكن اغفال التناقض الموجود في هذا الموقف، إذ يبدو من خلاله أن السلطة الفرنسية العليا في الجزائر هي التي توافق على هذه الجرائم وتنصح بها وتشرّعها، وإن كل ما يُزعم عن جهل السلطات العليا بمرتكبيها وبها لهو كذب والتباس واضحان.

بإمكان مارتان ـ شوفييه أن يتعجب إذا وصَفْنا تصرّفه بأنه غير مفهوم. فالتعذيب في الجزائر ليس وسيلة للحصول على معلومات بل هو «انحراف ساديّ». وهذه العبارة التي وردت في تقرير مارتان شوفييه هي الوحيدة التي تستحق التقدير: «يؤدي هذا النظام إلى انحراف هؤلاء الذي يشكلّون أدواته».

أما السيد ج. م. ماتي (G.M. Mattei) الذي شارك في الحملات العسكرية الفرنسية على الجزائر، فقد نشر منذ فترة مقالاً في مجلة «الأزمنة المعاصرة» (Les Temps Modernes) يقول فيه: «أذكر أنه بين الفينة والأخرى، عندما كانت السينما الجوّالة تعرض للكتيبة فيلماً مضجراً، كان الجنود والضباط ينهضون من أمكنتهم

ويذهبون بهدوء ليمضوا نهاية السهرة برفقة المساجين... كانت موسيقى الفيلم تعلو على صوت الصرخات...».

يحتّج السيد ماتي على هذه الانتهاكات المتتالية للكرامة والشرف الفرنسيين ويُنهي شهادته، بطبيعة الحال، بالحجة التي أصبحت كلاسيكية لدى الديموقراطيين الفرنسيين: «أي جيل ينتظرنا في بؤرة الفساد هذه التي هي الجزائر؟ إن أخطر أمر يواجهنا هو ما سيؤول إليه هؤلاء الشباب بعد انقضاء اثني عشر شهراً على استدعائهم إلى صفوف جيش فرنسا الوطني والذين قضيت معهم ستة أشهر: لقد أصبحوا قراصنة حقيقيين».

لا يمكن أن نعثر على مثل يجّسد بشكل أفضل ما ندعوه انحراف الحس الأخلاقي. حين يردد المثقفون الفرنسيون، مع السيد ماتي، الكلام نفسه على أنه «يوجد حالياً في الجزائر مشروع واسع هدفه إعدام الحس الانساني لدى الشبان الفرنسيين»؛ وحين يتأسفون قائلين إن المجندين الفرنسيين «يتعلمون هناك الفاشية»، فيجب أن ندرك والحالة هذه أن ما يهم هؤلاء المثقفين ذوي النزعة الانسانية هو التبعات الأخلاقية فقط لهذه الجرائم وتأثيرها على نفوس الفرنسيين. إن الخطورة التي تتسم بها أعمال التعذيب والسخرة والاغتصاب المرعب للفتيات الجزائريات، كل هذه الممارسات يجب أخذها بعين الاعتبار فقط لأنها تشوّه فكرة «الشرف الفرنسي» الراسخة في أذهان الفرنسيين.

يستحق مثل هذا الموقف عناء التأمل فيه لأنَّ هذا الإقصاء أو الإلغاء للانسان الجزائري وهذا التجاهل للإنسان المنكّل به أو للعائلة القتيلة يشكلان ظاهرة فريدة تماماً. إنها ظاهرة تطبع المواطن الفرنسي الذي بات يتمحوَر كل همّة حول ذاته ومجتمعه متجاهلاً ما يعاني منه الناس الآخرون.

هل يتخوف المثقفون من انتقال العدوى اللاأخلاقية؟ مهما يكن، يبدو التخوف باطلاً تماماً، ما يعذّب الشرطيين المرضى ليس ضميرهم. وإذا كانوا يواظبون على معاينة أعمال التعذيب خارج أوقات الدوام في مكاتبهم ومحترفاتهم فمردّ ذلك إلى ما يتعرضون له من إرهاق في ممارسة أعمالهم. ما يطالب به الشرطيون هو إمكانية مواصلة أعمال التعذيب وليس صفاء البال أو النفس.

النظام موضوع المسألة

لا ينتهك الشرطي الجلاد في الجزائر أي قانون، فأعماله تندرج في إطار المؤسسة الاستعمارية، وهو، بأعمال التعذيب التي يمارسها، يُظهر تفانياً حقيقياً للنظام. وهكذا، لا يمكن للجنود الفرنسيين أن يعترضوا على الممارسات دون أن يدينوا في الوقت نفسه الهيمنة الفرنسية على الجزائر، يجب على كل فرنسي في الجزائر أن يتصرف كجلاّد. وإذا كانت فرنسا راغبة في البقاء في الجزائر، فليس هناك من حل أمامها إلا الإبقاء على الاحتلال العسكري وتوطيد بنية عسكرية جبارة.

يستحيل على القوات المعادية أن تقوم بعمل آخر سوى جلائها عن الأراضي القومية.

لا يناضل الشعب الجزائري ضد أعمال التعذيب واغتصاب الفتيات أو الاغتيالات الجماعية. فتاريخ الاحتلال الفرنسي حافل بهذه الجرائم. وفي منطقة القبائل، لا يزال السكان يخيفون الأولاد بأن يهددوهم باستدعاء الجنرال بيجو (Bugeaud)».

ولا يجهل الشعب الجزائري أن البنية الاستعمارية قائم
بالضرورة على التعذيب والاغتصاب والقتل.

من هنا تبدو مطالبتنا بالتحرير كاملة ومطلقة وشاملة.

إن الشرطيين الساديين الذين تعذَّر عليهم أن يغمضوا أجفانه
والجنود الجلاّدين الذين «يوشكون التحول إلى فاشيين»، يطرحو
علينا نحن الجزائريين سؤالاً محدداً: هل من سبيل آخر سو
المضي في الاستراتيجية المعتمدة وتكثيف النضال لكي يتم تحر
الأراضي في أقرب وقت ممكن؟

كل خيار آخر يبدو لنا غريباً تماماً وباطلاً.

3 ـ بخصوص مرافعة[1]

فيما يتعدى تنفيذ أحكام الإعدام الجماعية أو قاعات التعذيب، يتوجه الديموقراطيون الفرنسيون أحياناً إلى الشعب الجزائري طالبين منه ألا يُدرج الشعب الفرنسي المؤلف من عناصر مختلفة في الخندق نفسه ويصب عليه جام غضبه واحتقاره دون تمييز.

يُذكِّر جورج ارنو (georges Arnaud)، ليس من دون إحساس بالمرارة، بأن كل شيء في الجزائر، وبالدرجة الأولى الحكم بالإعدام على فتاة بريئة أو مختلة العقل عمد جلاّدوها الى دسّ السم لها، يجري بإسم الشعب الفرنسي.

هذا صحيح يا سيد جورج ارنو، فالشعب الجزائري يُقتل منذ ثلاث سنوات بإسم الشعب الفرنسي.

ودفاعك عن جميلة بوحيرد يشرّفك، إلا أنني أخشى أن تغفل ما هو أساسي: لا يطرح اغتيال جميلة بوحيرد أي مشكلة على الشعب الجزائري. لم تكن إبتسامة جميلة بو حيرد عند إعلان

(1) المجاهد، العدد 12 الصادر في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1957 ويتناول كتاب جورج أرنو وجاك فرجيس: «دفاعاً عن جميلة بو حيرد».

الحكم بإعدامها تحدّياً عقيماً ولا مجرد بلاهة. لا يخطىء أحد في هذا الخصوص.

تُجسّد ابتسامتها بالأحرى تجلياً هادئاً لقناعة داخلية لا تُقهر. لم يُظهر الشعب الجزائري أي دهشة عند سماعه حكم الإعدام الصادر بحق جميلة بوحيرد. ليست هناك عائلة جزائرية واحدة لم تصبها الجروح أو لم تلبس الحداد على أحد أفرادها أو لم تتعرض للإبادة باسم الشعب الفرنسي.

الرسالة التي أرادت جميلة بوحيرد تبليغها هي نموذج حيّ عن أسلوب الجزائريين الذين يستشهدون في سبيل جزائر مستقلة. إن جنود الجيش الوطني الجزائري ورجال الجزائر ونساءها، كلهم منخرطون، كما جميلة بوحيرد في المعركة الضارية ضد الهيمنة الأجنبية.

حضرة السيد جورج أرنو، منذ حُوكمت جميلة بوحيرد وهناك العديد من مثيلاتها اللواتي عُذبن واغتصبن واستشهدن على الأرض الجزائرية.

وهناك أيضاً الأخريات اللواتي سيلقين لاحقاً المصير نفسه. هذه الحقيقة يعرفها الشعب الجزائري ويعرف أيضاً أن الاستعمار الفرنسي يأمل من خلال هذه الأعمال المجرمة شلّ إرادة المقاومة وزعزعة إيمانها بوطنها.

ما يميّز أكثرية الديموقراطيين الفرنسيين هو أنهم لا يدقون ناقوس الخطر إلا حين يتعلق الأمر بحالات فرديّة من شأنها أن تستدر دمعة من العيون أو تثير أزمات ضمير صغيرة.

هنا تكمن حقيقة التأخر التاريخي ليقظة الضمير الفرنسي. يتوصل الضمير الفرنسي لأن يستأنف نضاله من أجل احترام الحريات الفردية وحقوق الإنسان، هذا النضال الخصب جداً ال

شُرع به منذ قرنين، بنضال من أجل حقوق الشعوب في الاستقلال. من هنا برزت هذه المواقف المتشنجة فيما يتعلق بالحالات الخاصة، والأمل غير المجدي بإثارة اهتمام الشعب الفرنسي انطلاقاً من أوضاع تتسم بالتأزم.

وهذه الأوضاع المتأزمة لا يمكن أن تختصرها محاكمة جميلة بوحيرد ولا ما حصل في «زدوّر» أو ما حصل في مدرج فيليبڤيل (Philippealle).

تمثّل الحالة المحددة نموذجاً حياً من الحالة العامة وهي أن اثني عشر مليون نسمة يريدون استقلالهم، هذه هي الحقيقة الوحيدة ولا يمكن لأحد تبسيطها.

فهل تعتقد يا سيد جورج أرنو انك تسدي خدمة للشعب الفرنسي إذ تحدّثه عن جميلة بو حيرد؟ أفرض أنه صُفح لاحقاً عن جميلة بوحيرد (لكن أي ذنب ارتكبته؟) وعُفي عنها، فهل ستتغير صورة نضال الشعب الجزائري وهل سيتغير القمع الممارَس عليه باسم الشعب الفرنسي؟

صحيح أن كتابك يتوجه إلى الجمهور الفرنسي، وصحيح أنه يوجد في فرنسا منذ بعض الوقت عادات فاشية يتحمل تبعاتها الأدباء الذين يحترمون أنفسهم. لذا فإن مبادرتك تتسم فعلاً بالشجاعة.

لكن الأساسيّ يا جورج أرنو هو ألا تُخلط الأوراق، كما ترى، وألا يتم تصوير جميلة بو حيرد على أنها فتاة مسكينة وقعت ضحية الشر.

جميلة بوحيرد مواطنة جزائرية واعية لما تفعله وتنتمي إلى صفوف جبهة التحرير الوطني وهي لا تستجدي أي عفو أو شفقة.

إن كرامة جميلة بوحيرد وصلابتها الخارقة وإصرارها على المقاومة وعدم الاعتراف بشيء وابتسامتها للموت هي نموذج حيّ عن الخصائص الأساسية للموقف الوطني الذي التزم به الشعب الجزائري كله.

سيد جورج أرنو، أنت محق حين تقول إن موت جميلة بوحيرد يسبّب مشكلة للشعب الفرنسي.

إلا أنه يجدر بنا مع ذلك الاعتراف أنه منذ ثلاث سنوات لا يبدو أن هذا الشعب يدرك المسؤولية التي تقع على عاتقه تجـ العالم وأمام التاريخ تكفَّل بإشعال نار الحرب في الجزائر و خلال مشاركته الفعّالة فيها، هذه الحرب التي يمكن أن نصف بأنها أكبر عارٍ في عصرنا.

لم يستطع الأستاذ جاك فرجيس الدفاع عن جميلة بوحير وقد أوشك، كما تقول، على أن تتم مقاضاته دون صفة و قانون، لا بل تصفيته على يد هذا القسم من الشعب الفرنـ الذي يحكم في الجزائر.

هاكم إذاً ذريعة جديدة تثير السخط، تلك المتعلقة بالحق المشروعة للدفاع عن النفس وحماية هذه الحقوق...

ما أبعدنا عن هذه الحرب التي، ويجب الإقرار بذلك بر تخص شعبين.

أما فيما يخص جاك فرجيس وهو في الأصل من جـ ريونيون (Réunion)، وهي مستعمرة فرنسية، فيكفي أن نتذكر أن الشرطة داست بأقدامها العديد من أبنائنا في مدينة الفرنسية، منذ عشر سنوات، لأننا أظهرنا تضامننا معه.

منذ عشر سنوات، تظاهر مئات العمال والطلاب الجزا

معلنين تضامنهم مع أحد أقرباء الأستاذ ڤرجيس الذي كان ضحية مؤامرة استعمارية حيكت في جزيرة ريونيون، فيما انهال عليهم رجال الشرطة والدرك الفرنسيون بالهراوات.

فهل ما حصل في ريونيون مختلف عمّا يحصل الآن في الجزائر؟

4 ـ المثقفون والديموقراطيون الفرنسيو
في مواجهة الثورة الجزائرية[1]

I

يتمثل أحد واجبات المثقفين المندرجين تحت
«الأنتلجنسيا» والعناصر الديموقراطية في البلدان المستعمِ
الدفاع دون تحفظ عن المطالب القومية للشعوب المست
ومؤازرتها. يستند هذا الموقف إلى معطيات نظرية مهمّة
كالدفاع عن مفهوم للإنسان لا يزال يثير جدلاً في البلدان الغ
ورفض المشاركة في رفض بعض القيم أو التنكر لها، والا
الى المصالح المشتركة بين الطبقات العاملة في البلاد الغازية
مجموع الشعب في البلد المحتل، وأخيراً، الاهتمام بأن
أنظمة الحكم التي ينتمي إليها هؤلاء المثقفون بإحترام
الشعوب في تقرير مصيرها.

---

(1) ظهرت هذه السلسلة من المقالات في «المجاهد» في الأعداد الصادرة
و15 و30 كانون الأول/ديسمبر 1957.

تمحور دعم المثقفين الغربيين وتضامنهم مع الشعب الجزائري خلال الفترة التي سبقت الكفاح المسلح على إجراء بعض المقابلات السنوية التي تُختم برفع التوصيات وتلقي المقترحات. كما جرت أحياناً سلسلة من الحملات الصحافية والتصاريح والتحذيرات والدعوات على سبيل الرد على حملات القمع العنيفة والمفاجئة التي شنَّها النظام الاستعماري في الجزائر ومهدت لقمع أعنف وأشمل (كما جرى إثر انتخابات ناجلان ومؤامرة 1950 – 1951).

والجدير بالإشارة إليه أنه لم تجرِ أي محاولة من قبل المثقفين لتفسير ما يجري في البلد المستعمِر للشعب الموجود في فرنسا. وبما أن اليسار الديموقراطي لا يستطيع ممارسة أي تأثير على الشعب أو على البلاد، فإنه يبقى منغلقاً على نفسه، مكتفياً بترداد، عبر مقالات ودراسات مسهبة، ما جاء في مقررات مؤتمر بندونغ (Bandong) بأن الاستعمار على وشك الزوال، لكن اليسار ينسى أن واجبه يقوم على إخطار الشعب الحقيقي أي المزارعين والعمال. يجد اليسار نفسه عاجزاً عن تفسير ما يجري لملايين العمال والمزارعين في البلد المستعمر أو عَنْ التعليق على حقائق المأساة، لذا يرتد إلى دور كاسندر! فهو يتنبأ بقرب وقوع الكوارث ويتخلى عن دوره في تحضير الرأي العام ومما يجعل هؤلاء المتنبئين شركاء متواطئين مع المستعمِرين عند لحظة الانفجار.

عدم فعالية أليمة

وهكذا، وفيما يتعلق بحالة الجزائر، وبعد المرحلة الحادة

التي سبقت العصيان ونشوب الكفاح المسلّح (بداية الأعمال التخريبية والاعتداءات)، فإننا وجدنا أنفسنا أمامَ يسار حائر ومأخوذ على حين غرة متناقض في مواقفه وتسيطر عليه البلبلة.

تُدرك العناصر الديموقراطية ويدرك المثقفون معطيات المشكلة ويعرفونها جيداً. لقد تفحصوها عن كثب وأمعنوا في دراستها منذ وقت طويل. لذا، فهم يعرفون تعقيداتها وعمقها والضغوط التي تحدثها، لكن المعرفة تبدو عاجزة عن مواجهة الأفكار البسيطة التي تنتشر في صفوف الشعب.

يتعثر اليسار في مواجهة المستجدات الطارئة وتبقى المعرفة التي يمتلكها غير مجدية ويكتفي بتكرار تنبؤاته السابقة: «لقد حذرناكم وكل ذلك يحصل بسبب أخطائكم».

في هذه المرحلة من الغليان الشعبي ورص الصفوف وتنظيم الشعب المستعمَر للكفاح المسلح، نشهد حالة من شبه التواصل بين الشعب الثائر والعناصر الديموقراطية. ذلك أن المثقفين والديموقراطيين الفرنسيين تعرفوا شخصياً إلى القياديين الحاليين للكفاح المسلَّح ونشأ بينهم نوع من التواطؤ الظاهري. لكن سرعان ما أطاحت الأحداث بهذا التضامن الكاذب الناشط ما اشتدت المعارك وكثرت الكمائن والاعتداءات حتى خفّت لهجة الإتهام الموجّه إلى المسؤولين الرسميين. ازداد القمع حدة وأكثر تنظيماً وتنوعاً وظهرت غرف التعذيب. وقتل على امتداد الأراضي الجزائرية العشرات والمئات من المواطنين.

يشعر الشعب المستعمَر بضرورة التماسك فالرجال والنساء والأطفال والعجائز في البلد الواقع تحت الاحتلال يدركون تماماً أن وجودهم بالمعنى البيولوجي للكلمة مرادف لوجودهم كشعب حرّ سيد ومستقل. ويبدو المنفذ الوحيد الممكن وسبيل الخلاص

الوحيدة الممكنة لهذا الشعب الردّ بكل ما لديه من قوة على مشروع الإبادة الجماعية الذي يُمارس ضده.

ويكون الرد أكثر فأكثر عنفاً.

القومية و «البربرية»

ها هنا تطالعنا ظاهرة مزدوجة. يجري الإعداد في البداية لحملة ترويج تتسم بالعنصرية المتطرفة محرّكة كل الميول العنصرية المستترة والكامنة في الوعي الجماعي للشعب المستعمِر. وهذه الحملة تضيف عنصراً جديداً على المسألة. يصير بديهياً إذ ذاك أن يستحيل الدفاع عن المستعمَر دون أن يتعارض ذلك مع التوجه الوطني العام. وتصبح محاربة الاستعمار من قبل الشعب الفرنسي محاربة للأمة نفسها، فيتقبل مجموع الشعب حرب إعادة الفتح التي تقوم بها بلاده. وعندئذٍ تفقد الحجج المعارضة لاستمرار الاستعمار كل فاعليتها لتصبح نظريات بعيدة عن الواقع وسرعان ما تختفي من الخطاب الأدبي الديموقراطي.

فيما يخص الجزائر، أخذت الأمة الفرنسية بدءاً من آذار/ مارس 1956 على عاتقها حرب إعادة الفتح الاستعمارية فاستدعت جنودها من الاحتياط. وكانت التظاهرات التي قام بها المجندون في ذلك الوقت الدلائل الأخيرة لحربٍ وُصفت بأنها لا تحظى بتأييد شعبي ولا تجد ما يبررها على الصعيد العقائدي.

منذ عام 1956 والأمة الفرنسية مقتنعة بجدوى حرب الجزائر. فرنسا تريد الحرب، هذا ما يقوله علانية غي موليه (Guy Mollet) وبورجيس ـ مونوري (Bourgès-Maunoury). كما عبَّر الشعب الباريسي في 14 تموز/جويليه عام 1957 للمظليين

الجلاّدين بأمرة الجنرال ماسو (Massu) عن شعوره بعرفان الجميل
لما بذلوه في سبيل الوطن. تخلى الليبراليون عن مناهضتهم
للحرب في تلك المرحلة. وأصبح اتهام المعارضين للحرب
الجزائرية بالخيانة من قبل الشعب الفرنسي سلاحاً مخيفاً في أيدي
السلطات الفرنسية. وهكذا رأينا في بداية عام 1957 عدداً كبير
من الديموقراطيين يلزمون الصمت وينكفئون أمام صيحات الشعب
الغاضب الداعية للثأر والانتقام، مما ساعد على نشوء نزعة وط
بدائية، سيئة البنية، عنصرية النزعة، عنيفة وتوتاليتارية أي فاشية.

أما الحجة الثانية التي تتذرع بها الحكومة الفرنسية فه
مكافحة الإرهاب. فالقنابل التي تلقى على الفرنسيين في الجز
يتم استغلالها على الصعيد الإعلامي، أي يستغل الإعلام الفرنـ
عرض صور الأطفال الفرنسيين الجرحى والأبرياء الذين لا يُدعـ
بورجو (Bourgeaud) أو الذين لا ينطبق عليهم اللقب الكلاسيـ
«للاستعماري المتوحش». وكل هذا يطرح مشاكل غير متو
بالنسبة للديموقراطيين الفرنسيين، ويسبّب الإرباك في مر
اليسار. عندما قتل عشرة مدنيين فرنسيين في أحد الكمائن،
اليسار الفرنسي كله دفعة واحدة قائلاً: «لا نجاريكم في ذل
لكن السلطة أحسنت استغلال الحادثة على الصعيد الإعا
وتشتت القناعات المتصدّعة أصلاً وظهر مفهوم البربرية و
القرار بأن فرنسا في الجزائر تحارب البربرية.

تداعى قسم كبير من المثقفين وسادت البلبلة في ص
اليسار الديموقراطي الذي سارع إلى فرض شروطه على ال
الجزائري: أظهروا إدانتكم لـ «ساكامودي» (Sakamody) وكفـ
استخدام القنابل وخذوا منا دعمنا الودي لكم.

في مطلع السنة الرابعة لحرب التحرير الوطني، وفي

الأمة الفرنسية والقنابل في شارع ميشليه، يغيب اليسار الفرنسي تدريجياً عن الساحة.

لاذ بعض أنصاره بالصمت وتطرق البعض الآخر لمواضيع عادت إلى التداول مجدداً كالكلام عن وجوب إنهاء حرب الجزائر لأنها تكلف فرنسا ثمناً باهظاً (تراجع التأييد الفرنسي الشعبي لحرب الجزائر والسبب الوحيد هو أنها تكلف الدولة الفرنسية مليار ومئتي مليون فرنك فرنسي) ولأنها تجعل فرنسا معزولة على الصعيد الدولي أو تسمح بإستبدالها بالأنكلو ـ ساكسونيين أو الروس أو عبد الناصر، الخ...

بات الفرنسيون ينسون يوماً بعد يوم الأسباب الموجبة لإنهاء حرب الجزائر. يتجاهلون أن فرنسا تحرم الجزائريين من حقهم في السيادة الشعبية وتهدر حق الشعوب في تقرير مصيرها وتقتل آلاف الرجال والنساء.

يجري التعامل في فرنسا، ومن قِبَل اليسار نفسه، مع الحرب في الجزائر وكأنها مرض ناتج عن النظام الفرنسي، تماماً كما يجري التعامل مع انعدام الاستقرار الحكومي، فالحروب الاستعمارية ممارسة مألوفة درجت عليها فرنسا وباتت جزءاً من المشهد الوطني العام والتفصيلات اليومية.

II

منذ عام 1956، بات المثقفون والديموقراطيون الفرنسيون على اتصال دائم مع جبهة التحرير الوطني. يتعلق الأمر في معظم الأحيان إما بإسداء نصائح سياسية وإما بتوجيه انتقادات توجَّه إلى

هذا الجانب أو ذاك من حرب التحرير. لا يتبادرن إلى الذهن أن هذا الموقف الذي اتخذته الانتليجنسيا الفرنسية ناتج عن موقف داخلي متضامن مع الشعب الجزائري. فالنصائح والانتقادات التي يوّجهونها نابعة من هذه الرغبة لديهم والتي يستحيل التنكّر لها بإرشاد المضطهَدين وتوجيههم حتى في خضم معركة التحرير التي يخوضونها وكأن المضطهدين عاجزون عن توجيه أنفسهم بأنفسهم

وهكذا، يصير بالإمكان فهم التأرجح الدائم للديموقراطي الفرنسيين بين موقف عدائي ظاهر أو مبطن وبين التوق اللاواق للنضال حتى النهاية. تشير هذه البلبلة في مواقفهم إلى نقص الاستعداد لمواجهة المشاكل المعقدة وعدم اندماج الديموقراط الفرنسيين في الحياة السياسية الداخلية لفرنسا.

وعلى امتداد هذا الخط المتأرجح، يقف الديموقراط الفرنسيون، إما خارج حلبة الصراع وإما مظهرين رغبتهم بفهمه الداخل أي المشاركة فيه بصفتهم رقباء أو مستشارين، عاج عن الخوض في ميدان محدد أو رافضين اختبار المواجه النضال من داخل الجهاز الفرنسي نفسه، وهم في جميع الأ يطلقون التهديدات الفارغة ويمارسون لعبة الابتزاز.

أما التبرير الزائف الذي يقدّمه الديموقراطيون لهذا الم فهو أنه يهدف إلى التأثير في الرأي الفرنسي كما ينبغي إدانة الأحداث وعدم الانجرار وراء المواقف المتصلبة والحفاظ مسافة من التجاوزات: ففي هذه المرحلة من التأزم والموا ينبغي على جبهة التحرير أن تواجه بحكمة ممارسات العنف تجعل خياراتها انتقائية.

أسطورة «الجزائر فرنسية»

إذا أمعنا التفكير عند هذا المستوى، لاستطعنا اكتشاف سمة هامة تميز إلحاح السلطات الفرنسية على استعمار الجزائر. قد يبدو تقليدياً وتافهاً أن نحدّد في أمة ما هويّة قوتين متعارضتين وهما الطبقة العاملة والرأسمالية البورجوازية. لكن هذا التمييز يبدو غير ملائم تماماً في البلد المستعمر. ما يحدد الوضع الاستعماريّ هو بالأحرى الطابع اللاامتميز الذي يطبع الهيمنة الأجنبية، الوضع الاستعماري هو في بادىء الأمر احتلال عسكري تصونه وتعزّزه إدارة مدنيّة بوليسية. تتعارض هوية المضطهِد الأجنبي، في الجزائر كما في كل المستعمرات مع هوية السكان الأصليين للبلد، ويمثل الغازي طعنة لكرامة المحتل وحجر عثرة في طريق تحرره.

إن الموقع الذي يشكله الأجنبي الغازي الفرنسي في الجزائر هو موقع المضطهِد، لا يمكن لفرنسي في الجزائر أن يظل محايداً أو بريئاً. كل فرنسي في الجزائر هو تجسيد للاضطهاد والظلم والهيمنة. واليسار الفرنسي الذي لا يمكنه البقاء لامبالياً تجاه ما يحدث أو منغلقاً على تصوّراته الخادعة بالذات، قد يتبنى، خلال الفترة التي مهّدت لحرب التحرير، مواقف متناقضة.

ما هو الاستعمار؟

عندما قرّر الديموقراطيون الفرنسيون تسمية ما هو قائم في المستعمرات غزواً واحتلالاً عسكرياً بـ «الاستعمار»، فقد بسَّطوا الحقائق عن عمد. إن تسمية «الإستعمار» أو «الكولونيالية» التي أوجدها المضطهد عاطفية جداً ومثيرة للانفعال. إنها محاولة يائسة لتحويل المسألة من المفهوم القومي إلى المفهوم السيكولوجي،

وهكذا، فإن ما يتنافى مع الكولونيالية وفقاً لتصور هؤلاء الديموقراطيين لا يقوم على الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها، بل ضرورة اعتماد تصرفات ومواقف على الصعيد الفردي أقل عنصرية وأكثر انفتاحاً وليبرالية.

ليست الكولونيالية نموذجاً للعلاقات الفردية بل هي احتلال لأراضي قوم واضطهاد شعب. هذا هو الاستعمار بكل بساطة. ليس الاستعمار تصرفاً إنسانياً أو نمطاً للعلاقات بين الأفراد. كل فرنسي موجود على أرض الجزائر هو جندي عدو. وما دا الشعب الجزائري لم يحقق استقلاله فيجب تقبل هذه الحقيق المنطقية. لقد أدرك لاكوست ذلك فدعا إلى تعبئة الفرنسيي والفرنسيات المقيمين في الجزائر.

انطلاقاً من هذه المفاهيم، نرى أنّه لا يحقّ لنا أن نلوم جب التحرير الوطني على بعض أعمالها الرعناء، بل على العكس يجب أن نقدر الجهود التي تبذلها والتضحيات التي تفرضها ع الشعب.

يجد الديموقراطيون الفرنسيون أنفسهم في مواجهة تناقضا بالذات لأنهم عجزوا عن أن يدركوا أن الاستعمار ليس احتلالاً عسكرياً.

احزاب اليسار هي أيضاً ضحية الأسطورة التي تدعي «الجزائر فرنسية» وقد سعت لأن تخلق على أرض الجزائر فر جزائرية للأحزاب السياسية الفرنسية وأن تطلق شعارات ومش وأنمطة نضال مشابهة لتلك الموجودة في «المتروبول». ثمة مو عقائدي يسود في الأزمنة الأخيرة غير متنازع فيه وهو يبرر المواقف بحجة أن هناك مصالح مشتركة بين الشعب المس والطبقة العاملة في البلد المستعمِر. لكن تاريخ حروب التح التي تشنها الشعوب المستعمَرة تثبت عدم مصداقية هذا الطرح

الاستعمار ليس السيد بورجو

عبّر الشعب الجزائري عن معارضة للصورة التبسيطية التي تجعل من المستعمِر نموذجاً خاصاً لإنسان يسهل التعرف عليه، إذ ليس كل الفرنسيين في الجزائر مستعمِرين وهناك مستويات في الاستعمار. لكن، لا السيد بورجو ولا السيد سيريني (Sérigny) يمكنهما أن يختصرا الاستعمار الفرنسي في الجزائر. فالاستعمار الفرنسي والاضطهاد الفرنسي في الجزائر يمثلان كلاً متماسكاً لا يتطلب بالضرورة وجود بورجو ليكون موجوداً. الهيمنة الفرنسية هي مجموعة القوى التي تعارض وجود الأمة الجزائرية. وبالنسبة للجزائري، ليس السيد بلاشيت (Blachette) أقل استعمارية من أي رجل شرطة فرنسي في الجزائر أو ناطور أو معلم..

يدرك الجزائري الاستعمار الفرنسي ويشعر به على أنه حقيقة شاملة وذلك ليس على سبيل التبسيط أو معاداة الأجانب بل لأن كل فرنسي في الجزائر يقيم مع الجزائري علاقات تستند الى القوة. والتذكير بالحالات الخاصة لفرنسيين هم غاية في اللطف والكياسة مع الجزائريين لا يغيّر في شيء من طبيعة العلاقات القائمة مع فريق أجنبي استأثر بكل السيادة الوطنية. ليست هناك أي علاقة شخصية تستطيع أن تتخطى هذا المعطى الأساسي: الأمة الفرنسية تتعارض بوجود رعاياها في الجزائر مع وجود الأمة الجزائرية.

في الاستعمار الاحتوائي، يتمثل الشعب المستعمِر في الجنود والشرطيين والتقنيين، وبإمكان الشعب المستعمِر في هذه الشروط أن يتجاهل الأحداث ويعلن نفسه بريئاً من الاستعمار، أما في الاستعمار الاستيطاني فيصبح هذا التهرب من المسؤولية أمام

الذات مستحيلاً، لأنه، ووفقاً للعبارة الشهيرة التي قالها أحد الرؤساء الفرنسيين: «ما من فرنسي إلا ويملك قريباً له في الجزائر»، تجد الأمة الفرنسية نفسها متورطة في الجريمة المرتكبة بحق الشعب الجزائري وشريكة في عمليات الاغتيال والتعذيب التي تطبع حرب الجزائر.

ليس الديموقراطي الفرنسي الحقيقي هو من يقف في وجه بورجو أو بلاشيت، بل من يتجنب اختيار بعض كبوش المحرقة اختياراً عشوائياً لا يسعه أن يجسّد مئة وثلاثين سنة من الاضطهاد الاستعماري. يجدر بالديموقراطي الفرنسي أن يقاضي ويدين ظاهرة الاستعمار برّمتها التي تقوم على الاضطهاد العسكري والبوليسي، ويجب الاقتناع بأن كل فرنسي في الجزائر يتصرف مثل بورجو. لا يمكن لفرنسي في الجزائر أن يتنصّل من هذه الحقيقة ما دام وجوده على أرض الجزائر يكرس هذه الهيمنة.

بما أن الديموقراطي الفرنسي لا يستطيع أن يتبنى هذا الموقف من الاستعمار لافتقاره إلى الشجاعة المطلوبة أو الى التحليل الصائب للأمور، فإنه يلجأ دائماً إلى أفكار مجردة كالقول إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة ويتنافى مع المشاعر الإنسانية، وإن فرنسا يجب أن تكون وفية لتاريخها المجيد. وهكذا يتم تجاهل الحقيقة الثابتة وهي أن الاستعمار يشكل جزءاً مهماً من التاريخ الفرنسي.

الاستعمار هو تنظيم الاحتلال وإدارته بعد الغزو العسكري؛ لذا، فإن حرب التحرير ليست سعياً للإصلاحات بل نضالاً مريراً يخوضه شعب تمَّ تحنيطه وأراد أن يستعيد عبقريته وتاريخه وسيادته.

رفض بعض الفرنسيين أن يخدموا في إطار منظمة شمال حلف الأطلسي تحت إمرة الجنرال الألماني شبيدل (Speidel)، لكنهم يؤيدون الحرب على الشعب الجزائري. لكن الوفاء الحقيقي لروح المقاومة الفرنسية يُملي على الفرنسيين الذين رفضوا الخدمة تحت إمرة شبيدل أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ويرفضوا أيضاً محاربة الشعب الجزائري تحت إمرة ماسو أو سالان (Salan).

III

لا شك أن الحكام الفرنسيين على صواب عندما يدعون أن المسألة الجزائرية تزعزع أسس الجمهورية الفرنسية نفسها، منذ بضع سنوات، تعرَّضت مقولة «الجزائر فرنسية» لتجربة مريرة وسادت الشكوك المتعلقة بحقيقة هذا الطرح.

أما على الصعيد الدولي فقد جرى تحميل الأنظمة الطاغية التبعات الناشئة عن هذا التدمير. لكن التحاليل المتقدمة لم تحل كلياً مشكلة التضليل الذي مارسته الأنظمة الجائرة طوال عشر سنوات من التعليم المضلّل والتزوير التاريخي المنهجي.

ثمن التضليل

عندما نحلّل عن كثب العلاقات الكولونيالية القائمة بين الجزائر وفرنسا، نلاحظ أن الأرض الجزائرية، من خلال الطبيعة التي تسم احتلالها، اعتبرت على الدوام امتداداً واقعياً لفرنسا. لم تشر فرنسا قط ولا في لحظة ولا في عبارات مماثلة إلى حقها في الملكية على افريقيا السوداء أو على أي جزء آخر من «الأمبراطورية الفرنسية». صحيح أنه تمَّ إعلان افريقيا السوداء

أرضاً خاضعة للسلطة الفرنسية، لكن لم يتخذ أي قرار بأن افريقيا السوداء هي فرنسا.

أما بالنسبة للجزائر فقد أطلقت منذ البداية مقولة الهوية الواحدة. ورأينا أن الديموقراطيين الفرنسيين، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة كيَّفوا موقفهم مع وجهة النظر هذه. لم تُخفِ الأحزاب الفرنسية أنها وجدت نفسها مضطرة للخضوع لهذا التضليل التاريخي. فالسيد لوران كازانوفا، في خطبة ألقاها في 17 آذار/مارس عام 1957 في باريس وتوجه فيها الى الطلاب الشيوعيين، وفي معرض رده على الانتقادات التي وجهها اليه الشباب الشيوعيون بخصوص موقف الحزب الشيوعي الفرنسي من المسألة الجزائرية، برّر موقفه داعياً إياهم بأن يأخذوا بعين الاعتبار «الموقف العفوي للجماهير الفرنسية الشعبية من المسألة».

لمدة مئة وثلاثين سنة، تمت تهيئة الوعي الوطني الفرنسي بإتجاه مبدأ أساسي بسيط: الجزائر هي فرنسا. لذا، لا نزال اليوم، وبالرغم من أن قسماً كبيراً من الشعب الفرنسي بات ينظر الى الأمور بعقلانية ويرى أن من مصلحة إنهاء الحرب والاعتراف بالدولة الجزائرية المستقلة، نصطدم بردود فعل غرائزية وانفعالية ومنافية للتاريخ.

لم يسبق للمبدأ الذي ينص على أن لا أحد يستعبد الآخر دون أن يلقى العقاب، أن تجلّى بوضوح على هذا النحو. بعد أن تمَّ تدجين الشعب الجزائري لمدة أكثر من قرن، وجدت فرنسا نفسها سجينة أفكارها التي روّجتها لتبرير استعمار الجزائر وغير قادرة على التحرر منها أو إقامة علاقات جديدة أو اتخاذ مبادرات جديدة.

مساومة كريهة

نقترف خطأ كبيراً إذا اعتقدنا أن المشكلة تختصرها هذه الاعتبارات السيكولوجية. تظهر المواجهات التي جرت مع ممثلي اليسار الفرنسي اهتمامات أكثر تعقيداً. ونجد أنفسنا فيما يخص هذا الجانب المحدد من مستقبل استقلال الجزائر أمام مطلبين متناقضين، يجمعهما على مستوى أعلى، التفسير المانويّ للعالم الذي يتقاسمه عاملا الخير والشر منذ بضع سنوات.

من جهة يؤكد لنا اليسار اللاشيوعي دعمه ويعدنا بأن يتدخل لكنه يطلب بالمقابل أن نضمن له بألا تغرق الجزائر أبداً في الكتلة الشيوعية أو في الكتلة التي توصف بالحياد. إن مناهضة الاستعمار التي يقوم بها هؤلاء الديموقراطيون مشروعة وتتسم بالتحفظات لا بل تفرض القيام بخيار سياسي محدد. لا شك أن الحجج لا تنقصهم، تبدو لهم مقايضة الاستعمار الفرنسي بالاستعمار «الأحمر» أو الناصريّ عملية سلبية، لأن اتخاذ موقف محدد، على حدّ قولهم، في هذا الزمن الذي تميّزه التكتلات الكبيرة، أمر واجب والاختيار الذي ينصحون به معلن بوضوح: التكتل الغربيّ.

يعلن هذا اليسار اللاشيوعي تحفظاته عامة عندما نوضح له أن الأمر يتعلق أولاً وقبل كل شيء بتحرّر الشعب الجزائري من نير الاستعمار الفرنسي. وإذ يرفض اليسار الفرنسي اللاشيوعي التمسك بالموقف الداعي الى تصفية الاستعمار والعمل على التحرر الوطني، فإنه يشترط علينا النضال من أجل تحقيق هدفين معاً هما: رفض الاستعمار الفرنسي ورفض الشيوعية السوفياتيّة ـ غير المنحازة.

تطرح المشكلة نفسها أيضاً بالنسبة لليسار الفرنسي الشيوعي،

لكن وفقاً لدينامية معاكسة، يدعي اليسار الفرنسي الشيوعي بأن الحزب الشيوعي لا يمكنه أن يساند إلا بعض حركات التحرير الوطني، لأنّ أي فائدة ستعود على الشيوعيين الفرنسيين إذا أُخليت الساحة للإمبريالية الأميركية في الجزائر! في هذا الصدد أيضاً، يطلب اليسار الشيوعي ضمانات منا ويريد انتزاع الوعود.

بالإمكان إذاً أن ندرك المصاعب التي تعيق الحركة المناهضة للاستعمار والتي ينادي بها اليسار الفرنسي. والسبب يكمن في أن الجزائر التي لم تحقق استقلالها بعد تشكّل منذ الآن موضوعاً للصراع على النفوذ على المستوى العالمي: لمصلحة أي جهة ستتحرر الجزائر؟ لا يكفّ الشعب الجزائري منذ ثلاث سنوات عن القول إنه يتحرر لحسابه هو بالذات وأن ما يهمه أولاً هو استعادة سيادته وإرساء سلطته وتحقيق انسانيته وحريته الاقتصادية والسياسية، لكن لا يبدو أن هذه الأمور البديهية يمكن فهمها وتقبلها.

تبدو ولادة هذا الاستقلال متعثرة جداً في ظل هذه المعطيات، والشعب الجزائري يتعذب جراء ذلك بشكل مرعب. ها هم منذ الآن يساومونه بعدائية لا مثيل لها ويفرضون عليه الشروط المسبقة مقابل أي مبادرة دعم بسيطة تُقدم له، نسمع مراراً بعض الفرنسيين الديموقراطيين يتحدثون معنا قائلين: «ساعدونا لنساعدكم». وهذا يعني بوضوح: أوضحوا لنا صراحة أين تنوون المضي في سعيكم بعد التحرير.

هذا الاشتراط المسبق للوفاء بالوعود والذي يندرج دائماً في إطار العلاقات الفردية بين الفرنسيين والجزائريين يمثل دون أدنى شك إحدى النواحي الأكثر إيلاماً في النضال من أجل الاستقلال. يصطدم بعض الديموقراطيين الفرنسيين بصدق المناضل الجزائري

والسبب في أن الطابع الشامل والجذري للحرب التي يخوضها الشعب الجزائري تنعكس في الأسلوب الجذري المتطرف الذي يسود علاقته مع الأطراف الأخرى. يجدر بنا الاعتراف بأنه لا يمكننا تحمل رؤية بعض الفرنسيين الذين اعتقدنا أنهم أصدقاؤنا يتصرفون معنا وكأنهم تجار يساومون ويمارسون ابتزازاً رخيصاً في مقابل دعمهم المشروط لنا وإبدائهم التحفظات الأساسية تجاه أهدافنا الوطنية.

خلاف أساسي

إذا أنعمنا النظر في موقف اليسار حيال أهداف نضالنا، نجد أن ما من تنظيم فيه يسلّم بإحتمالية تحرير وطني فعليّ.

يسلّم اليسار المناهض للشيوعية بأن الحالة الاستعمارية يجب أن تزول. لكن، بين تصفية النظام الاستعماري ـ الذي يُرد إلى كونه نظاماً تفصيلياً يميّزه صراع الطبقات ـ وبين الاعتراف بأمة جزائرية مستقلة عن فرنسا، هناك عدة أمور يشترطها هذا اليسار تتمثل في سلسلة من المراحل الثانوية والحلول الغريبة والتسويات.

من الواضح أن نهاية الحرب في الجزائر يجب أن تؤدي، بالنسبة لهذا اليسار إلى انشاء نظام فدرالي داخلي ووحدة فرنسية جديدة. إنَّ خلافنا مع هذا الرأي الفرنسي ليس ذا طابع سيكولوجي ولا تكتيكي كما يدعي البعض، الخلاف مرده إلى أن اليساريين الراديكاليين والاشتراكيين الذين يمثلون الأقلية والحركة الجمهورية الشعبية لليسار لا يتقبلون فكرة استقلال الجزائر، لذا فإن المواقف التي تقول: «نحن متفقون على المضمون، لكن ليس على الوسائل» مواقف مغلوطة تماماً.

يصر اليسار الشيوعي من جهته على ضرورة تطور البلدان المستعمَرة بإتجاه الاستقلال، لكنه يطالب بالإبقاء على العلاقات المميزة مع فرنسا، تُظهر مثل هذه المواقف بوضوح أن الأحزاب التي تُوصف بالتطرف تعتبر هي أيضاً أن فرنسا لديها حقوق على الجزائر وأن التخفيف من وطأة الهيمنة، يجب ألا يترافق بالضرورة مع اختفاء كل صلة تربط فرنسا بالجزائر، يجري التعبير عن هذا الموقف في شكل أبوية تكنوقراطية ولكنه ينطوي على ابتزاز وتملّص من أداء الدعم اللازم.

ولا يكف هؤلاء عن طرح السؤال التالي: ماذا ستفعلون اذا قطعتم العلاقات مع فرنسا؟

يلزمكم تقنيون ودعم مالي وآلات...

ويجري للتوّ استحضار لوحة مفجعة تبدو فيها الجزائر مجتاحة من الصحراء أشبه ببؤرة مستنقع تغلي فيها الأمراض والفساد. كل هذا التهويل هدفه التأثير في مواقفنا وحملنا على التفكير في الأمر ملياً.

يقول أنصار الاستعمار في حملاتهم الترويجية للشعب الفرنسي: لا تستطيع فرنسا العيش اذا تخلت فرنسا عن دورها في الجزائر.

ويقول مناهضو الاستعمار الفرنسيون للجزائريين: لا تستطيع الجزائر العيش دون فرنسا.

وبالطبع، لا يلاحظ الديموقراطيون الفرنسيون الطابع الاستعماري، أو لنقل إذا أردنا استخدام مفهوم جديد، الطابع الاستعماري الجديد لموقفهم.

تستجيب المطالبة بعلاقات مميزة مع فرنسا للرغبة في الابقاء على البنى الاستعمارية كما هي. لكأنَّ في الأمر إرهاباً ينطلق من

ضرورة أن لا مستقبل زاهر يمكن أن يحدث في الجزائر أو بتحقق بمعزل عن فرنسا. في الواقع، تنبع المطالبة بعلاقات مميزة مع فرنسا من الرغبة في ابقاء الجزائر إلى الأبد في مصاف الدولة القاصرة المحمية. وهذا يشكل ضمانة لاستغلال الشعب الجزائري ويثبت بشكل واضح موقفاً خطيراً عاجزاً عن فهم التطلعات الثورية للنضال الوطني.

هل فات الأوان؟

يجب أن يتخطى الديموقراطيون الفرنسيون التناقضات التي تجعل مواقفهم عقيمة إذا أرادوا فعلاً أن تنشأ في الجزائر ديموقراطية حقيقية على أنقاض الاستعمار القائم بمقدار ما يتخلى التيار الديموقراطي الفرنسي عن تحفظاته، بمقدار ما يصبح عمله فعّالاً وحاسماً.

يخضع اليسار لا شعورياً لأسطورة مفادها أن الجزائر فرنسية. لذا فإن عمله يقتصر على بناء جزائر تسود فيها العدالة والديموقراطية، أو جزائر تحكمها فرنسا، لكن بطريقة غير مباشرة. يمارس التعصب القومي التشنجي الذي يميز الرأي العام الفرنسي في ما يتعلق بالمسألة الجزائرية، ضغطاً على هذا اليسار ويرغمه على اتخاذ جانب الحذر الشديد ويزعزع مبادئه ويجرّه الى اتخاذ مواقف متناقضة وعقيمة.

يعتبر الشعب الجزائري أن اليسار الفرنسي لم يفعل كل ما يلزم بالنسبة لحرب الجزائر. بالطبع، لا نيّة لدينا بإتهام الديموقراطيين الفرنسيين بل لفت انتباههم إلى بعض المواقف التي تبدو متعارضة مع مبادىء مناهضة الاستعمار.

في هذا الإطار، يبدو مُجدياً التذكير بموقف الأممية الاشتراكية بخصوص المسألة. لا أحد يجهل أن المؤتمر الذي عقدته الأممية أدان موقف الوفد الفرنسي بقيادة بينو (Pineau) وأن بيڤان (Bevan) عبَّر، خلال المؤتمر الاشتراكي الذي أجري في تولوز عام 1957، عن خيبة أمله وإدانته الموقف العنصري والاستعماري الذي يتصف به، الفرع الفرنسي للأممية العالمية.

منذ عام 1954 والشعب الجزائري يناضل من أجل الاستقلال الوطني. احتلت أرضه منه أكثر من قرن وهو يريد انشاء أمّة سيدة مستقلة. يجدر باليسار الفرنسي إذاً أن يدعم جهود الجزائريين دون تحفظ أو شرط. فلا وجود أقلية أوروبية ولا ساكامودي من شأنهما أن يخترقا القرار الحقيقي ليسار حازم. لقد رأينا أن الدّعاية التي يروّج لها السيدلاكوست لا تزال تؤكد أن فرنسا في الجزائر تحارب البربرية. يجب على اليسار أن يكتسب المناعة الكافية وألا يقع تحت تأثير هذه الحملات وأن يعمد للمطالبة بإنهاء الحرب والاعتراف باستقلال الجزائر.

ثمة ديموقراطيون يلجأون الى البرهان التالي: إذا أردتم أن نستمر في دعمنا لكم، عليكم إذاً أن تدينوا هذه الأعمال أو تلك.

يذكّرنا هذا بموقف غي موليبه الذي عيَّن، من أجل أن يستمر في حربه، لجنة حماية مهمتها تحديد «التجاوزات» التي تحصل ثمّ يُصار إلى محاكمة العسكريين الذين يرتكبون الأعمال المشينة بصورة علنية وفصلهم عن سائر أفراد الجيش الفرنسي الشرفاء والأشداء وذوي السمعة الحسنة.

مهمّات اليسار الفرنسي

تتوجه جبهة التحرير الوطني إلى اليسار الفرنسي عامة وتطلب

منه في السنة الرابعة للثورة أن ينخرط فعلياً في النضال من أجل السلام في الجزائر.

لا نطالب أبداً بأن يهب الديموقراطيون الفرنسيون وينضموا إلى صفوفنا أو أن يخونوا وطنهم. كل ما نريده أن يواصل اليسار الفرنسي، دون أن يتنكر لأمتّه، لكي تحترم حكومة بلاده القيم التي تداعت الشعوب إلى احترامها وهي: حق الشعوب في تقرير مصيرها والاعتراف بالإرادة الوطنية وانهاء الاستعمار واقامة علاقات متبادلة ومتكافئة بين الشعوب الحرة.

تتوجه جبهة التحرير الوطني إلى اليسار الوطني والديموقراطيين الفرنسيين وتطلب منهم أن يشجعوا كل إضراب يقوم به الشعب الفرنسي احتجاجاً على ارتفاع سعر المعيشة والضرائب الجديدة والحد من الحريات الديموقراطية في فرنسا وهي التبعات المباشرة الناتجة عن حرب الجزائر.

تطلب جبهة التحرير الوطني من اليسار الفرنسي بأن يعزز من عمله في سبيل توعية الجماهير الفرنسية واطلاعها على خصائص نضال الشعب الجزائري والمبادىء التي تحركه وأهداف ثورته.

تحيّي جبهة التحرير الوطني الفرنسيين الذين تحلّوا بالشجاعة ورفضوا حمل السلاح ضد الشعب الجزائري والذين زجوا الآن في السجون بسبب ذلك.

يجب أن تتضاعف هذه الظواهر وأن يصير واضحاً للجميع، وبداية للحكومة الفرنسية بأن الشعب الفرنسي يرفض هذه الحرب الذي تُشنّ بإسمه والمنافية لحق الشعوب في تقرير مصيرها والتي يمارس فيها الاضطهاد بأبشع أشكاله والمناهضة لحركة تحرر شعب يسعى لانتزاع سيادته.

5 ـ ولادة أمة في جزر الأنتيل؟[1]

في الثالث من كانون الثاني/جانفي، اختفت جزر الأنتيل البريطانية لتخلي المكان لـ «فدرالية جزر الهند الغربية» المرشَّحة لتصبح ـ كدولة غانا مثلاً ـ أي دولة تابعة للكومنولث.

حصلت مستعمرة للتوّ على استقلالها الذاتي الداخلي في أرخبيل الأنتيل مع الوعد بالاستقلال التام.

فماذا يعني هذا الحدث بالنسبة لشعوب تنتمي إلى منطقة من مناطق الكرة الأرضية رزحت تحت نير الاستعمار منذ فترة طويلة جداً.

السكَّر الملِك

الأرخبيل الكاريبي الذي يُدعى أيضاً جزر الأنتيل «(نسبة إلى سكانها الأوائل من الهنود الكاريبيين الذين كانوا الضحايا الأوائل لاستغلال البيض في المنطقة) مؤلف من مجموعة كبيرة من الجزر، بعضها كبير وبعضها الآخر صغير تقع بين أميركا الشمالية

(1) المجاهد، العدد 16 الصادر في 15 كانون الثاني/جانفي 1958.

وأميركا الجنوبية وتشرف على المعبر الذي يتصل بقناة باناما وهي صلة الوصل الأساسية بين أميركا الشمالية والجنوبية.

ما يميز هذه الجزر جغرافياً وتاريخياً كونها تقع كلها في مناخ استوائي، وأن أرضها خصبة وصالحة بشكل خاص لانتاج قصب السكر.

عندما اكتشف الأوروبيون أميركا، لم يكن الشمندر السكري معروفاً. أصبح امتلاك هذه الأراضي المُنتجة للسكر مصدراً كبيراً للإثراء وسعت كل قوة أوروبية عظمى أن يكون لها «أنتيلها». نَظَّم المستعمرون الاسبان والانكليز والفرنسيون والهولنديون في مقاطعاتهم زراعة قصب السكر لاستخراج السكر واستغلاله حصرياً لمصلحة البلد المستعمِر.

لكن مشكلة طرأت تتعلق باليد العاملة، لم يستطع الهنود الكاريبيون مواصلة عملهم بسبب الأعمال المرهقة التي كان يطلب منهم القيام بها في المزارع. وأصبح الإتجار بالرقيق الأسود الوسيلة الوحيدة لتوفير اليد العاملة البديلة. شحنت سفن ضخمة أعداداً كبيرة من العبيد الذين تمَّ «استيرادهم» من افريقيا إلى جزر الأنتيل في ظروف مرعبة.

لقرون خلت، كان يجري انتزاع اليد العاملة السوداء من أرضها ويتم بيعها وشراؤها تمهيداً لشحنها وإرغامها على العمل مثل بهائم حقيقية. جنت الدول الأوروبية من هذا العمل أموالاً طائلة بواسطة الملاّك الكبار وأصحاب المزارع البيض والباعة والمستوردين في مرافىء أوروبا.

وهكذا بدا إلغاء الإستعباد في القرن التاسع عشر، في مواجهة النفوذ الخارق لأصحاب المزارع البيض، غير ذي فاعلية لأنه لم يحدث تحسيناً فعلياً في أوضاع العمال السود. بقي السود

عمالاً مزارعين في المزارع ولا تزال أكواخهم الحقيرة مُجاورة للمنازل الفخمة لأصحاب المزارع.

يقول إريك وليامز: «إن إلغاء نظام الاستعباد أبقى المعتَق الجديد تابعاً لسيده وتحت رحمة السكر ـ الملك، كما كان عندما كان عبداً».

«ملوكية السكر» هي الشكل الأنتيلي للاستعمار وهي جعلت من هذه الجزر المزدهرة قديماً إحدى المناطق المتخلفة من العالم.

هذه هي صورة الوضع:

الزراعة الحصرية لمنتوج مُعدّ للتصدير بدل الزراعات القوية؛ غياب التصنيع؛ غلاء المعيشة (لأن كل شيء مستورد من البلد المستعمِر الواقع على بعد 7000 كيلومتر على الأقل من اميركا)؛ تمركز الأراضي بين أيدي بعض الملاكين الكبار المهيمنين على عمالهم وعلى الإدارات؛ بؤس الفلاحين الذين لا يملكون الأرض، والمتروكين للبطالة والذين يزداد عددهم بسبب النمو الديموغرافي الهائل؛ محاولات الهجرة الى الخارج (البورتوريكيون الى الولايات المتحدة والجامايكيون إلى انكلترا) أو التجمع في الضواحي، بالإضافة الى الأمّيّة وسوء التغذية وتدني مستوى الخدمات الصحية.

يزيد هذا البؤس الذي يغرق فيه جميع المستعمَرين تفاقماً تفشي النزعة العنصرية بين السكان وهي عاقبة الاستعباد الأكثر خطراً، مسبّبة الخلافات بين البيض والسّود والخلاسيين، هذا البؤس الذي تصعب محاربته بسبب إذكاء نزعة الخصوصية لدى السكان التي أوجدتها أربعة قرون من الاستعمار.

مستعمرات متجاورة

هذه الجزر التي تتميز بالمناخ نفسه والسكان أنفسهم والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية نفسها، تمت قولبتها على أيدي أسياد مختلفين: الجامايكيون يتكلمون اللغة الانكليزية أو لهجة محلية ترتكز إلى الانكليزية وهم يلتحقون (عندما يقدرون على ذلك) بالجامعات والمعامل الانكليزية ويحاربون النفوذ الانكليزي.

البورتوريكيون، وهم في أكثريتهم من أصل أبيض، شديدو التعلق بلغة مستعمِرهم القديمة أي الإسبانية ويصرون عليها حتى عندما يهاجرون الى اميركا الشمالية.

أنتيليو المارتينيك والغوادلوب يخضعون منذ قرون لسياسة الاستيعاب الغالية على قلب فرنسا التي تميل لتجريدهم كلياً من شخصيتهم الوطنية الى درجة أن بعضهم يجدون أنفسهم موظفين فرنسيين في مستعمرات فرنسا الأخرى.

إذا كان ايميه سيزير (Aimé Césaire) قد تحدث عن «غيتو جزيريّ» بين مختلف الجزر، فهو يعني أن التضامن الأنتيلي المندرج في نطاق الأحداث والذي يشعر به الأنتيليون الأكثر وعياً للأمور، بعيد عن أن يتجسد في الحياة اليومية أو حتى في حركات النضال من أجل التحرر. فكلّ جزيرة يجب عليها أن تعدّ العدّة لمواجهة العدو الرابض على أرضها حتى تتغلب عليه.

في جزر الأنتيل كلها، رافقت حركة التحرر الاقتصادي والسياسي في القرن التاسع عشر نهضة ثقافية ذات أشكال متعددة مهّدت لوعي التاريخ الأنتيلي وردّ الاعتبار للتقاليد الشعبية وإعادة اكتشاف ظواهر العبادة الإفريقية التي شكلت رأس حربة في مقاومة الاضطهاد الغربي والمسيحي («المسيحية الإجبارية»)، وفي حين لم

تتنكر حركة التحرر للاستعباد الذي عاشته في الماضي، تباهت بإنتمائها إلى العرق الأسود.

تتجلى هذه النهضة حالياً بكثير من الحيوية على الصعيد الفكري في هايتي والأنتيل الفرنسية والأنتيل البريطانية حيث تشكل اللغة المشتركة (وهي لغة مزيج من الفرنسية والانكليزية والاسبانية واللهجات الإفريقية وتُسمى «Créole») صلة ووسيلة فضلى للتعبير عن الوعي الأنتيلي.

أما بالنسبة للمطالب التي ترفعها الحركة فهي تشتد وتعنف في موازاة الاضطهاد الاستعماري والاضطهاد العرقي اللذين يزيدان من الاضطهاد الاجتماعي في معظم الجزر.

فيدرالية جزر الهند الغربية، الدومينيون المقبل

في جامايكا، ينتظم عمال صناعة السكر منذ عام 1920 تحت لواء زعيمهم بوستامانت (Bustamante). وفي أعقاب قمع الجيش حركة تمرد عام 1938، ظهر في تلك الفترة حزب سياسي هو «حزب الشعب الوطني» بتحريض من المحامي نورمان مانلي. حزب الشعب الوطني هو الحزب السياسي الأكثر نفوذاً وتجسيداً للوحدة الوطنية. وانضم اليه فرع جديد من النقابة بعدما أصبح بوستامانت ديكتاتوراً ديماغوجياً في نقابته (عيَّن نفسه رئيساً لها مدى الحياة!).

في عام 1954، شكَّل حزب مانلي الأكثرية في البلاد وفي الجمعية الوطنية. وبُوشر في حملة تطهير داخل الحزب اقتطعت منه الجناح الأيسر الذي كان يضم بعض الماركسيين وخصوصاً بعض النقابيين.

منذ ذلك الحين لا يزال نورمان مانلي رئيس حكومة جامايكا يخطو خطوات جدية بإتجاه الإصلاح. حرّض على انشاء فرع نقابي ثالث وأعدَّ لتحولات اقتصادية سطحية بمساعدة الولايات المتحدة في الخارج وأصحاب المزارع «الوطنيين» في الداخل. لكن حزب الشعب الوطني ظلَّ متماسكاً ومتمتّعاً بنسبة تمثيلية عالية. مانلي هو أحد رجال السياسة الكاريبيين الذين «يفكرون على الطريقة الأنتيلية». وهو يعتبر أن الأمة الانتيلية ولدت وأن الفيدرالية الانكليزية مجرد مرحلة. أما المرحلة الثانية فهي الدومينيون الذي سيمهد لنشوء كونفدرالية لكل جزر الأنتيل ثلاثية اللغة. بقي مانلي مستقطباً تأييد الأكثرية في جامايكا لأنه يعبّر عن الوعي الوطني الأنتيلي، وقد تركت فكرة الأمة الأنتيلية الواحدة صدى إيجابياً في نفوس السكان وقبولاً واسعاً في الوعي الشعبي.

وفي ترينيداد، ساهم اكتشاف آبار النفط في ازدهار حركة التصنيع في جزر الأنتيل.

عام 1919، قام عمّال المرافىء بأول حركة إضراب في أعقاب الدعوة التي أطلقها أحد المستوطنين البيض، وتضمنت بعض المطالب السياسية، وهو «الكابتن» سيبرياني (Cypriani) الذي أصبح مختار العاصمة بورت أوف سباين.

عام 1935، عمَّت الاضطرابات البلد مجدداً. وعام 1937، تحولت مسيرة الجوع في بورت أوف سباين الى انتفاضة حقيقية قمعها الجيش الانكليزي. وسرعان ما تمخّضت هذه الحركة عن قيام نقابة بقيادة زعيم نشِط هو بتلر (Butler). واليوم، تحتل نقابة عمال النفط مركزاً هاماً في التنظيم الاقتصادي للجزيرة.

منذ عام 1955 وايريك وليامس ينظّم، على غرار حزب

الشعب الوطني في جامايكا، «حركة الشعب الوطنية» التي حازت في أيلول/سپتمبر 1956 على الغالبية الساحقة من الأصوات في الانتخابات. بالرغم من ذلك أُقصي اريك وليامس وأقصيت حركة الشعب عن السلطة التي كانت أولى مطالبها الاستقلال الذاتي وإجراء الانتخاب العام.

وسرعان ما انتقلت العدوى إلى جزيرة بربادوس إذ كان النموذج الذي قدمته انتفاضة 1937 في ترينيداد مغرياً. نظَّم كليمان باين (Clément Payne) أولى النقابات. في عام 1945، حصلت اضطرابات جديدة وشبَّ حريق في حقل لقصب السكر. واستعادت حركتان كانتا موجودتين منذ الحرب نشاطهما وهما: نقابة قوية جداً لعمال مزارع السكر وحزب سياسي ذو صبغة اشتراكية: حملت الانتخابات غرانتلي هـ. آدامز (Grantley. H. Adams)، وهو محام وزعيم نقابي، إلى سدّة الرئاسة، لكن الاستقلال الذاتي النسبي للجزيرة أرجىء من قبل السلطات السياسية التي لا يزال الحاكم الانكليزي يحتفظ بها مستفيداً من الهيمنة الاقتصادية التي يمارسها أصحاب المزارع البيض.

اليوم، انضوت جامايكا وترينيداد وبربادوس والجزر الصغيرة الأخرى، كلٌ حسب خصوصيتها، تحت لواء الفدرالية، وبادرت انكلترا، متأثرة بالضغط الذي تمارسه عليها قوى التحرر المحلية وخَشيةً من عدوى ماركسية آتية من غويانا الانكليزية (حيث الدكتور جاغان (Jagan) رئيساً منذ عام 1957) للاعتراف بوجود أمة أنتيلية. باتت الطريق نحو الاستقلال ممهدة، وتبقى الكونفدرالية التطلع الذي يصبو إليه الزعيم العمّاليّ المعتدل جداً مانلي والقائد الشاب اريك وليامس.

في الخامس والعشرين من آذار/مارس المقبل تُجرى

الانتخابات العامة للبرلمان الفدرالي على أساس الواقع الجديد الذي آلت إليه الأمور أخيراً.

بقية جزر الأنتيل

ـ هاييتي، وقد نتجت عن انفصال المستعمرة الفرنسية القديمة في سان دومينيك إلى قسمين: جمهورية الدومينيكان الشرقية حيث يتجمع البيض وهاييتي الغربية حيث الملوّنون.

ـ الأنتيل الفرنسية: يرقى التطور السياسي السريع للمارتينيك والغوادلوب إلى عام 1944.

تأثرت الأنتيل الفرنسية بحركة «فرنسا للتحرير» وناضلت لمحاربة النفوذ السياسي ـ الاقتصادي لأصحاب مزارع السكر. كان المطلب الأوّليّ للشعب الذي اقترع للاشتراكي أو الشيوعي العدالة الاجتماعية. ولعب الزعماء لعبة تطبيق نظام المقاطعات.

لا يزال أصحاب المزارع هم أصحاب النفوذ فيما العمال تُدفع لهم أجور متدنية، والقوانين الاجتماعية والمساعدات العائلية أقل قيما مما هي في فرنسا. أما مستوى المعيشة فمرتفع جداً بسبب الاتحاد الجمركيّ الذي يصر على استيراد كل شيء من فرنسا. كما أن الصناعة شبه معدومة والعلم ليس متوافراً للجميع. ثم إنَّ تزوير الانتخابات من جهة وعدم فاعلية النواب الأنتيليين الستة الذين يشكلون أقلية ضئيلة في المجالس الوطنية الفرنسية من جهة أخرى، تجعل الحقوق السياسية الممنوحة مبدئياً للمواطن الفرنسي حقوقاً وهمية.

«صرنا مقاطعات فرنسية وبقينا مع ذلك غارقين في بؤس

فظيع. ليست الهيئة القضائية شيئاً إذاً»، هكذا قال إيميه سيزير ووافقت على ما قاله «الأنتيل الفرنسية» بالطبع.

ـ الأنتيل الهولندية: جزر تتسم بأهمية أقل من الجزر السابقة. زال منها الاستعمار على حد قول الملكة ڤيلهلمين عام 1954. في الواقع، خفت وطأة الاستعمار على السكان المنتمين الى أصول متنوعة جداً والذين يبلغ عددهم 180,000 نسمة، لكنه لم يختفِ تماماً. تتمتع هذه الجزر بالاستقلال الذاتي ويُنتخب أعضاء البرلمان بحسب الانتخاب العام، لكنها تبقى تابعة «للتاج» الهولندي، ولا يزال «حاكم المملكة» يعيّن القضاة والإداريين.

بإتجاه كونفدرالية كاريبية

ها قد رُسمت صورة أولية وسريعة للتطور السياسي الحالي في جزر الأنتيل التي هي على طريق الاستقلال.

يشهد الوعي الأنتيلي الوطني ولادته: فهنا وهناك تحدث تصدعات في الكوادر القديمة، لكن لا تلوح في المدى المنظور بوادر ثورة كاملة ومعمَّمة.

ضمن الوضع الحالي للأمور، يعتبر الزعماء السياسيون أنه من الأكثر تعقلاً أن يبادر كل شعب للحصول على استقلاله في الإطار الذي يوجد فيه بحيث لا تكون فدرالية جزر الأنتيل منجزة بشكل سريع ومصطنع وهشّ بل بحيث تكون كونفدرالية دول بلغت سن الرشد وصمَّمت على أن تسعى إلى الحرية بالتعاون فيما بينها.

بعض الأرقام

الدول المستقلّة:

ـ كوبا: 6,000,000 نسمة

ـ هايتي: 3,500,000 نسمة
ـ جمهورية الدومينيكان: 2,3000,000 نسمة
المستعمرات أو «الممتلكات»
ـ الأنتيل الفرنسية (مارتينيك وغوادلوب خصوصاً)...:
600,000 نسمة
ـ الأنتيل الهولندية (كوراساو ـ 180,000 نسمة
بورتوريكو ـ 2,500,000 نسمة
ـ الأنتيل الإنكليزية 3,000,000 نسمة
جامايكا 1,700,000 نسمة
ترينيداد 800,000 نسمة
بربادوس 300,000 نسمة
جزر الريح وجزر تحت الريح 200,000 نسمة

قصيدة للشاعر جاك رومان، شاعر هاييتي، توفي عام 1945:

ها نحن إذاً
الزنوج
الزنوج القذرون
ما عدنا نقبل
والأمر بسيط محسوم،
بأن نكون في افريقيا
وفي أميركا
زنوجكم

زنوجكم القذرين
ما عدنا نقبل... وهذا ما يثير فيكم العجب
ما عدنا نقبل
بأن نقول
نعم سيدي
ونحن نلّمع لكم أحذيتكم
أو
نعم أبتي
للمرسلين البيض
أو
نعم يا سيد
ونحن نجني لكم
قصب السكر والبن
وفستق العبيد
ما عدنا نقبل
أن نكون في افريقيا وفي أميركا
زنوجاً سذّجاً
زنوجاً مساكين
كما كنّا
ولن نعود كما كنّا.

6 ـ لن يُهدر الدم المغربي عبثاً[1]

مضت سنة وأكثر على إعلان اعتراض الطائرة التي كانت تقل على متنها موفدي جبهة التحرير الوطني إلى المؤتمر المغربي في تونس. كان بالإمكان آنذاك أن نرى في شوارع الجزائر العاصمة أو باريس فرنسيين يتبادلون القبلات مرحاً وابتهاجاً بالنبأ.

وفي 8 شباط/فيڤري من عام 1958، وعشية مجيء الملك محمد الخامس الى تونس بدعوة من الرئيس بورقيبة من أجل التداول بشأن المسألة المغربية، هاجم أسطول جوي قوامه خمس وعشرون طائرة وقصف قرية ساقية سيدي يوسف بحزمة من القنابل والصواريخ ورصاص الرشاشات، مما تسبب في مقتل مئة مدنيّ وجرح أكثر من مئتين وتدمير القرية بشكل شبه كامل.

أثارت الغارات المختلفة للقوات الفرنسية على الأراضي التونسية والتي تسببت في مقتل عشرات التونسيين، موجة عارمة من الاستنكار في صفوف الشعب. إزاء هذه الغارات المتكررة، كان التونسيون والتونسيات يدركون أكثر فأكثر هشاشة الاستقلال الذي سعوا جاهدين إلى الحصول عليه. وهذه الهشاشة تجد

(1) المجاهد، العدد 18، الصادر في 15 شباط/فيڤري 1958.

جذورها أولاً في النزاع الفرنسي - الجزائري، ومن ثمّ في تدخل القوات الحربية الفرنسية وتمركزها في الأراضي الوطنية. طلب الرئيس بورقيبة مراتٍ عدّة من الحكومة الفرنسية مباشرة المفاوضات الهادفة الى جلاء قواتها عن البلاد، وفي كل مرة، كان المسؤولون الفرنسيون يفتعلون أحداثاً ويختلقون أسباباً للتوتر ويُرجئون النقاش حول رحيل الجيش الفرنسي. اقتنع الشعب التونسي إثر أحداث ساقية سيدي يوسف بأن الفرنسيين لا ينوون معاقبته على تضامنه مع الشعب الجزائري فقط بل يأملون أيضاً أن يتخذوا من هذا التضامن ذريعة لكي يعيدوا احتلال تونس مبرهنين مرة أخرى أن المغرب العربي واحد وأنه يجب أن يخضع لهيمنة الامبريالية الفرنسية.

لم يكن التونسيون والتونسيات بحاجة إذاً الى التعبير عن مشاعرهم الغاضبة أو إطلاق الهتافات المعادية أو الإعلان عن تصميمهم على الوقوف في وجه الفرنسيين. لمدة أربعة أيام، وسط هدوء مثير للعجب، اتخذ الشعب الجزائري قرار المواجهة متجاوزاً كل المحاذير والمخاطر التي قد يتعرض لها شعب صمّم على البقاء حراً، وأعلن أن ما حصل في ساقية سيدي يوسف سيكون بداية العدّ العكسي للاستعمار الفرنسي في تونس. مما يعني أن التونسيين، بعد أربعة أيام من التفكير وبعد أن وُضعوا مرة أخرى في مواجهة خيار أساسي، أعادوا التأكيد على عهدهم الذي قطعوه منذ سنوات والذي يقضي باستئصال آخر آثار الاستعمار الفرنسي في بلادهم. ومما يعني أيضاً أن الشعب التونسي وفي مقدمته الرئيس بورقيبة قد أعلن حالة الطوارىء رافعاً الشعار الأساسي والمبدأ الحيويّ الذي يحرّكه اليوم، الا وهو

الجلاء الشامل لقوات المحتلين المستعمرين الفرنسيين عن أراضي الوطن.

لم يجرِ التفكير كما يجب في الكلمتين الأكثر استعمالاً منذ أحداث 8 شباط/فيفري وهما «جلاء»، «الأسلحة». لا يجهل الشعب التونسي أن الفرنسيين لن يتركوا ثكناتهم بملء إرادتهم، وأنه يجب، مرة أخرى، دفع الجنود الفرنسيين إلى البحر.

قيل إن الحواجز التي أقامها الشعب التونسي على الطرقات كانت هشَّة غير محصّنة أشبه بعوائق رمزية وجرى الغمز من جدوى المقاومة بواسطة بنادق الصيد التي يتمنطق بها التونسيون ومن فاعلية الشبان الدستوريين الجدد المجردين من الأسلحة. لم يكفّ الصحافيون الفرنسيون المعتمدون في تونس عن التحدث عن الطابع الواهي والوهمي للإجراءات التي يتخذها الشعب التونسي. لكن هناك برهاناً يثبت أيضاً عدم جدارته في البلدان الاستعمارية ألا وهو البرهان المتعلق بقدرة الاستعمار على تثبيت أقدامه بواسطة أعقاب البنادق والدبابات. منذ وقت طويل أخفقت هذه الحجة النافذة في كل البلدان المستعمَرة.

اتخذ الشعب التونسي تعهداً أمام بلاده وأمام علمه بألا يترك الشارع وألا يرتاح قبل أن يتم جلاء آخر جندي فرنسي عن أراضيه، وهذا الأمر يجب أن يعرفه كل فرنسي. لم يعد ممكناً أن تبقى فرق جيوش أجنبية معادية على أرض الوطن تعرّض نظامه الداخلي للخطر وتقوّض مرتكزاته الوطنية، على الرُّغم من إرادة الشعب.

في فرنسا، تبادل الكثير من الناس قبلات التهنئة. واعتبرت الصحف الفرنسية التي تصدر أكثر من مليون نسخة أن التونسيين نالوا ما يستحقونه «وليذهبْ بورقيبة إلى الجحيم» وأن ما جرى لم

يكن إلا البداية. يجب الاعتراف مع ذلك، أن شيئاً من الانزعاج عمَّ الأوساط الرسمية من خلال ردود الفعل الأولية التي عبّرت عنها بعض الأوساط. فقد أجرى بينو مقابلة شهيرة تردد فيها بين التأييد والاستنكار فيما تذرع غايار بزكام مفاجيء حلّ به.

لكن سرعان ما أخلى هذا التردد المكان لاستعراض مدهش للمواقف العدائية والدعوة للحرب، وهذا ليس جديداً. حمّل غايار أمام البرلمان بورقيبة مسؤولية ما جرى، ولم يتردد بينو عن تهديد تونس بالأسطول الفرنسي في طولون إذا استمر الشعب التونسي في عرقلة تحركات الفرق الفرنسية.

في الجزائر العاصمة دعا الفرنسيون السلطة العسكرية إلى مواصلة الغارات الانتقامية واعتبروا أن الطيران الفرنسي لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين أمام حملات الإساءة والأهانة التي يتعرَّض لها علم بلاده.

لا شك أن هناك أناساً في فرنسا أعربوا عن أسفهم للأحداث التي جرت في ساقية سيدي يوسف، كأن يقال إن ما حصل كان سهواً أو خطأ. وقد أعرب البعض عن شعورهم بإمكانية تجنب ما حصل، فيما أصرَّ البعض الآخر على ضرورة الحرص على عدم إعاقة أعمال الإغاثة التي ينفّذها الصليب الأحمر. وهناك أخيراً من أسفوا صادقين لكن صدقهم لن يغيّر، للأسف، في الأمر شيئاً.

على أية حال، إن ما يطالب به الشعب التونسي ليس الأسف لما جرى فقط. ولا ينادي التونسيون والتونسيات بتعويضات لضحايا ساقية سيدي يوسف. فهناك رجال ونسال وأطفال يسقطون تحت ضربات الاستعمار من أجل أن يحيا المغرب الموحد مستقلاً حراً.

يعبّر قرار الحكومة التونسية بتقديم شكوى بخصوص جريمة ساقية سيدي يوسف إلى مجلس الأمن، عن عمق الإرادة التونسية. الآن، بات واضحاً للرأي العام العالمي بأن الجيش الفرنسي الذي لا يتوانى عن ارتكاب أعمال السلب وتنفيذ المجازر الفظيعة بحق المدنيين، يريد أن يمارس ضغطاً على الحكومة التونسية مهدداً باستمرارٍ مقوّمات الاستقلال الوطني، من هنا، فالأمر يعود الى مجلس الأمن بالبت في شأن احتلال جيش أجنبي لأرض بالرُّغم من إرادة الشعب.

لم يتردد الرأي العالمي في أكثريته الساحقة عن إدانة المجتمع الفرنسي. إلا أن الأميركيين أسرى مواقفهم المانوية المجنونة يرتجفون خوفاً منذ ثمانية أيام، من أن «تغرق» تونس في تيار «الناصرية». ونرى الصحافيين الأميركيين يسألون يميناً وشمالاً عن المخاطر التي ستتمخّض عنها هذا الانقلاب.

يجب أن يعلم الأميركيون بأنهم إذا أرادوا أن يحاربوا الشيوعية، فعليهم أن يتبنوا في بعض الأمور مواقف شيوعية. فالبلدان الشيوعية هي البلدان الأولى التي اتخذت في كل مناسبة القرار بالدفاع عن الشعوب المستعمَرة التي تستعيدها الأمم الغربية. لا تهتم البلدان المستعمَرة بمعرفة ما إذا كان موقف الدول الشيوعية تمليه عليها مصالحها الاستراتيجية. كل ما تريد البلدان المستعمَرة معرفته هو أن هذا الموقف الشيوعي العام يصب في مصلحة تحررها بالذات.

ليست الشعوب المستعمَرة شيوعية بالضرورة لكنها جميعها وبشكل لا يمكن تبسيطه مناهضة للاستعمار.

ولن تختار هذه الشعوب الولايات المتحدة لأنها تخاف من الشيوعية بل عندما يكون موقفها في المسائل الكبرى التي تعصف

بالعالم المعاصر، وبالتحديد في مسائل إزالة الاستعمار، متلائماً مع روح التضامن والانصاف والعدالة الحقة.

لا يعتقدن بعض مرضى القلوب أو العقول أن الشعب الجزائري يبتهج لأن ساقية سيدي يوسف قد قُصفت بالقنابل، فنحن لا نسعى لاستغلال هذا الحدث كما أننا في الأساس لا نطمئن إلى تفاقم الأوضاع وإتجاه الأمور نحو الأسوأ. ونقول إننا تلقينا ببالغ الأسى خبر المجزرة المروّعة التي ارتكبت في ساقية سيدي يوسف.

ليس من الضرورة أن يموت انسان واحد من أجل أن تنتصر الحرية. لكن يحدث أنه يجب تقبل خطر الموت لكي تولد الحرية. إن قلوبنا تدمى حين ترى هذا الكمّ من المجازر والأعمال الشائنة. الشعب الجزائري متأثر عميق التأثر لمأساة ساقية سيدي يوسف مع أنه يتعرض يومياً للغارات التي تشنها قاذفات الـ B-26 الفرنسية.

إن لجنة التنسيق والتنفيذ في جبهة التحرير الوطني قد عرضت على الشعب التونسي أن تحشد لمؤازرته كل الجهود اللازمة لمساعدته في إرغام المحتل الفرنسي على الجلاء عن الأرض التونسية.

نؤكد اصرارنا على هذا العرض، ونعلن للشعب التونسي بأننا متضامنون معه في السراء والضراء وأن الدم المغربي سخي بما فيه الكفاية وأنه يهب نفسه بغزارة من أجل ألا يبقى في الجزائر وحتى سفاكس أي جندي فرنسي يمارس علينا التهديد والعذاب والقتل.

7 ـ الملهاة المتنقلة[1]

منذ ما يقارب الشهرين ونحن نتفرج على المحاولة المجنونة التي يقوم بها الأنكلو ـ أميركيون لتحويل مأساة ساقية سيدي يوسف، وهي امتداد لمأساة الجزائر الكبرى، إلى ملهاة تمتزج فيها البذاءة بالعبث.

بعد أحداث ساقية سيدي يوسف تقدّمت تونس بشكوى ضد فرنسا إلى مجلس الأمن. ثم، في مرحلة ثانية، رفعت الجمهورية التونسية مذكرة إضافية تضمنت تفاصيل المسألة الجزائرية إلى المحكمة الدولية. دفعت مجزرة ساقية سيدي يوسف الشعب التونسي الى تبني خيارات محددة أهمها جلاء القوات الفرنسية عن الأرض التونسية وسحب قواتها من قاعدة بيزرت (Bizerte) وترميم المطارات، وعلى الصعيد الدولي توجهت إلى دول القرار من أجل تدخلها الدبلوماسي لإنهاء النزاع الجزائري.

استغلّ الأنكلو ـ أميركيون الفرصة لممارسة الضغوط على التضامن الغربي واعدين الحكومة التونسية بالحصول من فرنسا على احترامها لكل هذه النقاط شرط ألا تعمد الأمم الشيوعية عبر

(1) المجاهد، العدد 21 الصادر في الأول من نيسان/أفريل 1958.

مجلس الأمن إلى التدخل في «المشاكل الداخلية» لدول شرق الأطلسي.

رأينا لمدة شهرين السيدين مورفي (Murphy) وبيلي (Beeley) يلتقيان ويجريان المحادثات: «نريد تقريب وجهات النظر التونسية والفرنسية». خلال هذا الوقت، كانت الحكومة الفرنسية، بعد أن اهتز توازنها لفترة قصيرة، تستعيد مواقفها المتصلبة وتقرع من جديد طبول الحرب. تواصلت المجازر في الجزائر ووجَدَ الشعب الجزائري نفسه أمام 87 قتيلاً وقرية مدمرة وحواجز لا تشكّل رداً كافياً على المأساة التي حلت به ولا تهدّىء من موجة الغضب العارمة التي اجتاحت الناس.

ألحق رئيس الجمهورية التونسي بعض التعديلات التي اختزلت بعض مطالب الشعب التونسي، لكن، فيما كان رئيس الحكومة التونسية يعلن هذه التنازلات ويوضح حدودها، كان رئيس المجلس الفرنسي السيد غايار يستحدث مطالب تعجيزية أخرى ويطالب بضمانات متشددة مسبّباً الإحراج للشعب التونسي ومعيداً إطلاق التهديدات بتوسيع دائرة العدوان والتهديد والخوف.

بَيْدَ أن هناك نقطة يجدر بنا لفت الانتباه إليها. إنها الواقعة التي استطاع السيد دول (Dulles) التصريح عنها قائلاً: «بعد التنازلات التي قدمتها الحكومة التونسية، الكلمة الآن لفرنسا».

قلنا مراراً إنه من العبث أن نرجو خيراً وننتظر ليونة من جانب الاستعمار. الاستعمار الفرنسي قوة لا تستخدم سوى لغة الحرب ويجب القضاء عليه بالقوة. ليست هناك أي دبلوماسية ولا أي عبقرية سياسية ولا أي مهارة بإمكانها القضاء عليه. بما أنه عاجز عن التنكر لنفسه، فيجب إذاً أن تتحالف القوى الديموقراطية لتحطيمه.

أما بالنسبة لنا نحن الجزائريين فقد استطعنا خلال سنوات

نضالنا أن نخلق على الأرض مجموعة من الحقائق التي دحضت الأكاذيب السائدة تاريخياً ونثبت أن انتصار الديموقراطية ليس حكراً على العالم الغربي فقط، لأن هذا العالم الغربي نفسه يعارض القيم الديموقراطية.

يحاول السيدان مورفي وبيلي، من خلال استغلالهما المفرط لفترات الصمت المطوّلة وتصاريحهما المتفائلة المشبعة بالتناقض، أن يشيعا الفوضى في العالم المناهض للاستعمار. عليهما أن يعلما أن بإمكانهما ربَّما أن يخدعا أناساً كثيرين لكن ليس الشعب الجزائري.

لن يحوِّل السيدان مورفي وبيلي نضال الشعب المغربي من أجل الاستقلال إلى ملهاة.

يجب أن يتخلى الحلف الأنكلو ـ أميركي الذي أوكلت إليه مهمة التحكيم عن كل أمل بالتلاعب بالشعب المغربي على طريقة من يمارس لعبة عرض الدمى.

يبقى أنه يجب على الشعب المغربي والتونسي أن يعارض بحزم مناورات الناطقين بلسان الحكومة الفرنسية الذين أوفدهم العالم الأطلسي.

إن مأساة ساقية سيدي يوسف ومأساة المجزرة الجماعية التي ارتكبها الشعب الفرنسي الغربي والمسيحي في الجزائر، لن تتحولا إلى كوميديا هزلية حيث أيّ إنسان يقول أي شيء، نظراً لأن الكلمة الأخيرة يجب أن تكون «للأقوى».

آن الأوان لتسقط النظرية التقليدية التي تفاخر بقوة البلدان القراصنة وباتت هذه النظرية أشبه بمهزلة.

وإذا كانت فرنسا هي اللاعبة الأساسية في هذه المسرحية المهزلة فإن تكاليف المسرحية ستسدّد من رصيد فرنسا ومن جيوب الشعب الفرنسي.

8 ـ إزالة الاستعمار ثمَّ الاستقلال[1]

منذ أكثر من ثلاث سنوات وفرنسا «صامدة» في الجزائر. صامدة بالشكل الأكثر عناداً وشراسة لدرجة أنه تمَّ استحضار «ذكرى كليمانصو» أكثر مما حدث في الساعات المأساوية من عام 1940.

فقدت فرنسا وجودها في تونس والمغرب، لكنها تشبثت بالأرض الجزائرية، وقد أظهرت استطلاعات الرأي العام الفرنسي، فيما خلا بعض الاستثناءات القليلة، لأسباب مختلفة، تأييداً عارماً ومساندة لا محدودة للجيش الفرنسي ودعوة صريحة إلى مواصلة الحرب في الجزائر وتحذيراً للحكومات من تقديم تنازلات غير مقبولة في الجزائر.

وعلى الرغم ممّا أصاب الدوائر الفرنسية من الشلل جرّاء حرب الجزائر غداة «أرباع الساعة» التي أعلنها لاكوست واضطر إلى أرجائها إلى ما لا نهاية، وعلى الرغم من الأزمة المالية التي عصفت بالبلاد وتنذر بخطر داهم أكثر فأكثر. وعلى الرغم من انقسام أكثرية الأحزاب السياسية حول حرب الجزائر، فإننا نتعجب

(1) المجاهد، العدد 22، الصادر في 16 نيسان/أفريل 1958.

مع ذلك من عدم ظهور أي قوة متماسكة وفعالة بعد انقضاء ثلاث سنوات من الحرب، من شأنها فرض السلام على المستعمِرين الفرنسيين.

ثمة الكثيرون الذين يأخذون علينا نهجنا السياسي المتصلب جداً ويذكروننا بأن هوشي مينه نفسه لم يكف، في الساعات الأكثر مأساوية خلال الحرب في الهند الصينية عن التمييز بين سلطات الاستعمار والشعب الفرنسي. كما يتمثلون بالرئيس بورقيبة وإخوتنا من دعاة الاستقلال لكي يدعونا إلى المصالحة.

بَيْدَ أنه يجب ألا ننسى، خصوصاً أننا جئنا على ذكر الحرب في الهند الصينية، أن القرار بإرسال وحدات من جنود الاحتياط هو الذي تسبب بإسقاط حكومة لانييل (Laniel) وأدى الى تحالف قوات اليسار وتسبب في مؤتمر جنيف.

صحيح أن معركة ديان بيان فو هي التي حسمت الأمر لكن الكتاب الأخير الذي أصدره لانييل والتصريحات المجلجلة التي أعلنها الجنرالات القدامى في الهند الصينية تقول إنه لو أن دعاة الخيار العسكري لم يخونوا الأمة ـ أي لو أنهم لم يعارضوا إرسال المزيد من جنود الاحتياط ـ لكانت الهند الصينية أنقذت وبقيت تحت سيطرة الفرنسيين.

مطالبة بالاستقلال وليس استجداءً

لم تعوّل جبهة التحرير الوطني، ولا في أي لحظة من لحظات نضالها على كرم المستعمِر أو أريحيته أو لطفه. اكتسب المناضلون في الجبهة، من خلال تحول مدهش، ميزة جديدة أثناء النضال وبفضله. واللغة التي استعملتها جبهة التحرير منذ أول يوم

للثورة هي لغة مسؤولة. لم تتوجه الى القوات الديموقراطية الفرنسية بعبارات مُبْهِمَة أو ذات نبرة صبيانية. بل توجَّه مناضلوه لليسار الفرنسي قائلين: «كونوا منطقيين مع أنفسكم. ساعدونا ادعموا القضية التي تحارب الثورة الجزائرية من أجلها». ثمَّ إن الهمّ الدائم لجبهة التحرير القائم على تحرير العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر، أي بين الشعب الفرنسي والشعب الجزائري، من البلبلة التقليدية التي تغرق فيها، جعل العناصر الديموقراطية الفرنسية في مواجهة وضع غير مألوف. لذا، فإن حركتهم الديموقراطية مدعوة لأن تتجسد ليس في جو من الودّ المسهب بل في إتخاذ المواقف العقائدية الحازمة الداعية الى مناهضة حقيقية للاستعمار. ربَّما هذه اللهجة القاطعة التي تستعملها جبهة التحرير قد تُفهم، إذا تعاملنا مع الأمور بشكل سطحي، على أنها تصلب. لذا سمعنا مراراً الديموقراطيين الفرنسيين يخاطبوننا قائلين: «إذا استمريتم في هذه المواقف المتصلبة، فلن يعود أحد يهتم بقضيتكم». إن مثل هذا الموقف من قبل الديموقراطيين مجرّد من كل محتوى ثوري وعقائدي، والسبب أنه يتغذى تحويلاً من مصادر متناقضة قوامها الطيبة حيال المضطهَد أو التعطش للقيام بشيء ما مفيد للآخرين.

يأخذون على جبهة التحرير بأنها لا تعرف كيف تتوجه بخطابها إلى الفرنسيين وأنها لا تقيم اعتباراً لعيوبهم الصغيرة ونرجسيتهم. هذا صحيح ولا شك.

لكن هذه المآخذ تشير إلى أن أصحابها لا يدركون الأهمية البالغة التي توليها جبهة التحرير للحصول على الاستقلال. تهدف جبهة التحرير إلى إزالة استعمار الجزائر وليس إلى تقليم أظافر المستعمِرين.

ما تطلبه جبهة التحرير الوطني هو استقلال الجزائر الوطني. الاستقلال الذي يسمح للشعب الجزائري بأن يأخذ مصيره كلياً في يده.

هذا الهدف بل هذه الاستراتيجية هي التي تتحكم بطريقتنا وتشكل الزخم نفسه لنضالنا.

الاستعمار غير معذور في الأساس

أحدثت الثورة الجزائرية سابقة خطيرة في أساليب النضال من أجل التحرير الوطني. استطاع الاستعمار عموماً، وحتى حين رفضه التاريخ والإرادة الوطنية، أن يفرض نفسه كحقيقة وكقيمة. ليس صحيحاً مع ذلك أن فرنسا قامت بعمل جيد خلال استعمارها الجزائر أو أنها ارتقت بالجزائر إلى ما هي عليه اليوم.

إن انشاء مرفأ مرسى الكبير ومطار للطائرات النفاثة في بوفاريك لا يعزّينا عن المأساة الفكرية والأخلاقية والمادية التي يغرق فيها شعبنا.

لن يشرّع الشعب الجزائري الاستعمار. ليس هناك أي مشروع، مهما كان مذهلاً، بإستطاعته أن ينسينا العنصرية المشرّعة والأمية والذل الماثل في أعمق أعماق ضمير شعبنا.

من هنا، فإن المسألة التي نثيرها في تصريحاتنا لا تتعلق بالتكيف مع الاستعمار أو التخفيف من وطأته بل باسترداد أرضنا. لا شك أنهم يأخذون دائماً على جبهة التحرير الوطني إصرارها الدائم على مقولة الأمة الجزائرية منذ فترة ما قبل بيجو. ذلك أننا بتشديدنا على هذه الحقيقة الوطنية وبجعلنا من ثورة الأول من تشرين الأول/أوكتوبر 1954 استمراراً للمقاومة الشعبية التي كانت

بدأت مع عبد القادر الجزائري، فإننا ننتزع من الاستعمار الفرنسي صفة الشرعية واندماجـه المزعوم في الواقع الجزائري. فبدلاً من أن ننـظر الـى الاستعـمار على أنه ولادة جديدة في التاريخ الجزائري، كان أحرى بنا أن نجعل منه حدثاً تعيساً ومقيتاً لأن المعنى الوحيد الذي يمكن أن يتخذه هو أنه أرجأ بشكل لا يمكن أن نعذره فيه، التطور المتماسك للمجتمع الجزائري والأمة الجزائرية.

«الأمة الناشئة»، «الجزائر الجديدة»، «الحالة الفريدة في التاريخ»... كل هذه الشعارات المضللة أسقطها موقف جبهة التحرير الوطني، ولم يصمد أمام وجه الشمس إلا النضال البطولي لشعب هبَّ بأكمله ضد الاضطهاد القديم.

بين القطيعة مع الماضي الجزائري حيث ثبّت الاستعمار أقدامه لفترة طويلة، وبين الوفاء للأمة المستعبدة مرحلياً، حسم الشعب الجزائري خياره.

ليس هناك كيان جديد ناشىء من الاستعمار. يرفض الشعب الجزائري بأن تطلق على الغاصب المحتل صفة الشريك المعاون. ولم يتعايش الفرنسيون في الجزائر مع الشعب الجزائري. كل ما فعلوه هو أنهم فرضوا سيطرتهم على البلاد بالقوة. من هنا، كان ينبغي منذ البداية أن نشعر الشعب الفرنسي بأهمية مطالبنا.

لم تلعب جبهة التحرير الوطنية على الكلام. قالت إن هدفها الاستقلال وإن أي تنازل لا يمكن تقديمه بخصوص هذا الهدف. أبلغت جبهة التحرير الوطني الفرنسيين صراحة بأنه يجب أن يتفاوضوا مع الشعب الجزائري ويعيدوا له بلاده، كل بلاده.

وقد أوضحت جبهة التحرير الوطني مشروعها منذ البداية: وضع حدّ للاحتلال الفرنسي واستعادة الأرض الجزائرية وإقامة

سياسة ديموقراطية اجتماعية توفّر للرجل والمرأة فرصة تحصيل الثقافة على قدم المساواة وتأمين الرخاء المادي وكرامة العيش للجميع.

إنه لفَردٌ متحرر ذاك الذي يبادر إلى بناء الأمة

إن مثل هذا الموقف يجب أن تكون له انعكاسات مهمّة على مستوى وعي الجزائريين.

إن جميع البُنى التي تسبّب الخبل وتعيق نضج الشعوب وتسيء إلى العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر، وجدت نفسها في النزاع الجزائري مفلسة وعلى طريق الزوال. وفي الوقت الذي وجد فيه المستعمَر نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما: إما التخلي عن كيانه وإما محاولة مجنونة للتعايش مع المستعمِر، فإن الجزائري استطاع أن يجد خياراً ثالثاً وأن يخلق شخصية جديدة إيجابية وغنية تتغذى ليس من امتحان القوى الذي يفرض عليه النهوض بالأعباء التي تفرضها المرحلة فقط بل أيضاً من يقينه بأنه يجسّد لحظة حاسمة من لحظات الوعي القومي.

لا تقتصر المشكلة بالنسبة للمحارب الجزائري على الوقوف في وجه المظليين الجلاّدين، بل هناك مشاكل أخرى أكثر أهمية تدفعه ليتصدى لها، تلك المتعلقة بتشييد الحواجز وبنائها وانشائها (لهذا السبب بالذات، خسر الاستعمار المعركة نهائياً في الجزائر)؛ وعلى مستوى كل ولاية، جرت عملية مسح شاملة، وجُهّزت مشاريع أبنية مدرسية وبوشر في تحويل اقتصاد الحرب إلى اقتصاد سلام.

الجزائري يبني وينظّم ويشرّع ويخطط، من هنا ثقته بنفسه ولهجته الحازمة والحاسمة ومواقفه المتشددة المتماسكة.

نستطيع الآن أن نفهم لماذا يُقال عن الناطقين بلسان جبهة التحرير الوطني إنهم متصلبون لا يساومون. ليست النبرة التي نتحلى بها هي التي تزعج، بل محتوى مطالبنا.

سبق لشعوب كثيرة أن طالبت بإنهاء الاستعمار، لكن لم يسبق لشعب أن بادر إلى وضع حدّ نهائي له كما يفعل الشعب الجزائري.

هذا الرفض للحلول التدريجية، هذا الاحتقار لـ «المراحل» التي تعيق شلال الثورة الهادر وتحطّ من عزيمة الشعب وإرادته التي لا تُقهر بغية الحصول على كل شيء وتغيير كل شيء دفعة واحدة... كل هذه السمات تشكل الطابع الأساسي لنضال الشعب الجزائري.

إن صحيفة «المجاهد» التي تعبّر عن هذا الموقف وتدافع عنه وتسعى الى تعزيزه، تُدخل معطىً جديداً إلى الحوار الكلاسيكي بين المضطهِد والمُضطهَد. لا يؤدي تحرير الوطن حكماً إلى تحرّر المواطن. ولا يمكن تحرير الوطن إلا حين ينتدب المواطن نفسه إلى القيام بتلك المهمة ويمضي بها بشكل لا يرد. إذ ليس ممكناً أن نتخذ مسافة حيال الاستعمار من دون أن نأخذها أيضاً حيال الفكرة التي يكوّنها المستعمَر عن نفسه عبر الثقافة الاستعمارية الانتقائية التي يعتمدها.

يجب أن نقوم بدراسة الأثر الذي أحدثته هذه الثورة على صعيد الوعي الوطني والوعي الفردي. لأنها تسمح بفهم الضياع والخوف اللذين وجد الاستعمار الفرنسي نفسه فيهما في الجزائر.

ابتكار الثورة الجزائرية أسلوباً جديداً في النضالات التي تُخاض من أجل التحرير الوطني.

ثمة ظاهرة ثالثة لا يمكن تحديدها لكنها تؤثّر تلقائياً على العلاقات التي تربط المستعمَرين كافةً بفرنسا، لا شك أن مسار تحرير الشعوب مسار حتميّ. لكن الشكل الذي اتخذه نضال الشعب الجزائري هو من العنف والشمولية بحيث أنه يؤثر بشكل حاسم على النضال المستقبلي في المستعمرات الأخرى.

يختبر الشعب الجزائري اختباراً واقعياً الترابط الداخلي بين الظواهر التاريخية. والقول إن اندحار الاستعمار في بلد معيّن يزيد أو يعجّل بتفكيكه في سائر المناطق بصفته نظاماً، لم يعد تفسيراً لمبدأ مجرّد تلحظه فئات المفكرين فقط.

يعرف الشعب الجزائري كله أن تحرير الجزائر سيفتح الطريق أمام دول أفريقيا السوداء لكي تباشر بمعركتها. ثم أليس صحيحاً أن فرنسا بدأت تشعر أنها مرغمة على اختراع صيغ جديدة نصوّتت على القانون ـ الاطار ثم تجاوزته، وتبادر، على الرغم منها، الى الاعتراف بالسيادة القومية لإفريقيا السوداء؟

لا شك أن هناك رجالاً سياسيين أفارقة لا يزالون أسرى سياسة الفرنسيين، إلا أنهم يحاولون أن يتعاطفوا مع التطور الحتمي للمطالبة بالحقوق الوطنية.

وقد استطاعوا أن يتبنوا حتى الآن وبسرعة كافية المواقف المطلبية المختلفة لشعوبهم. لكن عاجلاً أم آجلاً، سيجدون أنفسهم أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا تصنيفهم في عداد الخونة لشعوبهم في وضح النهار وإما التخلي عن الإغراءات والأوهام التي أوقعهم الاستعمار تحت تأثيرها.

يعلم الشعب الجزائري أن شعوب افريقيا السوداء تتابع بإهتمام وحماسة نضاله ضد الاستعمار الفرنسي. ولا يجهل الشعب الجزائري أن كل ضربة موجهة ضد الاضطهاد الفرنسي في الجزائر تُشتت القوة الاستعمارية وتبعثرها. كل كَمين ينصبه الشعب الجزائري، كل موقع يستولي عليه ويدمّره، كل طائرة يسقطها تبعث الذعر في بنية الجهاز الاستعماري الفرنسي وتعزز الوعي القومي الأفريقي أو المدغشقري أو الأنتيلي.

باتت الشعوب المضطهَدة تدرك الآن أن التحرير الوطني مكتوب في التطور التاريخي لكنها تعرف أيضاً أن هذا التحرير يجب أن يكون المهمة الحتمية التي يضطلع بها الشعب المضطهَد.

إنها الشعوب المستعمَرة التي عليها التحرر من الهيمنة الاستعمارية، والتحرر الحقيقي ليس استقلالاً زائفاً حيث الوزراء ذوو المسؤولية المحدودة يتعايشون مع اقتصاد يهيمن عليه الميثاق الاستعماري.

التحرير هو القضاء تماماً على النظام الاستعماري وتصفيته، بدءاً من التخلي التام عن لغة المضطهِد التي يستعلي بها علينا وتطبيق نظام المقاطعات وصولاً الى الاتحاد الجمركي. فالتحرير هو تحرير العقول من الأوهام التي تبقي المواطن الجزائري أسير ثقافة المحتلّ وعاداته وتطوّراته.

ها قد باشر الشعب الجزائري بكل حزم وحماسة حربه للقضاء على الاستعمار.

لا ننتظر أن ينتحر هذا الاستعمار من تلقاء نفسه لأن منطقه بالذات يحثه على الدفاع عن وجوده بشراسة. على أية حال، هذا الوعي لعجزه عن الاستمرار هو الذي يحدد إنتهاءه كأسلوب احتكاك مع الشعوب الأخرى.

لن يشفى الشعب المستعمِر من عنصريته وثقافته التضليلية إلا إذا وافق على اعتبار البلد الذي أخضعه لسلطته بالعنف أمةً مستقلة بشكل كامل.

وكل تذكير «بالروابط القديمة» أو «بالمصالح المشتركة» الوهمية هو كذب وافتراء.

يثبت الشعب الجزائري منذ ما يقارب الأربع سنوات أن هذا الكذب والافتراء لم يعودا صالحين لتلميع صورة الاستعمار بعد أن انكشفت حقيقته نتيجة الإرادة الصلبة للشعب الجزائري.

9 ـ أزمة مستمرَّة[1]

للمرة الرابعة منذ الأول من تشرين الثاني/نوفمبر 1954 وفرنسا تجد نفسها دون حكومة.

بعد الحكومات التي تولاّها تباعاً إدغار فور وغي موللي وبورجيس ـ مونوري، وبعد الحكومة الأخيرة المسماة «حكومة الاتحاد الوطني» برئاسة فليكس غايار، ها إن أزمة جديدة تنشأ أو يُجمع الكل على وصفها بالخطيرة للغاية.

بالطبع، لا أحد يجهل اليوم أن حرب الجزائر هي السبب الرئيسي في عدم الاستقرار الحكومي هذا في فرنسا. على أية حال، يجب أن نحاول إدراك التطور الداخلي لهذا المنعطف الذي أدَّى إلى حالة انعدام الاستقرار. كما يجب تسليط الضوء على التدمير والتفكك اللذين أصابا هيبة السلطات الفرنسية وقد انتقل أثرهما من داخل فرنسا إلى خارجها بسبب هذه الحروب الاستعمارية بالذات.

لا بدَّ أن تحليل الوضع يسمح لنا بتقييم وقياس هذه الحتمية الداخلية التي تتآكل فرنسا وتجرّها بطريقة شبه آلية إلى مواجهة

(1) المجاهد، العدد 23 الصادر في 5 أيار/ماي 1958.

الأزمات المتلاحقة والانغلاق على ذاتها في جوّ من التأزم الخانق.

أضحى القول إن حرب الجزائر تستنفد الأموال وتخلّ بتوازن الاقتصاد الفرنسي تصريحاً بحقيقة غير خافية على أحد. لكن يخطىء من يعتقد أن الأمور قد بلغت في فرنسا مستوى من الشفافية يمكنه أن يمنح امتيازاً لهذه الحقيقة. استطعنا أن نكتشف، في معرض السجالات التي جرت في الجمعية الوطنية الفرنسية عن تكاليف العمليات في الجزائر. وفيما الخبراء العالميون يقوّمون الاقتصاد الفرنسي مقدرين النفقات بثمانمئة مليار فرنك فرنسي، إذ بالسيد لاكوست يعلن بجدية تامة أن حرب الجزائر لا تكلف شيئاً.

أما الأحزاب اليسارية التي تقع أسيرة لموقف عقائدي تبسيطي للأمور يدفعها الى التفاوض مع اليمين ما أن يُدعى للمساهمة في النفقات، فقد وجدت نفسها مرغمة على الانصياع بانتظار أن يأتي اليوم الذي يقرر فيه هذا اليمين أن يتخلى، لدى تيقنه من أن مصالحه باتت مهددة، عن تعصبه القومي فيقترع لصالح جميع الحركات الاستقلالية في المستعمرات المرغوبة.

كنا أشرنا مرات عدة إلى أن هذه الطريقة الميكانيكية في التفكير والانصياع الأعمى للواقع وكأنه قدر محتوم يجعل اليسار الفرنسي يستجيب لمطالب السلطة بصورة آلية بعيداً عن كل مراجعة أو جدل.

يُلقي هذا الضعف الإيديولوجي الذي يتميز به قسم كبير من الهيئات السياسية الفرنسية الضوء على النزاع المستفحل في الجسم السياسي الفرنسي منذ الأول من تشرين الثاني/نوفمبر 1954. فالحزب الراديكالي سُحق منذ مؤتمر ليون التاريخي والحزب

الاشتراكي تظهر في أوساطه الميول الأكثر تجانساً، والحركة الجمهورية الشعبية كشفت لتوّها عن تناقضاتها من خلال رفضها الراهن بأن تدعم محاولة بيدو (Bidault). حتى الحزب الشيوعي لم يكن بمنأى، رغم بنيته المتراصة، عن الاختلافات والانقسامات فيما يتعلق بحرب الجزائر. إن كلاً من هذه الأحزاب، وفقاً لمعطياته الذاتية، يعاني عدم التماسك في مواقفه وعنف نزاعاته الداخلية وخلافاته الأساسية.

التناقضات الأوروبية

يكمن الخطأ الأسوأ في أن نعزل هذا التفكك في بنية الحياة السياسية الفرنسية عن السياق الأوروبي والدولي.

إن الأمم الأوروبية وخصوصاً ايطاليا وانكلترا وألمانيا الغربية، ولأسباب تتعلق بالمنافسة الاقتصادية في أوروبا أو بأسواق تريد الاحتفاظ بها في أفريقيا، تشعر بضرورة أن تتخذ موقفاً عدائياً ضمنياً من الحروب الاستعمارية التي تتفرد بها فرنسا.

لاذ الشعب الإيطالي، إذا أردنا أن نأخذ ايطاليا على سبيل المثَل، بالصمت لفترة طويلة حيال دعم حكومته للحرب الاستعمارية الفرنسية. لكن، بعد أن نبّهته الهيئات الديموقراطية الإيطالية فقد تحرَّك منذ بضعة أشهر وطالب بشكل حاسم ألا تدعم الحكومة الايطالية الاستعمار الفرنسي.

كذلك في ألمانيا الغربية، لا تجرؤ أي صحيفة ألمانية على تأييد السياسة الفرنسية. وقد أتيحت الفرصة أمام الهيئات الدبلوماسية الفرنسية العاملة في ألمانيا أن تلاحظ مرات عدة،

وبشكل يومي، أن مجموع الشعب الإلماني يدين الاستعمار الفرنسي ويُظهر تعاطفه مع الشعب الجزائري الظافر.

أما في انكلترا فبدأ المحافظون الذين كانوا تضامنوا لفترة طويلة مع المستعمِرين الفرنسيين بإنعطافة في مواقفهم ولا تبدي صحفهم حرجاً في إعلان هذه المواقف المطالبة بضرورة التفاوض مع الشعب الجزائري.

يعود هذا التغير في المواقف إلى نشوء ديموقراطيات عربية تدعو إلى قيام تيار مناهض للاستعمار وليبرالي أكيد، لكنه يعود خصوصاً، ولا يفيد إخفاء ذلك بشيء، إلى الرغبة في رؤية فرنسا مرتدة إلى بعدها الأوروبي فقط، منقطعة عن مستعمراتها، محرومة من نظام الامتيازات التي أقرّها الميثاق الاستعماري، ومهتمة أخيراً بمواجهة المنافسة الحرة مع الاقتصاديات الأوروبية الوطنية الأخرى. ضمن هذا المنظار الثاني، يبدو أن عبارة أخرى ستحل مكان عبارة «افريقيا الأرض التي تحظى برعاية فرنسا»، وهي «افريقيا، الأرض التي تحظى برعاية أوروبا».

التناقضات الغربية والضغوط الدولية

تُنمّي الولايات المتحدة، في مواجهة العالم الشيوعي، سياسة افريقية تلتقي في أسسها مع المواقف الأوروبية الجديدة، فالديموقراطيون الأميركيون، عندما يعبّرون عن مواقفهم من استعمار القارة الافريقية يلحّون على الادارة الأميركية بعدم تبنيّ وجهة النظر الفرنسية الاستعمارية.

تستند النقطة الأساسية في هذه المحاجّة إلى أن «فرنسا تشوّه من خلال وجودها في افريقيا صورة الغرب والانسان الأبيض».

ومع ذلك، ثمة عاملان آخران يهيئان الظروف لنشهد هذا التحول التدريجي في الموقف الأميركي، أولاً، هذا اليقين الحاد، ما وراء الأطلسي بأن الساعة حانت لاتخاذ مواقف حاسمة من أجل دعم الشعوب المستعمَرة في نضالها من أجل الاستقلال، والمساهمة بالتالي في تفكيك الأمبراطوريات الاستعمارية ودعم الشعوب المضطهَدة. ثانياً، الوعي المتزايد لدى الولايات المتحدة من الخطر الشيوعي في إطار الحرب الباردة وتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ، والضرورة الملّحة للالتزام بالمواقف المعارضة راديكالياً للاستعمار الفرنسي.

من الأهمية بمكان الإشارة أيضاً على الصعيد الدولي، إلى الحماسة الهائلة التي تثيرها الثورة الجزائرية في البلدان الأفرو-آسيوية والملحمة الحقيقية التي يعيشها الشعب الجزائري منذ ما يقارب الأربع سنوات.

بندونغ، القاهرة، آكرا، وكل الشعوب الأفرو - آسيوية، كل مضطهَدي الأمس، كلهم يحملون لواء القضية الجزائرية ويدافعون عنها ويتبنون مواقفها. وليس من المبالغة اطلاقاً القول إن قارتين تقفان ضد فرنسا في الجزائر.

تجد الأحزاب الفرنسية السياسية نفسها، بسبب عدم تحليلها لهذه العوامل المتعددة والتناقضات الجدلية، في وضع حائر وفي حالة غليان انفعالي من دون سبب معين يثيره وفي حالة قلق وحالات أخرى تذكّر بسلوكيات ناتجة عن عملية تدمير ذاتي.

جو متأزم

إن رفض اتخاذ موقف سياسي متماسك في فرنسا من قضية الجزائر لا يعني الهيئات السياسية فقط.

ففي داخل كل حزب، نستطيع أن نلاحظ اليوم وسَطاً ويميناً ويساراً. وعلى مستوى الجماهير الشعبية أو الهيئات الخاصة كالكنيسة، يسود جوّ من الاستياء والمرارة واليأس. ليست هناك جمعية أو تجمع لرجال أو نساء إلا تجد نفسها معنيّة مباشرة بتطور الحرب في الجزائر، مما سبَّب انشقاقات في جمعيات الطلاب وفي صفوف المعلمين واضطرابات في الجيش وصرخات التحذير من قبل الكرادلة واستياء في أوساط الشرطة. تؤشر هذه الظواهر من خلال عددها وخطورتها للضياع الذي يسود الحياة الأخلاقية والسياسية في فرنسا.

إن إرادة التحرير لدى الشعب الجزائري تتعارض، بشكل لا يرقى إليه الشك والأسطورة التي تقول بأن الجزائر فرنسية. ليس هذا فقط بل هناك من جهة إلى أخرى إدانة لنموذج معين من التصرف وأسلوب معين من الاحتكاك الفكري. معركة الشعب الجزائري هي نقد جذري للحق الزائف في الملكية: افريقنا السوداء، جزائرنا... وهي في الوقت نفسه إنذار خطير للشعب الفرنسي لكي يقوم بنقده الذاتي ويتحرر من هذه الذهنية الاستعمارية المناهضة للديموقراطية والعنصرية، أي بإختصار لكي يعيش في حياته متجاوزاً المغالطات التي ترسَّخت في ذهنه عبر التاريخ.

نضال الشعب الجزائري، مصدر الحقيقة

بَيْدَ أن الضياع الذي يطغى حالياً عل الحياة الأخلاقية والسياسية في فرنسا لن يُفهم إذا لم نربطه جدلياً بالحقائق الدولية ونضال الشعب الجزائري.

إن الانتقادات الحاسمة التي وجّهها السيناتور كنيدي والمواقف العميقة المناهضة للاستعمار التي عبَّر عنها العمال الانكليز وبطريقة أعم، إن الموقف الحاليّ للدوائر الرسمية الأميركية، كل ذلك يعبّر عن ظاهرتين: أولاً الاعتراف والقبول بالمسار التاريخي والعام لتحرير الشعوب المستعمَرة، وثانياً اليقين المكتسب بعد طول تحليل بأن الشعب الجزائري ألقى بكل ثقله في المعركة وأننا لا ندرك حقاً كيف أن فرنسا قادرة على عدم الاعتراف باستقلال الجزائر.

لم تتراجع شعبية لاكوست في العالم وفي الرأي العام الفرنسي لأنه يقود حملة القمع ويبرر الاغتيالات الجماعية بل لأن الجيش الوطني الجزائري الذي لا يُقهر أسقط القناع عن كذب لاكوست فافتضح أمره وظهر على حقيقته أمام الملأ، وهكذا تمّ إرجاء «أرباع الساعة» التي تحدث عنها إلى ما لا نهاية. ثم إن هذه النشرات الكاذبة عن النصر الكامل والتصريحات الكيفيّة والخداع، كل ذلك يفسّر البلبلة التي تُثار حول اسمه والنابعة من ازدواجية مواقفه. فاليسار يدينه لأنه يتعارض مع سياسة اليسار، واليمين يدينه أيضاً لأنه لم يفِ بوعوده ولم يتحقق السلام في الجزائر ولأن الوضع العسكري يزداد خطورة يوماً بعد يوم.

بالإمكان القول إذاً إن الأزمة الفرنسية السياسية موجودة، ليس لأن الآراء تتضارب أو لأن المفاهيم المتعلقة بفهم العالم تختلف بل لأن فضيحة الاستعمار التي كشفتها إرادة التحرر التي تحرّك الشعب الجزائري تهز الأوضاع السائدة المستقرة والمسلّمات وتجعل الأمة الفرنسية تعيد النظر كلياً في مواقفها وتطلعاتها.

لا تتطور الأزمة الفرنسية في مكان مغلق. إنها ليست أمة تفكير خالص. بل هي ناتجة عن أن الشعب الفرنسي يعيد النظر

من جديد بنظام القيم لديه ويعيد بناءه في خضم الممارسة الأكثر مأساوية.

لقد فرض الشعب الفرنسي على الشعب الجزائري من خلال تكثيف نشاطه العسكري تضحيات جساماً، لكن التطور الجدلي لهذه المعركة أحدث بالمقابل خطّة أيديولويجة في فرنسا وأظهر الحقيقة الجلية التي لا يرقى اليها شكّ وهي أن الجهود التي تقوم بها فرنسا منافية للتاريخ والأخلاق والحس الانساني.

إنها المعركة الشرسة المعاندة والبطولية للشعب الجزائري التي أظهرت الى الوجود معاني جديدة فتخطت بعض التناقضات وجعلت ممكناً ما كان بالأمس في خانة المستحيل.

أثارت التصريحات التي أدلى بها بيدو (Bidault) في الفترة التي سبقت تكليفه بتشكيل الحكومة الغضب والاستياء، والسبب لا يعود إلى أنها صيغت بشكلٍ ما بل لأنّه يبدو ظهر بمظهر من لا يفهم شيئاً مما يجري حوله ولا يتابع الأحداث. بدا وكأنَّه منقطع عن التاريخ أو كأنه يعيش خارج الزمن، هذا الزمن الجديد وهذه الشروط الجديدة المميزة التي أوجدها تحديداً كفاح الشعب الجزائري ونضاله.

إن نضال الشعب الجزائري هو الذي أحدث هذا التغير في الحياة السياسية الفرنسية، فأعيدت صياغة وجهات النظر السياسية الفرنسية بفعل الاحتكاك مع هذه الإرادة الوطنية الجزائرية والشراسة التي تبديها في المطالبة بالاستقلال.

ثم إن الضغوط الأوروبية قد فعلت فعلها، لأنه إذا كانت افريقيا قد ضاعت بالنسبة لفرنسا فهذا لا يعني بالضرورة أنها ضاعت بنظر أوروبّا، وهناك أيضاً الضغوط الدولية لأن الخطر الشيوعي الذي يهدد بأن ينتشر في أفريقيا اذا استمرت مجموعة

الدول الغربية في صمتها الطويل الذي يشبه التواطؤ حيال النزعة الفرنسية المُحبَّة للحرب. وهناك أخيراً ضغوط الشعب الجزائري وهي العنصر الأكثر فاعليةً في هذه الجدلية والأكثر صدقاً. هذه العوامل الثلاثة تحاصر الواقع الفرنسي تفعّل التناقضات التي قام عليها البلد المستعمِر وتكشف القناع عنها عن هذا النظام الاستعماري العنصري ذي الطروحات العقائدية الديموقراطية المتناقضة.

ليس صحيحاً أن هذه المواجهة يمكنها أن تختفي بسحر ساحر. ليس صحيحاً أنه يمكن إحراج أميركا وايطاليا، ليس صحيحاً أن «بينو» يستطيع، اذا طالبَ بذلك ثم أن يحصل على دعم حلف شمال الأطلسي، وليس صحيحاً أن منديس ـ فرانس يستطيع، بقليل من الإرادة الطيبة أن يُبعدَ صلته بموريس أو أن يتآخى أندريه فيليب مع مولليه. ليس صحيحاً أن مدرسة أركان الحرب التي يتزعمها بيجار يمكنها أن تضيف شيئاً جديداً إلى واقع الحرب في الجزائر. كل هذه المستحيلات تشكل الظواهر السلبية لواقع متفاقم وهو أن فرنسا تغرق في جو من الأزمة ـ الفاجعة ولن تخرج منه إلا بالتفاوض مع جبهة التحرير الوطنية.

10 ـ رسالة إلى الشبيبة الأفريقية[1]

يقود الشعب الجزائري منذ أربع سنوات معركة شديدة الشراسة ضد الاستعمار الفرنسي. ولا يمكن التغاضي عن الجهود الهائلة التي قامت بها فرنسا للإبقاء على نفوذها في الجزائر. ومن الثابت أن جبهة التحرير الوطني هي التي قادت النضال وواجهت حرب إعادة الغزو الفرنسية مواجهة مباشرة.

توجهنا مرات عدة إلى البلدان الاستعمارية عموماً وبدا لنا أنه من الضروري أن نشير إلى سقوط بعض المعطيات القديمة وبروز طروحات غير متوقعة إطلاقاً.

لم نتوقف عن القول منذ ثلاث سنوات أن الثغرة التي انفتحت في جدار النظام الاستعماري الفرنسي جراء تحرير الهند الصينية وتونس والمغرب زعزعت البنية التحتية لهذا النظام. لكن يجب ألاّ نغرق في الأوهام فالوحش الاستعماري لا يزال جبّاراً.

يتعرض العالم الاستعماري منذ خمس عشرة سنة إلى سلسلة من الانتكاسات تشتد شراسة بين الحين والحين، والصرح المتصدع بات على وشك الانهيار. لا أحد يعترض اليوم على أن

(1) المجاهد، العدد 24، الصادر في 29 أيار/ماي 1958.

بداية العد العكسي للنفوذ الاستعماري تشكّل العلامة الفارقة لفترة ما بعد الحرب العالمية. إن المسار التاريخي الذي وُلد من التناقضات العديدة الملازمة للنظام الرأسمالي والذي حرّكته ديناميكية الارادة الوطنية للشعوب المضطهَدة، هو في أساس ولادة الدول المستقلة.

رسمت الشعوب المستعمَرة مصيرها بنفسها من خلال كل حركة وكل ثورة أشعلها المضطهَدون وقادوها حتى النهاية. وفيما يتعدى التضامن الضروري مع الناس الذين يناضلون على كل شبر من الأرض من أجل الديموقراطية واحترام حقوق الانسان، فقد فرض القرار الحازم للشعوب المستعمَرة نفسه بقوة غير معهودة. هذا القرار الذي ينص على أن تسعى للاعتراف بوجودها الوطني بالذات وللاعتراف أيضاً بالدول الأخرى إخوتها دولاً مستقلة وحرة وسيدة.

منذ سنوات عدة وتاريخ العالم ومن ضمنه تاريخ نضال الناس من أجل استعادة كرامتهم يطرح على الشعوب مسائل محددة. الناس الذين تضطهدهم أمم أجنبية وتستعبدهم مدعوون اليوم للمشاركة تماماً في العمل على تدمير النظام الاستعماري. وليس مُبالغاً فيه القول إنه اذا كانت الدول التي حققت استقلالها الوطني تراوح مكانها دون أن تتخطى تناقضاتها فالسبب يعود إلى أنَّ كل مسيرة جديدة بإتجاه التطور والتقدم تفترض تحرير الإرادة الشعبية داخل هذه المستعمرات والتضامن بين المضطهَدين.

يجب على الشعوب المضطهَدة أن تلتحق بالشعوب السيّدة لكي يصبح بالإمكان تشييد مفهوم إنساني ذي قيمة وذي أبعاد كونية.

منذ عشر سنوات، بدا واضحاً الواجب المترتب على كل

مستعمَر: تدمير الصرح الاستعماري المشيّد على الأرض الوطنية ودعم نضال الشعوب الأخرى المستعمَرة بشكل فعّال.

إن حرب التحرير التي يخوضها الشعب الجزائري كشفت عودة النظام الاستعماري وأظهرت مدى التعفن الذي وصل إليه نبدا بديهياً أن أزمة عامة ستنشأ جراء ذلك.

ونحن، تحسباً لهذا التحول الممكن ولهذه الاعادة المحتملة لطرح المسائل، كنا توجهنا لمرات عدة إلى مندوبيكم في المجالس البرلمانية الفرنسية والى زعمائكم النقابيين.

منذ ثلاث سنوات لم نتوقف عن دعوة مندوبيكم إلى محاصرة الوحش الاستعماري والضغط عليه لإرغامه على التخفيف من قبضته المحكمة على المستعمرات. منذ ثلاث سنوات لم نتوقف عن شرح المسائل وعرضها على مندوبيكم والقول لهم بأنه تجب المساهمة في بذل الجهود لتحطيم الأمبراطورية الفرنسية لا سيَّما وأن الشعب الجزائري يقود على أرضه حرباً مفتوحة ومتعاظمة وشاقة ضد الاستعمار.

ندين للحقيقة بأن نقول لكم إن مندوبيكم الواقعين تحت تأثير استلاب خطير جداً قد عارضوا دوماً مساعينا وفرضواعلينا ضرورة احترام شرعية الجمهورية الفرنسية.

بَيْدَ أن هناك ثلاث نقاط على الأقل مشتركة فيما بيننا:

أولاً، إنّ أممنا بالتناوب محتلة عسكرياً ومستغلة اقتصادياً وصامتة ثقافياً منذ أن خفق فيها العلم الثلاثي الألوان.

كل اندفاع يهدف إلى التعبير عن النفس ملائم للتاريخ ووفيّ لتقاليد شعبنا ويستمد قوته من حيويّة أرضنا، يصدّه المستعمِر ويلجمه ويخنقه في مهده.

ثانياً، إن اسلوب الميثاق الاستعماري يكرّس استغلالاً متعدد

الأبعاد لأراضي الاتحاد الفرنسي، ويُفترض بنا جميعاً أن نرفضه رفضاً قاطعاً. ليس كافياً القول إن فرنسا تحتل أرضنا الوطنية بل هي قوة استيطانية وقحة لم تخشَ أن تصيغ تشريعاً كاملاً وقانوناً كاملاً يلغي جوهر وجودنا الوطني لصالح النظام الفرنسي.

وثالثاً، إن ارادة الاستقلال تحرّك شعوبنا الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي. وهذه الإرادة يجب أن تشكل الرد الوحيد على هذا الاستعمار. عندما نتوجه للشعوب المستعمَرة وتحديداً للشعوب الإفريقية فهذا لأنه علينا الاستعجال لبناء افريقيا التي تريد التعبير عن نفسها وتحقيق ذاتها، افريقيا التي تُغني عالم البشر بوجودها والتي تغتني من الإضافات التي يقدمها العالم لها. وهذا أيضاً لأنه الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الهدف ألا وهو تحطيم هيكل الاستعمار الذي يتسم بالجنون المطبق والشراسة والهمجية المطلقة.

إن جميع حركات تحرير الشعوب المستعمَرة مرتبطة في الوقت الحالي، أياً تكن الأمم التي تحتلها، بوجود الاستعمار الفرنسي.

فـ «الأمبراطورية الفرنسية»، من خلال امتدادها وتوسعها، لا تزال تتمتع اليوم ببعض الأبّهة وبثبات نسبي. ثم أن شراسة الاستعمار الفرنسي واحتقاره للأخلاق الدولية وبربرية القطيعة تشكّل حافزاً لاستمرارية البلدان الاستعمارية الأخرى وتزيد من تصلبها.

يا شبيبة البلدان المستعمَرة.

يجب أن تعرفوا أن مستقبل وجودكم الوطني وقضية حريتكم واستقلالكم مرتبطان بما يحصل الآن في الجزائر.

ليس صحيحاً كما يدعي بعض «البرلمانيين»، الذين ينتمون

إلى البلدان المستعمَرة والمتمركزين في المجالس التمثيلية الفرنسية، بأن حرب الجزائر تشجّع على المضيّ في مسار ازالة الاستعمار وأنه بالتالي يكفي أن نستغلَّ فقط على الصعيد البرلماني المصاعب التي تواجه الاستعمار حالياً وفي الجزائر خصوصاً.

صحيح أن القانون ـ الإطار الذي تمَّ الاقتراع عليه تحت ضغط حرب الجزائر أدى الى التخفيف من شدة القبضة التي تُحكمها الدول المستعمِرة على بلدان افريقيا، لكننا نعتبر أنه من الخطير جداً أن نعلّق أهمية على هذا «التطور»، اللهم إلا أهمية كاريكاتورية.

ما تريده المستعمَرات ليس «البادرة الطيبة» التي يضن بها السيد المستعمِر بل تحديداً القضاء على هذا السيد. من جهة أخرى، وفي الإطار نفسه لهذا التطور، من الشائع أن نلحظ سوء النية للإداريين الفرنسيين وامتعاضهم حيال الجزء البسيط من الحرية المعطى لـ «الزنوج» واستياءهم من هذا الطعن في مشاعر الاستعلاء لدى الانسان الأبيض. كما هو جدير بالإشارة إليه هنا التصرف المضحك الذي يدفع بعض برلمانيي المستعمَرات إلى التهديد باستدعاء الإداريين الفرنسيين المعادين للقانون ـ الإطار.

لو أن هؤلاء البرلمانيين قاموا بتحليل صحيح للاستعمار الفرنسي بعد بلوغ حرب الجزائر سنتها الرابعة لأدركوا أن هذه «النية السيئة» ليست واقعة فردية تتعلق ببعض الأشخاص فقط بل تعبيراً شاملاً عن استعمار لا يزال متشدداً حيال كل موقف تحرري مهما كان بسيطاً، وأن كل شيء في فرنسا يجري بإتجاه الحدّ من أي تطور للبلدان المستعمَرة ومن أي طعن في الميثاق الاستعماري.

ما يحدث اليوم في فرنسا وفي الجزائر هو الدليل الساطع

على سوء النوايا الذي يحكم العلاقة بين الإداريين الفرنسيين وأبناء الجزائر.

يا شبيبة البلدان المستعمَرة!

منذ أربع سنوات ولا نكفّ عن الترداد لهؤلاء الذين يتوزعون في المجالس التمثيلية الفرنسية بأن الاستعمار لن يختفي بسحر ساحر وأنه من العبث أن نأمل باختفاء تدريجي له.

لن يرحم المستقبل هؤلاء الناس الذين يتمتعون بهذا الامتياز الاستثنائي أي بالقدرة على أن يقولوا لمضطهِديهم الحقيقة لكنهم يلوذون بالصمت ويكتفون بموقف يتسم بالسكونية واللامبالاة والتواطؤ البارد أحياناً.

أجرى السيد هوفوية ـ بوانيي، وهو نائب افريقي ورئيس التجمع الديموقراطي الإفريقي؟؟ R.D.A مقابلة منذ بضعة أيام في إحدى الصحف. بعد كلام سخيف عن التطور المنشود لافريقيا التي يطوّقها العلم الثلاثي الألوان، تطرق الى المسألة الجزائرية ولم يتردد عن التأكيد بأن الجزائر يجب أن تبقى في الإطار الفرنسي.

جعل هذا الرجل من نفسه، منذ أكثر من ثلاث سنوات عميلاً مشبوهاً للاستعمار الفرنسي. هوفوية ـ بوايني يشارك في كل الحكومات ويتحمل بالتالي مباشرة المسؤولية عن سياسة الإبادة المعتمدة في الجزائر.

على يمينه لاكوست وعلى يساره موريس وشابان ـ دلماس، يعتمد هوفوية ـ بوانيي سياسة لا تُغتفر أغرقت الأمة الجزائرية في الحداد وأعاقت لسنوات طويلة تطور بلادنا.

جعل هوفوية ـ بوانيي من نفسه الوكيل المتجوّل للاستعمار

الفرنسي ولم يخشَ الذهاب إلى الأمم المتحدة للدفاع عن الموقف الفرنسي.

هوفوية ـ بوانيي دكتور في الطب وكان وزيراً للصحة في عهد غايار، وخلال وجوده في الحكومة حصلت مجزرة ساقية سيدي يوسف. آنذاك، دُرزت سيارات الاسعاف التابعة للصليب الأحمر بالرصاص وقُصفت النساء والأطفال بالحديد والنار وتناثرت أشلاؤهم تحت وابل الطائرات الفرنسية.

لم يخشَ هوفوية ـ بوايني الطبيب والوزير أن يطالب باستمرار البربرية ويعلن تضامنه مع الجنود الفرنسيين.

هوفوية ـ بوانيي، بصفته وزيراً مخلصاً للجمهورية الفرنسية، اعتبر أن من واجبه أن يوافق على ما حصل في ساقية سيدي يوسف ويهنّىء الجيش الفرنسي البطل ويدعم الضغوط التي مُورست على الحكومة التونسية انطلاقاً من موقف تضامني وزاري مع الاستعمار الفرنسي.

قد يكون شيئاً مشرّفاً أن يتوصل مستعمَر لأن يصبح عضواً في الحكومة الفرنسية في الأيام المجيدة للاستعمار الفرنسي. وهذا الشرف الذي لا يرتّب على صاحبه تحمّل المسؤولية أو ركوب المخاطرة، هذا الرضى الصبياني بأن يكون المرء وزيراً أو أمين سر دولة، بالإمكان أن يُغتفر إذا لزم الأمر.

بَيْدَ أنه منذ عشر سنوات لم يعد محتملاً ولا مقبولاً أن يوافق الأفارقة على المشاركة في حكومات البلاد التي تهيمن عليهم.

ويُفترض بكل مستعمَر يوافق اليوم على تقلد منصب حكومي في حكومات الاستعمار أن يدرك أنه عاجلاً أم آجلاً، سيترتب عليه أن يبارك سياسة القمع والمجازر والاغتيالات الجماعية التي تمارس في غير منطقة من مناطق «الأمبراطورية الفرنسية».

عندما يقدر مستعمَر مثل هوفوية ـ بوانيي على تناسي أو تجاهل عنصرية المستوطنين وبؤس شعبه والاستغلال المخجل لبلاده. عندما يتنصل من المشاركة في الاندفاعة التي تحثّ الشعوب المضطهَدة على المطالبة بتحررها. عندما تُعطى بإسمه، كل السلطات إلى اشباعه بيجار وماسو؛ عندئذٍ، يجب ألا نتردد عن التأكيد في أن موقفه خيانة وتواطؤ وحشيّ على الجريمة.

يا شبيبة افريقيا ومدغشقر والأنتيل، إن جنود أوطانكم المتطوعين عنوة في صفوف الجيش الفرنسي، التحقوا بحماسة بصفوف جيش التحرير الوطني الجزائري، وهم يخوضون اليوم، جنباً الى جنب، مع المواطنين الجزائريين نضالاً بطولياً ضد العدو المشترك.

تتوجه جبهة التحرير الوطني التي تقود معركة الشعب الجزائري اليكم وتطلب منكم أن تضغطوا على أعضاء البرلمان لكي تجبروهم على التخلي عن مراكزهم في المجالس الفرنسية.

حانت الساعة لكي يشارك جميع المستعمَرين وبشكل فعّال في حرب الاستنزاف التي تخوضها الأمة للقضاء على المستعمِرين الفرنسيين.

حيثما كنتم، يجب أن تعرفوا أن الوقت قد حان لنا جميعاً لكي نوحّد جهودنا ونوجّه الضربة القاضية للاستعمار الفرنسي.

يا شبيبة افريقيا، يا شبيبة مدغشقر والانتيل، يجب علينا جميعاً أن نحفر القبر الذي سيُدفن فيه الاستعمار إلى الأبد.

11 ـ حقائق أولية
تتعلّق بالمسألة الاستعمارية[1]

لن يكون القرن العشرون، على المستوى العالمي، عهد الاكتشافات الذرية فقط أو الاستكشافات ما بين الكواكب. ما يميز هذا القرن خصوصاً والخضّة التي يشهدها هي، بلا منازع، تلك التي يحدثها نضال الشعوب من أجل استرداد أراضيها.

لقد أُرغم المستعمرون، وقد حثتهم المطالبة الوطنية الصادرة عن مناطق هائلة الاتساع، على إرخاء قبضتهم. على أية حال، إن ظاهرة التحرر الوطني انتصار حركات الاستقلال الوطني وتراجع الاستعمار عن مواقفه المتشددة؛ كل هذه الظواهر لا تتخذ شكلاً واحداً. لكن مستعمَرة قديمة طريقتها الخاصة لكي تتوصل الى تحقيق الاستقلال. وكل دولة استعادت سيادتها مجدداً تجد نفسها عملياً أمام ضرورة إنشاء علاقات محددة ومميزة مع المضطهِد القديم.

تقرر الأحزاب التي تقود النضال ضد الاضطهاد الاستعماري، في مرحلة من مراحل المعركة، أن تقبل وفقاً

(1) المجاهد، العدد 27، الصادر في 22 تموز/جويليه 1958.

لموقف تكتيكي بجزء من الاستقلال على أن تدفع شعبها من جديد وبشراسة للنضال في إطار الاستراتيجية الأساسية الداعية إلى الجلاء الكامل لقوى الاستعمار عن أراضي الوطن والاسترداد الفعلي والشامل لكل الثروات الوطنية. هذا الأسلوب الكلاسيكي الذي تجسّد مرات عديدة معروف اليوم. بالمقابل، توجد جدلية معارضة لم تشرّع، على ما يبدو، الانتباه الذي تستحقه.

العقبة الأولى:

«حقوق» المحتلّ القديم

منذ بضعة عقود، كان بإمكان الحكام المستعمِرين أن يستعرضوا بلا حدود الاهتمامات العظيمة التي تظهرهم كقوى تحمل التحضر للشعوب التي تستعمرها. كانت التجاوزات المرتكبة بإستمرار وكان انتزاع الملكيات من أصحابها واستغلال العمال والبؤس الفائق الذي يغرق فيه الشعب... كل هذه الأشياء كان يجري تمويهها ونفيها بشكل تقليدي. فيما بعد، وحين دقت ساعة الانسحاب من هذه الأراضي، أُجبر المستعمرون على اسقاط أقنعتهم. كانت المسألة الأولى التي طرحت على جدول المفاوضات المتعلقة بالاستقلال، مسألة المصالح الاقتصادية للمستعمِر: المصارف والمنطقة النقدية والسماح بالتنقيب عن الثروات الطبيعية وامتيازات الاستثمار وحصانة الأملاك التي صودرت من الفلاحين أيام الاحتلال...، إلخ. لم يعد يجري الكلام على المهمة الحضارية للمستعمِر أو التبشيرية أو الثقافية. يُفترض حان الوقت للبحث في الأمور الجدية وليس في الترهات.

بمثل هذه المواقف أن تزيد من وعي الناس المناضلين في مناطق أخرى من العالم.

جرى تحديد الحقوق الفعلية للمحتل بشكل تام. أما الأمور المتعلقة بالأقلية المتحدة من المتروبول والبعثات الجامعية والمساعدة التقنية وأواصر الصداقة التي تمَّ التأكيد عليها مراراً في الماضي وأعيد التأكيد عليها في الحاضر، فجاءت في المرتبة الثانية. المهم، باتت واضحة مسألة الحقوق الفعلية التي ينوي المحتل انتزاعها من الشعب ثمناً لاستقلال منقوص أو مشروط.

إن الموافقة على سيادة إسمية والرفض المطلق للاستقلال هما ما يميزان ردة الفعل النموذجية للأمم المستعمِرة حيال مستعمراتها القديمة. الاستعمار الجديد (النيوكولونيالية) مشبع ببعض الأفكار التي تصنع قوّته وتهيّىء لمرحلة اهترائه اللاحقة في آن واحد.

عندما يخوض الشعب نضاله للتحرر، لا تكون الأشياء واضحة في وعيه تماماً، فمعركته التي تقوم في آن على رفض اللاوجود السياسي والبؤس والأمية وعقدة النقص التي يبثها الاضطهاد عن سابق وعي وتصميم، هي معركة ذات استراتيجية ثابتة لا يمكن أن يطرأ عليها أي تعديل للاستعمار الجديد يستغل لصالحه هذا التردد الذي يُظهره الشعب، فيتسلح هذا الاستعمار بلباقة ثورية واستعراضية مبادراً للاعتراف بكل شيء للمستعمَرة القديمة. لكنه، باعترافه هذا، ينتزع من الشعب تبعية اقتصادية تُصوَّر على أنها برنامج مساعدة وإرشاد.

رأينا في معظم الأحيان أن هذه المحاولة تنجح. لكن هذه المرحلة تتميز بأنها قصيرة نسبياً. والسبب أنه يلزم الشعب القليل من الوقت لكي يدرك أن شيئاً جوهرياً لم يتغير. وبعد أن تنقضي

ساعات النشوة والحماسة أمام مشهد العلم الوطني خافقاً في الهواء، يتنبّه الشعب إلى أن هدفه الأساسي من الاستقلال هو توفير الخبز والملبس والمسكن.

بما أن الاستعمار الجديد يقترح أن يعيد للكرامة الانسانية حقها، فإنه يتوجه أساساً للبورجوازية ومثقفي البلد المستعمَر. لذا، لم تعد الشعوب تطمئن اليوم إلى علاقة الودّ التي تنشأ بين السلطات الاستعمارية وبين التحتية من أبناء الشعب. ما تلحّ عليه هو أن يتنبّه المثقفون الى هذه الخدعة ليستعيد النضال عنفه وضراوته وحدّته.

في هذه المرحلة الثانية، ينفش المحتل ريشه ويزجّ بكل قواه في المعركة، ما انتُزع بقوة السلاح يجري التفاوض بشأن إعادته إلى ما كان عليه فتبدو الأمور وكأنها نتائج صادرة عن المفاوضات الحرّة. فيبادر المحتل القديم متذرعاً بواجباته ويشن حربه من جديد على بلاد مستقلة حديثاً.

إن جميع المستعمرات القديمة ابتداءً من أندونيسيا مروراً بمصر وانتهاءً ببناما، التي حاولت أن تندّد بالاتفاقات المنتزعة بالقوة، وجدت نفسها مجبرة على شنّ حرب جديدة عندما رأت سيادتها مطعونة ومبتورة.

فالحقوق الشهيرة للمحتل وابتزازه لماضي الحياة المشتركة وعمله على إطالة عمر الميثاق الاستعماري هي الأسس الثابتة لهجمة تُشنّ على السيادة الوطنية.

العقبة الثانية: مناطق النفوذ

إن العمل على إبقاء المستعمرات القديمة رازحة تحت نير الاضطهاد الاقتصادي ليس موقفاً سادياً بالطبع. ليس الأمر صادراً

عن خبث أو عن سوء نية. السبب هو أن استعادة الشعوب المستعمَرة حقها في التمتع بخيراتها الوطنية يهدد التوازن الاقتصادي للمحتل القديم. إن تحويل الاقتصاد الاستعماري إلى اقتصاد وطني وإن انقطاع تدفّق المواد الأولية من أراضي المستعمرات التي يرتكز عليها اقتصاد العالم الغربي واختفاء الميثاق الاستعماري وكذلك المنافسة مع الرساميل الأجنبية، كل ذلك يشكّل خطراً مميتاً على الإمبريالية.

تتداخل ها هنا المسألة المهمّة المتعلقة بمناطق النفوذ بالنسبة لأمم كانكلترا وفرنسا. تخوض هذه البلدان التي تلتقي حول هدف مشترك هو تدمير القدرة على النضال الوطني لدى الشعوب المستعمَرة، معركة ضارية للاستيلاء على الأسواق الدولية، وتعطي المعارك الاقتصادية التي تجري بين فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة في الشرق الأوسط والشرق الأقصى والآن في افريقيا فكرة عن الوحشية والهمجية اللتين تميزان الإمبريالية. ليس مبالغاً فيه القول إن هذه المعارك هي السبب المباشر للاستراتيجيات التي لا تزال تخلّ اليوم باستقرار الدول المستقلة حديثاً. ففي الظروف الاستثنائية، تتحول مناطق نفوذ الليرة الاسترلينية أو الدولار أو الفرنك لتصبح ضرباً من المراوغة التي يمارسها العالم الغربي.

رفع البترول العراقي كل المحظورات وجسّد المشاكل الحقيقية، لا تزال حاضرة في ذاكرتنا التدخلات العنيفة للقوات الأميركية المسلَّحة في أرخبيل الأنتيل أو في أميركا اللاتينية، ما أن وجدت الديكتاتوريات المدعومة من السياسة الأميركية نفسها في خطر. فالمارينز الذين يتدفقون الآن على شواطىء بيروت هم الإخوة لهؤلاء الذين سيعيدون «النظام» الى هاييتي وكوستاريكا وبناما. ذلك أن الولايات المتحدة تعتبر أن الأميركتين عالم

تحكمه عقيدة مونرو وعُهد بتطبيقها الى القوات الأميركية. والمادة الوحيدة لهذه العقيدة تنص على أن اميركا ملك للأميركيين وكل مقاطعة منها تابعة للدولة الأميركية.

بما أن أسواق أميركا غير كافية، فإنه يتحتم على أميركا أن تتجه الى مناطق أخرى وخصوصاً الشرق الأوسط والشرق الأقصى وأفريقيا. إنها منافسة بين وحوش ضارية، وقد ابتدعت أميركا وسائلها في هذه المعركة: عقيدة ايزنهاور لمحاربة النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط، دعم نفوذ دن ديام لمحاربة فرنسا في الهند الصينية وإرسال لجنة اقتصادية لمساعدة دول افريقيا لمناسبة زيارة الرئيس نيكسون لمحاربة فرنسا وانكلترا وبلجيكا هناك.

كل صراع من أجل التحرير، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار مناطق النفوذ.

الحرب الباردة

تدخل هذه الاستراتيجية التنافسية للأمم الغربية في الإطار الأوسع لسياسة الكتلتين، الشرقية والغربية التي ترمي بثقلها على العالم منذ عشر سنوات ملوّحة باستخدام الخطر الذريّ المدمّر. ليس صدفة أن نجد وراء كل مطالبة وطنية لشعب مُستعمَر دعماً أو لفتة من جانب موسكو. ذلك أن كل مشقة تواجه التفوق الغربي في جزء من العالم يشكّل طعناً ملموساً لنفوذه الاقتصادي ولاتساع قواعده الاستراتيجية العسكرية وحدّاً من طاقته.

تُعتبر كل معارضة لحقوق الغرب على بلاد مستعمَرة وكأنها إضعاف لقدرة العالم الغربي وتعزيزاً لقدرة العالم الشيوعي.

تشكّل اليوم جزيرة قبرص التي لا تملك ثروات خاصة بها

ويبلغ عدد سكانها بالكاد نصف مليون نسمة، موضوعاً لخلافات عنيفة بين القوى العظمى، حتى إنّ الحلف الأطلسي، هذه المنظمة التي أوكل إليها ايقاف الغزو السوفياتي، متورط إلى حد خطير في المشاكل المطروحة حول المسألة المتعلقة بجزيرة قبرص.

الكتلة الثالثة

أدخل الموقف الذي اتخذته بعض البلدان المستقلة حديثاً والتي صمّمت على البقاء خارج سياسة الكتلتين بعداً مميزاً في توازن القوى الذي يشهده العالم. الدول التي التزمت الحياد الإيجابي واللاتبعية هي التي تشكّل القوة الثالثة. أدركت البلدان المتخلفة التي تستيقظ من كبوتها، كبوة الاستعباد والاضطهاد أنَّ من واجبها أن تبقى خارج دائرة الدولة الداعية الى الحرب لكي تتمكن من أن تكرّس نفسها لانطلاقتها الاقتصادية ومحاربة الجوع والاعلاء من شأن الانسان فيها.

ما لم يفهمه الغربيون في الحقيقة هو أن حسّاً ومفهوماً إنسانياً جديداً يولد اليوم وتولد أيضاً نظرية جديدة عن الانسان تضرب جذورها في الانسان نفسه ولا تريد شيئاً آخر إلا الانتصار الكامل لهذا الانسان. من السهل أن نصف الرئيس نهرو بالحائر لأنه يرفض أن يلتحق بالأمبريالية الغربية أو أن نصف الرئيسين ناصر وسوكارنو بأنهما عنيفان عندما يسعيان الى تأميم الشركات أو يطالبان بإسترداد الأجزاء الأخرى من الأراضي التي لا تزال تحت الهيمنة الخارجية. ما لا نلحظه هو أن الثلاثمئة وخمسين مليون هندوسي الذين تذوقوا مرارة الجوع الذي أغرقتهم فيه الإمبريالية الانكليزية يطالبون اليوم بالخبز والسلام والرخاء. ثمَّ إن

الفلاحين المصريين أو الصبية الأندونيسيين الذين كانوا يشكلون مادة أساسية في الأدب الغربي الأكزوتيكي، يطالبون اليوم بأن يقرروا مصيرهم بأنفسهم رافضين أن يكونوا مجرد ممثلين أبديين في بانوراما جامدة.

سحر الغرب ونفوذه

نقارب هنا مسألة سيكولوجية قد لا تكون أساسية طبعاً لكنها تدخل في التركيبة الجدلية التي تتنامى حالياً. الغرب، وهو نظام اقتصادي مرجعي أي اضطهاديّ، يعتز أيضاً بفوقيته الانسانوية. يجد «النموذج» الغربي نفسه مطعوناً في جوهره وفي غائيته. ها إن الآسيويين والعرب والزنوج يسعون اليوم لأن يعلنوا مشاريعهم ويريدون أيضاً التأكيد على قيمهم وتحديد علاقاتهم بالعالم. ذلك أن رفض الانصياع للواقع السياسي القائم لا ينفصل عن رفض الانصياع للواقع الاقتصادي والثقافي. لم يعد صحيحاً أن الإعلاء من شأن القيم يجب أن يمر بغربال الغرب. ليس صحيحاً أنه يجب علينا أن نكون دائماً منقادين وأن نتبع أياً كان. يجب أن تعرف كل البلدان المستعمَرة التي تخوض معركتها اليوم أن الاستقلال السياسي الذي ستنتزعه من العدو مقابل الابقاء على تبعية اقتصادية ليس إلا خدعة، وأن المرحلة التالية للتحرير الشامل ضرورية لأن الجماهير الشعبية متعطشة إلى بلوغها. ويجب أن تكون هذه المرحلة، كونها أساسية وجوهرية، عنيفةً وضارية ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار الاستراتيجية الدولية للتكتلات لأن الغرب يواجه في الوقت نفسه مشكلة مزدوجة: الخطر الشيوعي وظهور تكتل محايد تمثله أساساً الدول المتخلفة.

كل إنسان يقيم اليوم، انطلاقاً من صيرورته، علاقات وثيقة الصلة ببقية الكون. من أجل هذا، يجب على الشعوب المستعمَرة أن تضاعف من يقظتها ومن قواها الذاتية. إن انبثاق انسانوية جديدة يوازي هذا الثمن بحيث ألا نترك للذئاب فرصة افتراس النعاج وهي منعزلة. يجب عرقلة مساعي الأمبريالية من كل المحاولات التي تقوم بها للتعزيز من قوتها. هذا ما تريده الشعوب وهذا ما يوجبه المسار التاريخي.

12 ـ درس كوتونو[1]

«يتبنى المؤتمر شعار الاستقلال المباشر مصمّماً على اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتعبئة الجماهير الافريقية تأييداً لهذا الشعار لكي تترجم الوقائعُ إرادة الاستقلال هذه».

بهذه العبارات اختُتم اعلان الحرب الذي وجهته شعوب افريقيا السوداء من كوتونو إلى الحكومة الفرنسية وعلى رأسها الجنرال ديغول.

سبق لجهاز الأمن الذي أقرّه القانون ـ الاطار في شهر أيلول/سبتمبر من عام 1957 أن انهار في باماكو. وكان لا بدَّ للخائن هوفوية ـ بوانيي وشركائه أن يتراجعوا أمام الحشود الزاحفة للمطالبة بالحقوق الوطنية في افريقيا.

رفض الإفريقيون في باماكو القانون ـ الإطار ورفضوا معه اللامسؤولية التي وسمهم بها الاستعمار.

في باماكو، تحطم قفل الأمان في افريقيا السوداء. وانطلقت كوتونو في الطبيعة لخوض النضال الطويل للتحرير الذي سينال بفضله أكثر من ثلاثين مليون افريقي الاستقلال.

(1) المجاهد، العدد 28 الصادر في 22 آب/أوت 1958.

نتذكر البهجة التي سادت الأوساط الفرنسية بعد التصويت على القانون ـ الإطار. حينها تمَّ التأكيد على أنّ فرنسا اتخذت المبادرة وفاءً منها لتقليدها العريق وسبقت الشعوب إلى التجاوب مع الدعوات المطالبة بالاستقلال. بَيْدَ أن المراقب الملمّ بأمور افريقيا السوداء يعرف تماماً أن قانون ديفير (Deferre) لم يكن إطلاقاً على مستوى طموحات الجماهير الإفريقية.

إن العمال الأفارقة والطلاب الأفارقة يحتويهم البرلمانيون الأفارقة منذ بضع سنوات ويلجمون تحركهم.

منذ 1947 والاستعمار في افريقيا السوداء يدين في ديمومته الى الخيانة الشائنة لبعض النخب الإفريقية.

منذ عام 1947 والنقابيون الإفريقيون يطورون عملهم بإطّراد وكانوا منذ لعام 1953 قد قاموا بخطوات مدروسة وفقاً للتطلعات الوطنية الصرفة.

إن الحركات النقابية البعيدة عن كل خبرة أو تجربة سابقة والمنطلقة من تصور مزدوج يقوم على أفرقة الكوادر والتأميم أي الاستقلال قد طبقت النضال ضد الاستعمار الفرنسي بطابع جديد كلياً.

إن الاتحاد العام لعمال افريقيا الشمالية U.G.T.A.N الذي يمد شباكه على مجمل البلاد يخنق تدريجياً الوحش الاستعماري. أما الاستعمار فيستعد، إزاء العمال الذين يطالبون بتأميم الشركات والأملاك وتطبيق الاشتراكية، للنهوض من صدمته وتطويع قراصنة جدد بهدف الدفاع عن الحضارة الغربية في افريقيا السوداء.

من جهته، شرع الاتحاد الفدرالي لطلاب افريقيا السوداء، منذ سنوات عدة، في عمله البروباغندي الشامل ففضح التضليل الحالي ورفع شعارات واضحة. لذا، انقضَّت شرطة الخائن

هوفوية ـ بوانيي على المسؤولين من الطلاب. كذلك فإن شرطة المدن الجامعية في فرنسا، وبناءً على طلب من الوزير هوفوية ـ بوانيي، طاردت طلاباً من افريقيا السوداء واعتقلتهم وعذّبتهم.

ألغيت منح جامعية ومورست ابتزازات واعتقالات ومنعت صحيفة الاتحاد الفدرالي للطلاب من الصدور... عمليات كثيرة جزت ونُفذت بأمرٍ من بوانيي. وأكثر من ذلك، لم يتم استخدام الطلاب المعارضين في أفريقيا السوداء لسياسة الخيانة التي يتبعها بعض القادة في R.D.A كموظفين في المجالس الحكومية وجرى استبعادهم بناءً لتعليمات المسؤولين التي تبعث على السخرية، لكن، بالرغم من هذه الأعمال البوليسية وبالرغم من تدابير التخويف، فإن طلاب افريقيا السوداء في كوتونو اكّدوا، عبر صوت رئيسهم، قرارهم الحازم بالانتقال الى العمل المباشر وانتزاع الاستقلال الوطني بقوة السلاح.

أتيح الوقت للسيد ديفير، الذي ارتبط اسمه بهذه المهزلة السياسية الليبرالية، بأن يتأمل ملياً في «تنكّر» الأفارقة لخدماته: كان الاستعمار الفرنسي يأمل، من خلال القانون ـ الإطار، أن يعقد اتفاقية تقيه لعشرين سنة آتية فيروس الحركات الوطنية. كان القانون ـ الإطار يكرّس رسمياً انقسام القارة الإفريقية ويزرع هنا وهنالك مجالس حكومية. كما خلق مناطق اقتصادية تنافسية. إن المركزية ووحدة الأراضي وبناء الدولة والاندماج الاقتصادي للبلاد أخلت المكان للبلقنة المقيتة لإفريقيا السوداء.

إن الخطأ الذي اقترفه هوفوية ـ بوانيي وشركاؤه هو أنه لم يأخذ بعين الاعتبار الضربة القاضية التي يوّجهها الشعب الجزائري للأمبراطورية الفرنسية مقلقلاً دعائمها الجبارة.

يجب أن يلقى الاستعمار الفرنسي حتفه في الجزائر، وهذا

لأنه يتشبث مستميتاً، بأرض يحتلها بشكل يتنافى مع الحس السليم. وسيلقى حتفه، سينهار النظام الإمبريالي الفرنسي برمته مع انتصار القوات المسلحة لجيش التحرير الوطني ونهاية الحرب في الجزائر.

ليس قرار كوتونو مهماً لأنه وضع الاستقلال التلقائي نصب عينيه بل بسبب العبارات التي استخدمت والتي تفترض تحقيق هذا الاستقلال، وأيضاً بسبب محتواها الاجتماعي وهذا الوضوح في استعمال مفاهيم الاشتراكية والتأميم والوحدة التقدمية. يؤكد كل ذلك أن الأفارقة لا يطالبون باستقلال شكلي فقط.

ليس ما نشهده في كوتونو تطوراً للفكر الإفريقي فحسب بل تحولاً أساسياً يفضي الى استلام الشعب زمام المبادرة الفعلية في بلاده.

منذ كوتونو والاستعمار الفرنسي مصاب بالصدمة والبُكم.

لكن، يجب ألا ننسى أيضاً أن الثورة الجزائرية مشتعلة في افريقيا منذ أربع سنوات. إن ثورتنا تُلهم على نطاق واسع الحركات الوطنية التي تقوم بها الشعوب الإفريقية الأخرى. منذ أربع سنوات والشعب الجزائري يحطّم كيان الاستعمار في افريقيا، ومن البديهي الاعتراف اليوم بأن عدداً معيناً من الدول المستقلة في 1958 لم تكن كذلك لو لم يوجِّه الشعب الجزائري ضربات لا تحصى الى الاستعمار الفرنسي.

إن حكومات غي موللیه وبورجيس ـ مونوري وغايار وبفيملان وديغول (منقذ فرنسا، الذي تحوّل من مناصر خجول للفاشية إلى فاشي حقيقي) هي التي تؤرّخ للأحداث المتنوعة التي أثارتها في فرنسا المواجهة بين الإرادة الوطنية للشعب الجزائري وإرادة الاضطهاد الاستعماري للحكومات الفرنسية.

إن التطور الذي شهدته الحياة السياسية الفرنسية منذ عام 1954 بدءاً من الاشتراكية ـ الديموقراطية التي تتنكّر لأبسط مبادئها وانتهاءً بالديكتاتورية الفاشية العسكرية هو انعكاس لما فرضته تطورات النضال الجزائري والمآثر البطولية للشعب الجزائري.

لذا، لن يكون من الآن فصاعداً أي تردد في صفوف الجماهير الإفريقية بل تكاتف وثيق على مستوى المطالبة التلقائية والشاملة بالاستقلال.

لا شك أن الاستعمار الفرنسي إلى إعداد ردّ ملائم على الطموحات الوطنية الإفريقية التي تمَّ التعبير عنها في كوتونو. يعتبر بعض المراقبين أن ديغول سيجد حلاً وسطاً بين القانون ـ الإطار والاستقلال.

تعتبر جبهة التحرير الوطني، بعد تحليل للوقائع ونظراً للمصاعب التي تسببها لفرنسا في الجزائر والتي لا تستطيع السلطات الفرنسية تجاوزها، أن الشعوب الإفريقية الواقعة تحت نير الاحتلال الفرنسي، يجب ألا تتراجع بل أن تُظهر بحزم وعنف أن زمن اعتماد الحلول المبهمة ولّى الى غير رجعة.

فرنسا محاصرة ويجب محاصرتها أكثر فأكثر وقطع كل المنافذ أمامها لا بل خنقها دون رحمة والقضاء على كل رغبة لديها في الهيمنة مهما تكن خافتة. في عام 1958، لم تعد فرنسا قادرة لامادياً ولا سياسياً ولا اقتصادياً ولا انسانياً على الشروع في حرب في افريقيا السوداء.

من أجل هذا، يجب على الشعوب الإفريقية أن تمضي قدماً وأن تضاعف من ضغوطها وتطالب حالاً باستقلالها. يجب على الجماهير الإفريقية والنخب الإفريقية أن تعدّ العدة منذ الآن لكي

تنتقل إلى العمل المباشر فتحمل الأسلحة وتبعث الرعب في صفوف المستعمِرين.

إن جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني مستعدان من جهتهما لمساعدة الشعوب في نضالها التحرري. لن تجرؤ الإمبريالية الفرنسية بعد رحيلها من الجزائر على البقاء في افريقيا.

يجب أن يُرفع اليوم شعار:

«يا شعب افريقيا، يا شعب افريقيا، إلى السلاح! الموت للاستعمار الفرنسي!».

13 ـ نداء إلى الأفارقة[1]

عندما رأى الجنرال ديغول خلال جولته ما وراء البحار، لزاماً عليه أن يوضح، حيال اندفاعة الجماهير الإفريقية، مفهوم الاستفتاء بشأن الأراضي الواقعة تحت الهيمنة الاستعمارية، اعتقد اليسار الفرنسي والرأي العام الدولي أن هذا التصريح هو الترجمة الواضحة لما اتفق على تسميته ليبرالية رأس السلطة الفرنسية.

ما أن انقضت ساعات المفاجأة الأولى حتى توجبت العودة فعلاً إلى النصوص والحقائق، إذاً إلى الامكانيات الملموسة المطروحة أمام شعب افريقيا السوداء.

يُدرج الجنرال ديغول، بفضل عملية الاستفتاء مصير «الممتلكات الفرنسية» في مسار غير محدد في ظلّ حالة من التدجين المقبول طوعاً من الطرفين. لكن فلنتساءل أولاً ما هو الردّ الذي يقدمه الاستفتاء ليواجه به الطموحات الوطنية الإفريقية؟

ذلك أن الاستعمار الفرنسي يواجه بجيشه وشرطته وأولياء نقمته التقليديين تدعمه جمعيات محلية فقدت خطوتها بين الجماهير ومتواطئة معه على نطاق واسع.

---

(1) المجاهد، العدد 29، الصادر في 17 أيلول/سبتمبر، 1958.

إذا كانت المجالس الحكومية في بعض الدول قد التزمت بالموقف الداعي الى المطالبة بالاستقلال الوطني، فإن الاستعمار الفرنسي استطاع، في معظم الأحيان أن يكفل لنفسه دعم رجال السياسة الأفارقة.

إن الأفارقة الذين يطلبون من مواطنيهم المشاركة في الاستفتاء على ديغول و «الاتحاد الفرنكو ـ افريقي»، يظهرون جهلاً كبيراً بالمشاكل المتعلقة بإزالة الاستعمار وتجاهلاً عن سوء نية بالطموحات الوطنية للشعوب الإفريقية.

المشاركة في التصويت هي التعبير عن رأي في انتخابات تتعلق بمسائل فرنسية بحتة. وهذه المشاركة تضفي طابعاً شرعياً على هذا «الوفاق الفرنسي» الذي تحوّل حتماً إلى «إتحاد فرنكو ـ افريقي»، وتستلب الشخصية الإفريقية وتؤدي إلى ذوبانها في شخصية المحتل كما ينص عليه الدستور.

المشاركة في الاقتراع هي الاعتراف الضمني بأننا أفراد في العائلة نفسها والأمة نفسها وأن لدينا مشاكل مشتركة، فيما الحقيقة تقول إن كل إفريقي يصوّت للاستفتاء، يربط شعبه أكثر فأكثر بسلاسل الاستعمار الفرنسي.

إن الحضور الهائل للقوى العسكرية والبوليسية الفرنسية في افريقيا السوداء واضطراب رجال السياسة المتواطئين وتصريحاتهم ودعواتهم لشعبهم للاستعجال بالإقتراع الإيجابي وكل الأساليب المألوفة في تزوير نتائج الانتخاب لا تترك أي مجال للشك في مجال الاستفتاء المقترح اجراؤه في أفريقيا السوداء. كما هو جدير بالإشارة إليه أنه في عدد معين من الدول سيجري الاستفتاء على الدستور الفرنسي بأكثرية عددية.

إلا أن أربع مشاكل حقيقية تُطرح نفسها منذ الأول من تشرين

الأول/أوكتوبر على الفرنسيين والأفارقة. هل شبعت الدول الإفريقية بالنواب الذين تنتخبهم الى المجالس الوطنية الفرنسية؟ هل سيتمثل ثلاثون مليون افريقي بشكل ملائم؟ هل سيكون للأفارقة الحق في المناقشة حول المسائل المتعلقة بميزانيتهم وإمكانية توجيه الاستثمارات التي تتعلق بأراضيهم بالتناوب؟ هل تنوي فرنسا، رغم اعتراض الأفارقة أن تنشىء هذه الـ «أورا افريقيا» (Eurafrique) التي ستكرس بتجزئة أفريقيا إلى مناطق نفوذ أوروبية لصالح اقتصاد الدول الأوروبية فقط؟ هل تنوي فرنسا أن تبقي الدول الإفريقية في إطار حلف شمال الأطلسي؟ هل تريد الدول الإفريقية في هذا العهد الذي افتتحه مؤتمر بندونغ أن تكرّس حضورها على المستوى الدولي وتطالب بموقفها في منظمة الأمم المتحدة؟ كيف تأمل فرنسا أن توفّق في آن بين الإبقاء على الميثاق الاستعماري وبين الوجود الوطني للدول الإفريقية؟

كل هذه المسائل ستُطرح غداة الاستفتاء، حين يدرك الإفريقيون والإفريقيات عمق التضليل الذي يُحاك ضدهم.

مرةً أخرى يخوض الاستعمار معركة خاسرة على المدى البعيد. لن يقوم ديغول بأي شيء حاسم في افريقيا والمشاكل نفسها ستبقى عالقة والمطالب نفسها ستستمر والنضال الوطني نفسه.

وسيعارض الاستعمار الفرنسي عن سوء نية معهودة وبالوسائل نفسها المطالب الوطنية وسيستمر في النضال مع فارق واحد هو أن المرحلة البرلمانية باتت مستبعدة في الوقت الراهن ولم يبق من خيار سوى الكفاح المسلح الذي وحده قادر على تحرير الأراضي الوطنية في افريقيا السوداء.

مرةً أخرى تُسدّ في وجه الاستعمار الفرنسي جميع المنافذ.

بدلاً من أن يدعو الممثلين الحقيقيين للشعوب التي يهيمن عليها إلى حوار بنّاء يفضي الى انهاء الميثاق الاستعماري والاعتراف بالسيادة الوطنية الخاصة بكل شعب، فإنه يواصل اعتماد أساليب الكذب والإرهاب والحرب جاعلاً المصالحة بين الشعوب أمراً عسيراً للغاية.

14 ـ غداة الاستفتاء في افريقيا[1]

كلاسيكياً، يوفّر نجاح الاستفتاء للسلطات الداعية إليه فترة طويلة نسبياً من التمتع بالسلطة. وحين تصبح ممارسة السلطة ممكنة من خلال الاستفتاء، ولكي تكون ذات قيمة وتساهم في مكافأة أصحابها، عليها أن تتيح لهم أن يجنوا أكبر قدر ممكن من الغنائم في أطول مدة زمنية ممكنة وفي ظل وضع مستقر نسبياً.

لقد استطاعت الجهود المتضافرة للاستعماريين الفرنسيين والفاشيين وفي مقدمتهم الطليعة من الطغاة في الجزائر العاصمة والقوى الرجعية في فرنسا، أن تفرض قرار الجنرال ديغول التحكيمي.

تحضير المؤامرة

سعت القوى الفاشية في هذه المؤامرة إلى استخدام اسم الجنرال ديغول حتى تهيّىء نفسها لإنشاء هيئات بديلة قادرة على الامساك بزمام السلطة الفعلية شرط أن تتخلص القوى الفاشية لاحقاً من الجنرال.

---

(1) المجاهد، عدد 30، 10 تشرين الأول/أوكتوبر 1958.

شهدنا خلال الأشهر الأخيرة في فرنسا وفي الجزائر تبلوراً، حول نواة القاعدة المؤلفة من مفتعلي الشغب في 13 أيار/ماي، لكل التيارات الفاشيّة والعنصرية والقومية المتطرفة الموجودة في فرنسا، شاهدنا أيضاً كيف أن اعضاء هذه الميليشيات سخرّوا جهاز الدولة لمصالحهم الخاصة.

جرى الاعلان عن الإجراءات الكلاسيكية التي تستتبع دوماً الاستفتاء بشكل مباغت: عملية إخضاع بالقوة لمؤيدي سياسة التخلي، ولا سيّما وضع الفئات المعارضة خارج إطار القانون.

فالقوى الكولونيالية التي تفيد من سلطتها وتدعم التجربة الفاشية بشكل كامل، يساورها القلق من أي مسار يتعلق بإزالة الاستعمار. بعد تجربتي تونس والمغرب وبعد التجربة الأكثر إثارة للصدمة في الهند الصينية، تعهدت الأوساط الكولونيالية بألا نسمح بالقيام بـ «تخلٍّ» جديد عن مصالحها في أي مكان من المستعمرات. مما جعل الأوساط الكولونيالية تنضم بحماسة الى الصفوف الفاشيّة وتهتف معها قائلة: «الجزائر فرنسية»، «لا لسياسة التخلّي».

في الوقت نفسه، جرى تخوين مُراخصي المفرّطين بحقوق الإمبراطورية الفرنسية أمثال منديس ـ فرانس وإدغار فور.

التحقت الأوساط الكولونيالية بالجنرال ديغول لأنه كان قادراً في رأيها على الابقاء على تبعية الجزائر لفرنسا والحفاظ على الإمبراطورية الفرنسية كاملة، وربّما، إذا سمحت الفرصة، على أن يعيد احتلال الأراضي الضائعة.

لقد استجاب الرجعيون للنداء الفاشي لأن الرغبة التي تحدوهم هي تلك التي تدفع القوى المجانية للتحرك لأنها تعرف أن الدولة ستعوّض لها عن جـهودها لاحقاً. مما لا شك فيه أن

مصلحة الرجعيين تصب في الاتجاه نفسه لمصلحة الدولة فيعملون على التعزيز من سلطتها وعلى تحطيم الطبقة العاملة في فرنسا والقضاء على آمالها.

النصر...

غداة الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر، كان بإستطاعة المسؤولين عن الاستفتاء أن يعبّروا عن رضاهم. إذ صوّت 98% من المستوطنين في أراضي «ما وراء البحار» قائلين «نعم» للجنرال ديغول ولفرنسا. وعلى الأراضي الفرنسية 80% من الوطنيين انفصلوا، إدراكاً منهم لمصالحهم، عن وصاية «أحزاب الخارج» وانضموا بأعداد هائلة الى الدستور الذي اقترحه الجنرال ديغول.

بعد أسبوع من الاستفتاء، أسبوع على هذا النجاح الهائل والكثيف والعجائبي، بدأت المبادرة الفاشية تترنح، كانت حرب الجزائر التي انتظم من حولها الاستفتاء، والذي لقي هذا النجاح الباهر المشار إليه في الصحف بسبب استغلاله لموضوع الحرب، تحّد بوجودها وطابعها ومدتها من قيمة هذا الاستفتاء. غداة 28 أيلول/سبتمبر، أحرجت نسبة 98% من الأصوات ديغول وأنصاره وما عادوا يعرفون كيف يهتدون. والسبب أنه أخذت تظهر يوماً بعد يوم معطيات جديدة طرحت علامات استفهام حول هذه النعم ومغزاها.

... والفشل التامّ

في افريقيا الغربية، أعلن مختار ولد داده في أول تشرين

الأول/أوكتوبر، رئيس مجلس موريتانيا، وهي بلد قالت «نعم» بنسبة 93% من الأصوات قائلاً:

«أعتقد أن «جمعية الأراضي» الحالية يجب عليها أن تقدم استقالتها لكي يُصار إلى انتخاب جمعية جديدة في كانون الثاني/ جانفي لكي يستطيع مجلس الحكومة الحالي استقالته. عندئذٍ تؤيد الحكومة الجديدة والجمعية الجديدة القرار بإقامة دولة ذات كيان مستقل تكون عضواً في التجمع الإفريقي وتصوغان دستوراً عملياً يخضع لاستفتاء الشعب الموريتاني». ثم أضاف داده: «نخرج عندئذٍ، عندما يحين الوقت، من جماعة الشعوب الحرة كما هو منصوص، عليه في الوثيقة 15، دون أن نقطع مع ذلك صلاتنا بفرنسا ودول التجمع ونعقد معها اتفاقات الشراكة حسب الوثيقة 13.

أما في داهومي، حيث تجاوزت نسبة الأصوات 98% فقد أعلن آبيتي (Apitty)، رئيس المجلس الحكومي، ضرورة أن يتشاور الزعماء السياسيون لإفريقيا السوداء فيما بينهم لكي يتبنوا موقفاً مشتركاً تجاه فرنسا.

وعن المعنى الذي ترتديه هذه «النعم» الداهومية، أضاف آبيتي قائلاً: «ستولد غداً الدولة الداهومية بفضل الاختيار الحرّ للجماهير والإرادة الحرّة للمنتخبين. هذه الدولة المستقلة ذاتياً بشكل كامل، يمكنها أن تسعى في إطار السلام القائم وعلاقات المودة التي تحرص على استمرارها مع الشعوب الإفريقية الأخرى وكذلك مع المتروبول، لبلوغ التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي سيسمح لها يوماً بأن تكون دولة حليفة مستقلة».

وفي السنغال حيث نالت «النعم» نسبة 97% من الأصوات، واصلت المعارضة النقابية وجمعيات الشبيبة الضغط على سنغور

وعلى لامين غي (Lamine Guey)، يبدو أن سنغور الذي لا يريد أن يتحرر من البلبلة التي تسيطر عليه، قد أُجبر في كوتونو على إعادة التحالف مع استقلال افريقيا السوداء. استطاع سنغور من خلال إقامته تحالفاً تكتيكياً مع خصمه لامين غي، أن يخدع الجماهير الإفريقية ويحثهم على الاقتراع بالموافقة على الاستفتاء وتأييده. لكن سنغور، غداة نجاح الاستفتاء، وجد نفسه مجبراً على أن يعطي لتصويت السنغال معنى محدداً قائلاً إن هذه «نعم» للاستقلال الإفريقي ضمن إطار الوحدة المستعادة.

لا شك أن سنغور لا يزال يحاول أن يستغلّ الجماهير السنغالية، لكن هوامش تحركه تبقى محدودة في النهاية. وقد بدا ذلك واضحاً من الاعلان الذي جاء على لسان رئيس مجلس حكومة السنغال مامادو ديا (Mamadou Dia-) هو بليغٌ: «همنا الأساسي التحضير لاستقلالنا».

في النيجر، أُسقطت سياسة الحكومة القومية برئاسة دجيبو بكري (Djibo Bakary). الملاحظ أن النيجر هو أول بلد افريقي، بعد غينيا، يملك أكبر نسبة من أصوات المنتخبين السلبيين. استطاعت الحكومة، بمساعدة المستعمِرين والإداريين أن تؤمّن بنجاح الاستفتاء الانتخابي الذي جرى في 28 أيلول/سبتمبر، لكن من الواضح أن الجماهير النيجرية ستقوم في الأسابيع الآتية بتحرك حاسم لكي تؤخذ مطالبها الوطنية بعين الاعتبار. وبطبيعة الحال، أقل ما يمكن أن تفعله البلدان الأخرى في أفريقيا الغربية ومن بينها شاطىء العاج الوفي لقضية الاستقلال، هو أن تتبنّى القرار بإنشاء كيان الدول المستقلة المتضامنة مع فرنسا. ربما يحاول هوفوية ـ بوانيي أن يدافع عن نظرية الفدرالية الشاملة، لكن من

المشكوك في الأمر أن يتمكن من الوصول الى غاياته: فإفريقيا السوداء، رغم ديغول ورغم الثالث عشر من أيار/ماي ورغم الاستفتاء، ستتحول إلى فدرالية دولة مستقلة تبحث في وقت لاحق مع المندوبين الفرنسيين طرُق التعامل مع المتروبول القديمة.

أما الأمور في افريقيا الاستوائية فأوضح بكثير، في الغابون؛ بفع عشرات من الآلاف صوّتوا سلباً وقالوا «لا» للاستفتاء، مما أثار خضّة في الأوساط الكولونيالية.

إن قوة المعارضة السياسية في الغابون هي من الشدة والعنف بحيث أن ليون مبا (Léon M'ba)، رئيس مجلس الحكومة، صرّح لدى مغادرته ليبرڤيل في 3 تشرين الأول/أوكتوبر من أجل القيام بمحادثات في باريس مع الحكومة الفرنسية، بقراره انشاء دولة الغابون. لكن الشيء الأهم بكثير هو إعلان تأليف بعثة منذ بضعة أيام تمثل المجلس الكبير لإفريقيا الاستوائية مهمتها انشاء دولة موّحدة في افريقيا الوسطى. بدأ ريڤيرز (Rivierez)، رئيس جمعية الأراضي في أوبانغي شاري (Oubangui-Chari) مشاوراته مع موفدي التشاد والكونغو الأوسط والغابون بهدف أن تقام هذه الدولة وتُحدَّد الجنسيّة والصلات بين بلدان افريقيا الأخرى وفرنسا. وهكذا أصبح القانون ـ الإطار، الذي حدَّد كيفية تجزئة افريقيا، في متحف التاريخ إلى جانب المساعي الأخرى التي يقوم بها الاستعمار ليدوم.

في مدغشقر، لم يخْشَ تسيرانانا (Tsiranana)، وهو من عملاء فرنسا المطواعين، أن يُدلي بتعليقه على «النعم» المدغشقرية قائلاً إنها «لا» لموسكو. لكن، يبدو أن الاستعمار في مدغشقر لا يعيش أياماً هانئة هناك. أدلى تسيرانانا بتصريح غداة الاستفتاء حيث أشار إلى أن أبناء مدغشقر سيرون جمهوريتهم متحققة حتماً.

في جزر الأنتيل، فوجىء المراقبون بنسبة الأصوات التي قالت «نعم» والتي تحققت بفضل موقف ايميه سيزير. هل سيتحقق استقلال الأنتيل الفرنسية يوماً؟ هذا هو السؤال الذي واجه سيزير وكان بإمكانه أن يرد عليه بالإيجاب ويختار استقلال الأنتيل ويسعى للدخول في الفدرالية الكاريبية، ولم يفعل. فهل اعتبر أن هذه الفدرالية التي وُلدت للتّو ليست قوية البنية بما فيه الكفاية وأنها كانت معنية أيضاً بموقف التاج البريطاني بشكل وثيق؟ ما هو أكيد أنه لا يوجد زعيم في جزر الأنتيل ولا في الأمكنة الأخرى يمكنه أن يعتمد على مكانته الشخصية ولا بالثقة التي يتمتع بها في صفوف الجماهير عندما تدخل إرادة الاستقلال القومي على المحك.

وضع غينيا

لكي يتم الشروع في تحرير افريقيا، يكفي وينبغي أن يقول بلد على الأقل «لا» لشرعة الجنرال ديغول. وها إن غينيا، التي يتزعمها سيكوتوره (Sekou Touré) قد دخلت في زمن الاستقلال.

إن الوجود المستقل لغينيا يُخلّ عميقاً بتوازن النظام الكولونيالي الفرنسي في افريقيا السوداء. وإذا تملك غينيا حدوداً مشتركة مع السنغال والسودان وشاطىء العاج فستجمع حولها كل الطاقات الوطنية الموجودة في إفريقيا السوداء. قيل إن الزعماء السياسيين الآخرين في افريقيا رفضوا «اللا» خشية الاجراءات الاقتصادية الانتقامية التي قد تفرضها الحكومة الفرنسية. لا أحد يجهل مع ذلك هشاشة مثل هذه الحجج «لرجال سياسيين أمثال هوفوية ـ بوانيي والقسّ فولبير يولو (Fulbert Youlou) الذين

ناضلوا لصالح «النَعَم» هم في الواقع مناهضون للثورة وأعداء الاستقلال الوطني في افريقيا.

اليوم، يعترف عدد متزايد من الأمم بالجمهورية الغينية ويدعمها المواطنون الأفارقة في كل مكان. لذا، فهي تعزّز سلطتها وتتجاوز كل خوف وخشية يعترضان سبيلها. إن القادة الآخرين لإفريقيا السوداء، القادة أنفسهم الذين كانوا يتوقعون الكوارث في غينيا، ها هم يتشاورون منذ الآن مدركين أن غلّ الاستعمار في افريقيا السوداء قد تحطم منذ زمن بعيد. فالمحادثات التي كانت تجري مع كل مستعمَرة على حدة وموجة العنف التي رافقت الهيمنة الفرنسية ولّت الى غير رجعة. اعترف الاتحاد السوفياتي لتوه بالجمهورية الغينية وأتت الدول الإفريقية، بطلب من تونس، تقترح على سيكوتوره إرسال بعثة مهمتها دراسة الحاجات المادية والتقنية للجمهورية الفتيّة.

تجسّد الحكومة المؤقتة لجمهورية غينيا هذا التضامن الإفريقي الذي وُلد أثناء النضال ضد الكولونيالية وتشكّل النموذج الحيّ الذي يوجّه ويُلهم حركة المطالبة بالاستقلال ويرسم مسبقاً صلات التعاون الوثيقة التي يجب أن تسود بين الدول الجديدة المستقلة في افريقيا.

تستطيع شعوب افريقيا السوداء، لمناسبة استقلال غينيا، أن تسارع إلى إجراء مقارنة بين مصيرها ومصير أخوة الأمس الذين تحرروا بعد أن استعبدهم الاستعمار الفرنسي.

لم يتوقّف هوفوية ـ بوانيي عن اقناع الشعوب الإفريقية بأن السكان المحليين يُحسدون على وضعهم، وأنّه من دون رعاية وطننا الأم فرنسا فسيجري التخلي عن زنوج أفريقيا.

من غينيا، رأس الحربة في النضال لأجل الحرية، ستنطلق

جميع الموجات التي ستتكفَّل بإزالة الهيمنة الفرنسية في افريقيا السوداء.

الاستفتاء في فرنسا

أثارت نسبة الاقتراع الإيجابي الذي أحرزه الجنرال ديغول دهشة المراقبين الأجانب، سجَّلت التوقعات الأكثر تفاؤلاً نسبة تتراوح بين 65% الى 70%، بَيْدَ أن نسبة الاستفتاء في فرنسا بلغت نسبة 80%. وخلص المراقبون إلى أن الفرنسيين يظهرون عدم تعاطف حيال هيئات اليسار السياسية.

يسمح تحليل التصويت بالوصول إلى استنتاجات أخرى. نجد أنه على 17,600,000 قالوا «نعم»، هناك 4,600,000 قالوا «لا»، أي أن هناك فارقاً يبلغ ثلاثة عشر مليون صوت وهذا الفارق يظهر مدى التأييد الذي يتمتع به الرئيس. سجَّل الشيوعيون تراجعاً واضحاً يقدر بنسبة الثلث. بالإضافة الى ذلك، فإن زعماء اليسار السياسيين: باديو (Badiou) ومنديس – فرانس وبورجيس مونوري الذين ناضلوا في سبيل رفض الدستور كانوا الخاسرين الأوائل في هذه المواجهة الانتخابية. مما يعني أننا نشهد من خلال الاستفتاء تجميداً للتطلّعات الديموقراطية في فرنسا.

بَيْدَ أن تصريحات البعض من رجال السياسة أمثال ديفير شوّهت حقيقة هذه النتائج. اقترع ملايين الفرنسيين والفرنسيات من أجل وضع حدّ لحرب الجزائر، واقترع آخرون لكي لا تُمس الأمبراطورية وتبقى صامدة. ورأينا أن الاستفتاء في الأراضي المستعمَرة أشعل فتيلة التحرير وهبَّت الشعوب المضطهَدة بشكل لا يُرد، لا سيما وأن التصريح الأخير الذي أدلى به ديغول في

قسنطينة، كان بمثابة دعوة حقيقية الى إعادة إشعال فتيل الحرب. فبعَد أن وعد «العصاة» بالأمان، أعلن الرئيس الفرنسي، ممثلاً بالتقليد العريق لزملائه في الجمهورية الرابعة المحتضرة، العمل من أجل التقدم الاجتماعي والاقتصادي في الجزائر.

بعد أن استلم ديغول السلطة ليحقق السلام في الجزائر، أحيا في الوقت نفسه احتدام النزاع في فرنسا. منذ 24 تموز/ جويليه والقواعد الاقتصادية والاستراتيجية الفرنسية تتعرض لمزيد من التدمير على يد المجموعات العاملة في جبهة التحرير الوطني. الحرب في الجزائر، الحرب في فرنسا، الاستعمار بحملته العسكرية وقواعد دعمه، يجد نفسه تحت رحمة الضربات التي توجهها له الثورة الجزائرية. السلام في الجزائر، السلام في فرنسا يتعلّقان اليوم بإعتراف فرنسا بإستقلال الجزائر.

الشعب الجزائري يُفْشل سياسة ديغول

نستطيع أن نتساءل بشكل شرعيّ عن أسباب تدهور الحالة في افريقيا السوداء. كيف يمكن للنجاح العظيم الذي أحرزه الاستفتاء أن يتحول إلى خيبة وهزيمة للاستعمار.

يجب أن نُرجع السبب في ذلك إلى نضال الشعب الجزائري وإلا عجزنا عن فهم التطور الذي طرأ على العلاقات بين المستعمرات والهيمنة الفرنسية.

إن القوى الكولونيالية التي اكتشفت أنها غير قادرة على إلحاق الهزيمة بالجيش الوطني الجزائري، وجدت نفسها مجرّدة من كل هيبة وزالت الخشية التي تثيرها في نفوس الشعوب المستعمَرة إلى غير رجعة. إن الحرب التي يخوضها الشعب

الجزائري منذ أربع سنوات كانت السرير الذي لفظت فرنسا أنفاسها الأخيرة عليه في افريقيا. لقد أصبحت الطريق من الآن فصاعداً مفتوحة أمام كل البلدان التي يحتلها الاستعمار الفرنسي لكي تنادي بإستقلالها.

ها إن الشعب الجزائري الذي تعهّد بإزالة كل أثر للهيمنة الفرنسية في افريقيا، يواصل المعركة.

وسيجد الجنرال ديغول نفسه مجبراً قبل 15 تشرين الثاني/ نوفمبر على الاعتراف بالدول المستقلة في افريقيا السوداء.

إن الجنرال يعد الآن الجزائريين بالوظائف العتيدة. البؤس السياسي يتواصل اذاً وكذلك اعتماد المنطق المشبع بالتناقضات. لكن، أليست هذه أيضاً علامة الضياع وإغماض العين عن الحقائق التاريخية التي تؤدي بصاحبها إلى الهزيمة؟

15 ـ حرب الجزائر وتحرير الانسان[1]

يحدث غالباً وتكراراً أن دراسة حدث معطى وتقييمه قد يظهران غير متلائمين وأن الاستنتاجات تحمل مفارقات، والسبب تحديداً أنه لم تؤخذ بعين الاعتبار الصلات العضوية التي تربط هذا الحدث الخاص بالتطور التاريخي لكل ما يحوط به.

لذا، يبدو أن عنصر العلاقة الجدلية الذي يربط حركة تحرير الشعوب المستعمَرة بالنضال التحرري للطبقة العاملة في البلدان الكولونيالية لم يلقَ الاهتمام الكافي، لا بل يجري التعامل معه بنوع من الإهمال إن لم يكن التغافل عن عمد.

العامل والمستعمَر

إن مسار تحرير الإنسان، بمعزل عن الأوضاع الواقعية التي يندرج فيها، يشمل ويعين البشرية بمجملها. والنضال من أجل استعادة الكرامة الوطنية هو الذي يعطي النضال من أجل الخير والكرامة الاجتماعية معناه الحقيقي. هذه العلاقة الداخلية بين

(1) المجاهد، العدد 31، الصادر في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، 1958.

النضالين هي من مقوّمات التضامن الهائل الذي يجمع الشعوب المضطهَدة بالجماهير المستَغلَّة في البلدان الكولونيالية.

خلال الحروب المختلفة التي تمَّ خوضها من أجل التحرير الوطني والتي تواصلت على مدى العشرين سنة الأخيرة، لم يكن نادراً أن نستنتج عداءً ما لا بل حقداً يُبديه العامل المستعمِر تجاه المستعمَر. والسبب أن تراجع الإمبريالية يتزامن مع العمل على إعادة بناء مختلف القطاعات الاقتصادية في البلد المستعمَر، ويترافق مباشرة مع أزمات اقتصادية تترك آثارها السيئة على عمال البلد الكولونيالي. إن الرأسماليين المتروبوليين يتجاوبون طوعاً مع عمالهم الذين يطلبون خطوات اجتماعية وعلاوات في الأجور، بمقدار ما تسمح لهم الدولة الكولونيالية، أي لهؤلاء الرأسماليين، بإستغلال الأراضي التي تحتلها. حين تهب الشعوب المستعمَرة للنضال وتطالب بإستقلالها، في هذه اللحظة الحرِجة، تنشأ فترة صعبة يبدو خلالها وكأن مصلحة العمال والفلاحين المتروبوليين تتعارض مع مصلحة الشعوب المستعمَرة. من هنا، يجب أن تؤخذ مساوىء هذا الاستلاب «غير المتوقع» في الحسبان، وأن تتمّ محاربتها بشراسة.

يندرج إذاً النضال ضد الكولونيالية، وهي نموذج خاص لاستغلال الانسان من قِبَل أخيه الانسان في المسار العام لتحرير الانسان. وإذا كان التضامن بين عمال المتروبول والشعوب المستعمَرة يمكنه أن يمّر بأزمات وتشنجات، فمن النادر أن نلاحظ ذلك بين الشعوب المستعمَرة. إن هدفاً بيّناً يجمع الناس المستعمَرين وهو الوقوف بوجه كل من يحول دون بلوغهم حقهم في أن يكونوا موحّدين. يُظهر المضطهِد العنصرية والحقد والاحتقار للمضطهَد الذي يقابله بالخبل والأمية والاختناق

الأخلاقي وسوء التغذية، وهي السمة المشتركة لدى جميع الشعوب المضطهَدة.

تضامن المستعمَرين

يبدو أن هناك بين المستعمَرين نوعاً من التواصل المضيء المقدس الذي يجعل كل أرض محرّرة «أرضاً مرشدة» ترتقي إلى مصاف رفيع جداً. كما تشعر البلدان المضطهَدة أن كل استقلال جديد متحقق وكل تحرير جديد لشعب مضطهَد وكأنهما دعوة لها وتحفيز لنضالها ووعد بالحرية آتٍ ولا بد، كما يبدو كل تراجع للهيمنة الكولونيالية في أميركا أو في آسيا وكأنه تعزيز للإرادة الوطنية لدى الشعوب الإفريقية، وتكتشف الشعوب المستعمَرة خلال نضالها الوطني ضرورة الترابط الداخلي لجميع حركات التحرر وضرورة التضامن فيما بينها لكي تتمكن من الوقوف بوجه التكتل الكولونياليّ.

إن تداعي الإمبريالية الإنكليزية، على سبيل المثل، لا يمكن أن يتزامن مع تعزيز الإمبريالية الفرنسية. وقد تبدو لنا هذه النتيجة بديهية في الحيّز المباشر. لكن، ينبغي أن ندرك جيداً أن المدَّ الوطني وظهور دول جديدة مستقلة يحضّر ويسرّع عملية الانحسار الحتمي للمجموعات العسكرية الكولونيالية. ثم إنَّ ظهور الشعوب لم تكن معروفة بالأمس على حلبة التاريخ، وتلك الإرادة التي تبديها اليوم للمشاركة في بناء حضارة على المستوى العالمي؛ كل هذا يجعل الحقبة المعاصرة تتسم بأهمية حاسمة في مسار أنسنة العالم.

يُجسّد ميثاق بندونغ الوحدة الحسية والروحية في آن للشعوب

المستعمَرة. بندونغ هو الالتزام التاريخي الذي يتعهده الناس المضطهَدون لكي يتعاونوا فيما بينهم ويجبروا قوى الاستغلال على التراجع على طريق اللاعودة.

الجزائر، «أرض-قدوة»

تحتل الجزائر مكانة مميزة في مسيرة القضاء على الإمبريالية. منذ أربع سنوات والكولونيالية الفرنسية، إحدى الدول الاستعمارية الأكثر عناداً في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، تتشبث بجميع ما ملكت من وسائل لكي تحافظ على رأس جسرها في افريقيا، مستخدمةً جميع الحجج والذرائع العسكرية والفرنسية لتبرير القمع الفرنسي والوجود الفرنسي في الجزائر. لقد روّعَتْ أبعاد هذه الحرب الضارية الرأي العام العالمي ومسّته في الصميم، فيما يحشد الاستعمار الفرنسي في الجزائر كل قواه.

إن الجهد العسكري والاقتصادي والسياسي الذي بذلته فرنسا في حرب الجزائر لا يمكن تقديره موضوعياً إلا بمقارنته مع ما تبذله في سائر البلدان الإفريقية. كان القضاء على الثورة الجزائرية يعني دون شك انتزاع «الخميرة الثورية» بشكل كامل من افريقيا لعشر سنوات لاحقة، وكان يعني أيضاً إسكات حركات التحرير الإفريقية المحتملة وإطلاق صفة البلهاء على الذين حصلوا على استقلالهم في تونس والمغرب في ظل حال الفوضى التي يتخبطون فيها.

لقد أغنى الاستعمار الفرنسي في الجزائر التاريخ بالتجارب الحيّة وذلك من خلال الطرق الهمجية التي استعملها وتشكّل مفخرةً للاستعمار الدوليّ. لأول مرة، نشهد تعبئة لعدة طبقات

اجتماعية واقحام جنود الاحتياط في المعركة وخفض قوى الدفاع الوطني لصالح حرب إعادة فتح كولونيالية. لمرات عدة أعلن الحكام الفرنسيون انتصارهم المحتوم على القوات الوطنية الجزائرية. اجتمعت كل الشروط، على ما يبدو، لإلحاق الهزيمة بالثورة الجزائرية، وفي كل مرة كانت الثورة الجزائرية تنهض متجددة، قوية العزيمة كأنما بفضل معجزة.

ذلك أن الشعب الجزائري يعرف أن قوى ديموقراطية هائلة تدعمه على الصعيد الدولي. كما تعي الجماهير الجزائرية الأهمية التي يرتديها نضالها على مستوى القارة الإفريقية.

أبعد من أن تكون قد انتهت، حرب الجزائر في مطلع سنتها الخامسة مستمرة بفضل رجالها ونسائها، الذين يسكنهم عطش لا يرتوي للسلام ويتطلعون مفعمين بالأمل إلى الطريق العسيرة التي ما زالت أمامهم ليجتازوها، لكن النتائج الإيجابية والحاسمة لنضالهم في افريقيا تغذي إيمانهم وتقوّي من عزيمتهم للقتال.

وفيما استطاعت تونس والمغرب، وهما محميتان، أن تحقق استقلالهما دون أن تسبّبا إرباكاً جذرياً للأمبراطورية الفرنسية، تطرح الجزائر علناً من خلال وضعها وقدم احتلالها وأهمية الاستيطان الاستعماري فيها، مسألة انهيار هذه الإمبراطورية بشكل كامل وخطير.

ليست الجزائر بالنسبة للاستعمار الفرنسي نزاعاً جديداً يخلقه الاستعمار بل هي أيضاً مناسبة لمواجهة حاسمة مع الاستعمار وامتحان عسير له. لذا تتحرّك القوات الفرنسية لمواجهة هذا النزاع بعنف وقساوة يثيران الدهشة دوماً. كما أن النزاع الفرنسي ـ الجزائري طرح المشكلة الاستعمارية على مستوى إفريقيا كلها، فيما القوى الكولونيالية الأخرى في افريقيا تتابع بقلقٍ ورعب

التطورات التي تشهدها حرب الجزائر. ها إن غينيا، في الجهة الأخرى من الصحراء، تُلقي الآن بظلالها، كدولة مستقلة، بإتجاه الأراضي التي يُحكم عليها الاستعمار قبضته بشكل وطيد، وتبدو نذير شؤم لاستمراريته.

سرعان ما أصبحت الجزائر، رأس جسر الاستعمار في افريقيا، وكرَ الزنابير الذي علقت فيه الإمبريالية الفرنسية وحيث انهارت الآمال للمضطهِدين الغربيين.

منذ أربع سنوات وحرب الجزائر تهيمن بشكل مأسوي وحاسم على النشاط السياسي الداخلي والخارجي في فرنسا. فالتطورات التي تشهدها هذه الحرب تؤثر سلباً على علاقات فرنسا مع البلدان الغربية الأخرى وتسبّب لها مصاعب دبلوماسية أو عسكرية مع الدول العربية. إن هاجس الحرب والرعب من نشوب حروب استعمارية جديدة يسيطر على رجال السياسة الفرنسيين الذين ضاعفوا التحذيرات والدعوات: تعالوا نتباحث في مشاكلنا مع أملاكنا في المستعمرات. هذه هي العبارة التي تدوّي في المجالس الفرنسية والأوساط السياسية منذ عام 1955. وما القانون ـ الإطار الذي أوجده السيد ديفير إلا وسيلة لتحاشي نشوء حركات جديدة مطالبة بالتحرر الوطني.

لكن حرب الجزائر المستمرة والتفاصيل التي نُشرت عن القمع الكولونيالي وشجاعة الشعب الجزائري البطل... كل ذلك أيقظ وعي رجال افريقيا ونسائها وألهب حماستهم للنضال.

في مطلع عام 1958، بدأت الإرادة الوطنية تؤكد وجودها في جميع الأراضي الإفريقية التي تحتلها فرنسا، وازداد عدد الأحزاب السياسية التي صارت أكثر تصميماً على طرح المسألة الضرورية المتعلقة بالكفاح المسلّح.

في التوغو والكاميرون، اتخذت الأحداث طابع حرب مقنّعة. وفي مكان آخر، ضاعف الحراس ـ الخفر للكولونيالية الفرنسية تصريحاتهم المهدّئة. بَيْدَ أن المراقب يستشف خلف هذه التطمينات المهدّئة قلقاً شديداً ورعباً من الغضب الشعبي العارم.

أخلّت حرب الجزائر بعمق التوازن الاستعماري في إفريقيا. ليس هناك أرض محتّلة في افريقيا إلا وأعادت النظر في خياراتها المستقبلية على ضوء انتصار الثورة الجزائرية. الشعب الجزائري واعٍ لأهمية الكفاح الذي يخوضه. منذ عام 1954 رفع شعار التحرير الوطني لإفريقيا، تحرير القارة السوداء. أما الانتقادات السهلة التي تُوجَّه دورياً لجبهة التحرير الوطني بخصوص تصلبها ورفضها إزالة الاستعمار مرحلياً، فلا تأخذ بعين الاعتبار البعد الإفريقي المبدئي والجوهري للنضال الوطني الجزائري.

الاستعمار الفرنسي يجب أن يموت

ضمن هذه الشروط الآنفة الذكر، كان نداء الجنرال ديغول المحاولة الأخيرة التي يقوم بها الاستعمار الفرنسي للدفاع عن نفسه في إفريقيا. رأينا أن الجنرال ديغول لم يستطع إلا استخلاص النتائج من حركة تتجاوزه. فالدستور الجديد، في طرحه لمفهوم الوحدة، يترك مكانة مميزة للمتروبول، مع التسليم بالإعتراف الضروري بالدول المستقلة. وكان إنشاء جمهورية مدغشقرية أول تجلٍّ لهذا الإصلاح الديغولي.

لكن الأوساط الكولونيالية التي علقت آمالها العريضة على الجنرال المُرسل من السماء تتساءل اليوم عمّا إذا كان عملها هذا صفقة مغبونين. إذ يميل المستعمِرون، وهذا النقص في استخلاص

العِبَر مما يجري، إلى اعتبار الجنرال ديغول مفرّطاً بحقوق الإمبراطورية الفرنسية؛ فيما الجنرال ينقذ في الحقيقة، مرةً أخرى، المصالح الكولونيالية من خلال خلق تجمع، وإن كان غير عادل، يعمل على صيانة مصالح المتروبول ويُبقي على هيكلية صلبة لا تمسّ.

مع إنشاء الدول المستقلة، يخرج الاستعمار الفرنسي ضعيفاً. لكن، لولا تدخل الجنرال ديغول لكانت الإمبراطورية الفرنسية تداعت في وقت قصير. يبدو الجنرال، في الظاهر، مُسيئاً للمسألة الكولونيالية أو مخّلاً بالتزاماته لكنّه في الواقع المنقذ المؤقت لحقيقة كولونيالية معينة.

16 ـ الجزائر في أكرا[1]

لقي الوفد الجزائري المؤلف من خمسة أعضاء استقبالاً حافلاً في أكرا. يدل هذا الاستقبال الحار على الأهمية التي تعقدها الشعوب الإفريقية على النضال الجزائري منذ سنوات عدة.

لاحظنا في أكرا أن الوجوه الكبيرة للثورة الجزائرية: بن بلَّه وبن مهيدي وجميلة بوحيرد، قد خلّدوا أسماءهم في الملحمة الإفريقية.

كما أولت مكانة هامة لعدد من أعضاء وفدنا. اخْتير أَحدُنا في اللجنة المديرة للمؤتمر وانتخب الأعضاء الآخرون وسط التصفيق لتولي رئاسة أو نيابة رئاسة مختلف اللجان.

من الواضح أن مثل هذا الإجماع على الجزائر المناضلة لم يعجب المستعمِرين الذين كانوا يتصورون أن نضال الشعب الجزائري لا يلقى صدى لدى رجال افريقيا السوداء ونسائها. في الواقع، لم تكن الثورة الجزائرية قط حاضرة بهذه الحدة وهذا الثقل في إفريقيا كلها. سواء تعلق الأمر بالسنغاليين أو الكامرونيين

(1) المجاهد، العدد 34، الصادر في 24 كانون الأول/ديسمبر، 1958.

أو الأفارقة الجنوبيين، كان من السهولة بمكان ملاحظة تضامن أساسي لهذه الشعوب مع نضال الشعب الجزائري وطرقه وأهدافه.

طرح الوفد الجزائري بشكل واضح أمام المؤتمرين مسألة الكفاح المسلّح. واعتقد بعض المراقبين وبعض الصحافيين للوهلة الأولى وعند انقضاء الساعات الأولى من المؤتمر أنهم سيبرقون الى صحفهم قائلين إن الجزائر قررت أن تشن المعركة المناهضة للاستعمار بالوسائل الدبلوماسيّة السلمية.

ولم يتردد البعض على أية حال عن الإيحاء بأننا نشهد رسمياً إدانة للحركة الثورية الجزائرية.

بَيْدَ أن المؤتمر وُضع منذ اليوم الأول في مساره الصحيح وأُوضح للجميع أن النضال الجزائري يشكل نقطة الضعف في النظام الاستعماري والسور الذي تحتمي به الشعوب الإفريقية في آن.

سرعان ما اقتنع المؤتمرون بأن اهتمام الاستعماريين بالحركات المطالبة بالاستقلال في افريقيا والتي بدأت هنا وهنالك ليس ناتجاً عن كرم المضطهدين أو ذكائهم المفاجىء.

للمرة الأولى بدا أن الاستعمار الذي يعمد إلى إشعال نار الحرب في أفريقيا عاجزاً عن تحقيق النصر. لم ينتبه المستعمِرون الى هذه الظاهرة ولم يعمدوا الى تحليلها، لذا يتعجبون من نجاح الموفدين الجزائريين.

استُقبل كل موفد جزائري وكأنه وُجد كي يستأصل مشاعر الخوف من جلد المستعمَر ويدفع عنه التردد وعقدة الدّونية والنقص.

لم يوجّه المؤتمرون التحية إلى نضال الشعب الجزائري لأنه

عمل بطولي فقط بل لكونه حركة متواصلة ومدعومة من الجماهير ومواقعها تتعزز يوماً بعد يوم والآمال معقودة عليها في إزالة الاستعمار الفرنسي من افريقيا.

صفّق الحاضرون أيضاً لدولة غينيا لأنها كانت باكورة الاستقلال الذي نتج عن الصراع الفرنسي ـ الجزائري.

على أية حال، طلب منا الأصدقاء وزراء غينيا الموجودون في المؤتمر أن نبلّغ حكومتنا الامتنان العميق الذي يكنّه الشعب الغيني للجزائر المناضلة.

من جهة أخرى، عمد رئيس غانا الدكتور نكروما إلى استقبال موفدينا بين الأوائل. وتناول لمدة ساعة المسألة الجزائرية في علاقتها بتحرر القارة الإفريقية بأجمعها، وجدّد رئيس دولة غانا مرة أخرى للشعب الجزائري المناضل دعم شعب غانا وتضامن حكومته معه.

كما أبلغنا الدكتور نكروما نيّة حكومته بأن تعترف في القريب العاجل بالحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر.

17 ـ أكرا: إفريقيا تؤكد وحدتها وتحدد استراتيجيتها[1]

في عام 1884 قررت الأمم الغربية المجتمعة في برلين أن تقتسم القارة الإفريقية في ما بينها وقامت بوضع الأساس الشرعي للنظام الاستعماري.

فمنذ تطور موازين القوى في العالم ونشوء قوى جديدة، أصبحت الأمم الغربية مجبَرة على التراجع والانسحاب من جزء كبير من ممتلكاتها.

من بعد آسيا تأتي إفريقيا

تحررت آسيا الآن من الاستعمار وقامت أراضٍ واسعة مثل الصين المضروبة على ما يبدو بنوع من الشقاء المطلق المستمر حتى يومنا هذا بإنشاء حضارة تبدو جديدة إنما حقيقية هذه المرة تُعنى بالإنسان وتَصُبّ حتماً في مصلحته.

ويبقى أن القارة الإفريقية ما زالت تحتلها القوى المستعمِرة

---

(1) المجاهد، العدد 34 الصادر في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1958.

بشكل واسع. ومن بعد مؤتمر بندونغ والمؤتمر الإفريقي ـ الآسيوي في القاهرة، نرى الشعوب الإفريقية تجتمع الآن في أكرا عاصمة غانا المستقلة حتى تضع الأسس الرامية إلى إنشاء الولايات المتحدة الإفريقية في المستقبل وتنظيم التكتيك واستراتيجية القتال.

تضامن «بيولوجي»

التقت منظمات القارة الإفريقية السياسية والنقابية في أكرا؛ وتبين أن أيديولوجيتها المشتركة هي: مواجهة الاحتلال الأجنبي من خلال الإرادة الوطنية؛ أما تكتيكها: فإضعاف المستعمِرين واحداً تلو الآخر؛ أما استراتيجيتها: فإحباط مناورات المضطهِد ومحاولات تستره.

وما استرعى انتباه المراقبين في آكرا هو وجود تضامن عضوي وبيولوجي حتى على المستوى الأكثر عفوية. إنمّا طغى على هذا النوع من الاتحاد العاطفي همّ تأكيد حدة الأهداف بشكل بارز بالإضافة إلى إرادة استخدام الوسائل المتاحة كافة لطرد الاستعمار من القارة الإفريقية.

واجتمع هؤلاء الرجال والنساء لأغراض متعددة في آن هي عرض طبيعة الكولونيالية الخاضعين لها ودراسة نموذج الكفاح الممكن تبنيه وتفصيل بنية حملاتهم والضغط في النهاية على الكولونياليات المماثلة في منطقة تلو الأخرى.

لذلك نشأت إلى جانب اللجان اتصالات جرت بسرعة فائقة بين البلدان الخاضعة للوصاية والمستعمرات الاستيطانية من مثل

جنوب - إفريقيا وكينيا والجزائر ودول التجمع الممثلة بشكل أساسي بإفريقيا المسماة فرنسية.

ولاقت دول إفريقيا المستقلة استقبالاً حماسياً في أكرا. فتلك الدول هي التي رأت في نيسان/أفريل 1958 أنه لا بد من عقد اجتماع أكرا هذا للإسراع في تحرير القارة الإفريقية.

وحرصت كل من الجمهورية العربية المتحدة وتونس وغانا وإثيوبيا وغيرها من تفويض رجال ونساء يُظهرون دعم تلك الدول غير المشروط لمختلف الشعوب المكافحة حتى يمثلوها في المؤتمر.

ورحّب المؤتمر بحماسة بجمهورية غينيا الفتية الممثلة بثلاثة وزراء من حكومتها.

العنف واللاعنف: الغاية والوسائل

تم البحث في العديد من المسائل في خلال هذا المؤتمر.

ويبدو أن أهم مسألتين كانتا مسألة اللاعنف وقضية التعاون مع الأمة المحتلة سابقاً. ومن البديهي أن المسائل مرتبطة ببعضها. فإنتهاء النظام الاستعماري يمكن له في ظروف معينة أن يؤدي إلى تعاون مجدد بين الأمّتين، خصوصاً وأنه أصبح ممكناً من بعد استيعاب الكولونيالي بشكل واضح كما أنه تحقق بشكل سلمي. إلا أن التاريخ يبين أن ما من أمّة كولونيالية تقبل بالانسحاب من دون استنفاد إمكانيات بقائها كافةً.

وإذا طرحنا مسألة إزالة الاستعمار بأسلوب لاعنفي، فلا نريد بذلك أن نلتمس من الكولونيالي الشعور بالإنسانية المفاجئة تجاهنا

بقدر ما نريد أن نقتنع بإمكانية ضغط ميزان القوى الجديد بشكلٍ كانٍ على الصعيد العالمي.

فمن الواضح مثلاً أن فرنسا قد أطلقت عملية إزالة الاستعمار في إفريقيا السوداء. وأصبح هذا الابتكار الخالي من العنف ممكناً إثر فشل الكولونيالية الفرنسية المتكرر في سائر المناطق. غير أن ممثلي الأمم الإفريقية الخاضعة للاحتلال الفرنسي المجتمعة في أكرا استنكروا جميعاً بشكل واضح مناورات الإمبريالية الفرنسية.

فخاخ الكولونيالية الجديدة

أدان المؤتمرون من دون تحفظ الأفارقة الذين لم يخشوا أن يجنّدوا الشرطة لتزوير الانتخابات في الاستفتاء الأخير وإدخال مناطقهم في شراكة مع فرنسا تستبعد طريق الاستقلال لسنوات طويلة، وذلك كله حتى يبقوا في السلطة. ورأى ممثلو حكومات الظل تلك التابعة لإفريقيا الفرنسية أنه يتم استبعادهم نوعاً ما عن اللجان مع أن عددهم كمندوبين ضئيل جداً.

وبالمقابل، لاقى ممثلو الكاميرون وعلى رأسهم الدكتور فيليكس مومييه (Félix Moumié) تصفيقاً حاراً أثناء دورة منظمة الأمم المتحدة الأخيرة. وانتزعت دول أخرى مثل الكاميرون وتنغانيكا والصومال استقلالها في الوقت المناسب.

وفي عام 1960 سيصبح حوالى الستين مليون إفريقي مستقلين من جديد.

كما أن الحكومة البلجيكية المتخوّفة من الانتفاضات التي تهز إفريقيا ومن تصلّب الحركات القومية في الكونغو البلجيكي اعترفت رسمياً للتوّ بالنزعة الوطنية في الكونغو البلجيكي ونَوَت أن تقدم

في شهر كانون الثاني/جانفي برنامجاً لمنح الاستقلال بشكل تدريجي لعشرين مليون كونغولي.

وليس من المستبعد أن يحاول الكولونياليون البلجيكيون تأخير هذا الاستحقاق مرة أخرى؛ لذا، فلا بد من منح الثقة للطبقات الشعبية الكونغولية حتى تفرض جمهورية الكونغو الديموقراطية على الخريطة العالمية في خلال أقرب مهلة.

وإذا كانت بلجيكا وإنكلترا تراجعتا في نيجيريا وتنغانيكا وتراجعت فرنسا في غينيا، فالبرتغال على عكس تلك البلدان يطوّر النظام البوليسي في ممتلكاته. لذلك تم الترحيب بمندوبي أنغولا بإنفعال بالغ وجرى التعبير عن غضب عارم عند سماع ما تستخدمه السلطات البرتغالية من تدابير تمييزية ووحشية. فمن البداهة بمكان أن تكون أنغولا وجنوب ـ إفريقيا والجزائر معاقل للكولونيالية يدافع فيها الاستيطان الأوروبي عن مناطقه بأعنف وأشرس أسلوب على الأرجح.

وفي هذا الإطار، لا بد من الإشارة إلى أن الاتحاد الجنوب ـ إفريقي يحاول ضم باسوتولند وسويزيلند والانضمام إلى روديسيا لتشكيل مستعمرات إعمار جديدة. إن هذا الاستعمار التالي للاستعمار هو تحديداً إحدى الظواهر الأبرز في مرحلة تحرير القارة هذه.

الفيلق الإفريقي

في المستعمرات الإستيطانية من أمثال كينيا والجزائر وجنوب ـ أفريقيا حصل إجماع مفاده أن الكفاح المسلح وحده يستطيع إلحاق الهزيمة بالأمة المحتلة. وجرى الاتفاق على مبدأ تأسيس

الفيلق الإفريقي في أكرا ليأتي كإجابة ملموسة من الشعوب الإفريقية على رغبة الأوروبيين في السيطرة الاستعمارية.

وحين قررت الشعوب الإفريقية إنشاء فرق متطوعين في المناطق كافةً، أرادت أن تُظهر بوضوح بأنها متضامنة مع الشعوب الأخرى، لتعبر بهذه الطريقة على مدى ارتباط تحرير القارة بتحرير الوطن.

إن الشعوب المكافحة مقتنعة اليوم بأن أشقاءها الأفارقة يشاركونها القتال وبأنهم مستعدون للتدخل بشكل مباشر عند سماعهم أول نداء من هيئاتهم التوجيهية، لذلك فهي ترى المستقبل من منظار أوضح وأكثر تفاؤلاً.

وفي الاجتماعات الشعبية المنظمة في غانا وإثيوبيا ونيجيريا، أقسم مئات الرجال بأن يهبّوا لنجدة أشقائهم الجزائريين أو الجنوب ـ إفريقيين عندما يطلبون منهم المساعدة. وأعلن الدكتور نكروما (Nikrumah) في خطابه الافتتاحي أنه على إفريقيا أن تكون حرةً، وعلينا أن نغزو هذه القارة الشاسعة، فما من شيء نخسره سوى قيودنا. لقد أقسم الأفارقة في أكرا على الوفاء والمساعدة. ولن يتم استبعاد أي تحالف، فمستقبل الكولونيالية لم يكن يوماً قاتماً كما كان عشية مؤتمر أكرا.

18 ـ مساعي السيد دبري (Debré) اليائسة[1]

قدِم رئيس الحكومة الفرنسية السيد ميشال دبري (Michel debré) مؤخراً إلى الجزائر. واتصل بالسلطات الكولونيالية وحدّد لها برنامج حكومته.

وصرّح بأن «سلطة فرنسا في الجزائر هي ضرورة تاريخية وطبيعية وأخلاقية». وساهم بإيضاح هذا التصريح اتخاذه مواقف أكثر صلابة كإعلانه أمام المحاربين القدامى بأنه: «على الجزائريين جميعاً أن يعوا ويفهموا بأن كل من يسكن في هذا البلد هو مواطن فرنسي تماماً مثل أي مواطن فرنسي أصلي. ولن تقبل الحكومة البحث مجدداً في مسألة المواطنية لأي سبب كان»، أو تصريحه في كلمته الشخصية أمام مجلس الوزراء الفرنسي بالتالي: «الحقيقة أن الجزائر هي أرض سيادة فرنسية». فيشير هذان المثالان في الوقت نفسه إلى عدم تبدل السكان الفرنسيين في الجزائر وإلى أهمية الفجوة الموجودة حالياً بين إرادة الشعب الجزائري الوطنية والعناد الكولونيالي الفرنسي.

---

(1) المجاهد، العدد 37 الصادر في 25 شباط/فيفري 1959.

زمن تاريخي مزوّر

يمكن وضع برنامج السيد دبري (Debré) في إطار عقائدية كولونيالية تقليدية للغاية.

إذ يؤكد أصحاب هذه النظرية أن الغزو ينشىء صلات تاريخية. إن هذا الزمن الجديد الذي افتتحه الغزو، هذا الزمن الكولونيالي بإمتياز لأنه مسكون من القيم الكولونيالية ولأنه يكتسب علة وجوده عن طريق نفي الزمن الوطني، سيجد نفسه متأثراً بعامل مطلق. فسيحل تاريخ الغزو والنهب الوطني والتطور التاريخي للاستعمار محل زمن الرجال المستغَلين الحقيقي. وسترفض السلطة الكولونيالية ما سيؤكده المستعمَرون لحظة كفاح التحرير الوطني على أنه إرادة قطع الصلة بالاستغلال والاحتقار، لأنها تعتبره رمز همجية وتقهقر.

ذلك أن الكولونيالي يتخذ نهج تفكير خلاصة الكلام عنه أنه تافه للغاية، فيصل به الأمر الى عدم القدرة على تصور زمن يمكن إنجازه من دونه. فيؤلّه غزوَهُ تاريخَ الشعب المستعمَر ويحوّله ضرورة مطلقة. إلا أن «النظرة التاريخية إلى التاريخ» تتطلب من الكولونيالي الفرنسي أن يقوم بعكس ذلك وينسحب، لأن قيام زمن وطني في الجزائر أصبح ضرورة تاريخية.

إن تطلّب السيد دبري (Debré) التاريخي هو المعادل المُعَقْلَن للصيغة الكولونيالية القديمة: «نحن من صنع الجزائر».

فما يتم تقديمه في الواقع على أنه الوفاء للتاريخ ليس في تحليله النهائي سوى خيانة للتاريخ ورفض الكون على مستوى حقبة دحر الاستعمار، كما أنه تمرد على التاريخ. فالحس التاريخي يتطلب في عام 1959 أن يتولى عشرة ملايين جزائري

تقرير مصيرهم. واتضح منذ أكثر من أربع سنوات أن الحكومات الفرنسية المتعاقبة عاجزة عن إعطاء هذه المسألة تفسيراً موضوعياً. ولا تختلف تصريحات السيد دبري (Debré) إطلاقاً عن تصريحات قام بها السيد ليونارد (Léonard) أو السيد سوستيل (Soustelle)، إذا أعلنا في عام 1954 أن: «فرنسا موجودة في الجزائر وستمكث فيها».

وفي عام 1959: «إن فرنسا باقية».

ويذكر المتمسكون بالكولونيالية بشكل عام فكرة رئيسية أخرى هي فكرة الإتحاد غير القابل للفسخ بين الجزائر وفرنسا.

جغرافيا قوامها النوايا

بما أن هذا الاتحاد لا يمكن أن يكون عاطفياً ولا فكرياً، فعليه أن يكون اتحاداً جغرافياً. فتارةً ترى فرنسا نفسها كامتداد أوروبي للجزائر، وتارةً تكون الجزائر الامتداد الإفريقي لفرنسا.

وستعطي الصعوبات التي تواجهها أوروبا على الصعيد العالمي أولوية أكثر فأكثر وضوحاً لهذا الاتحاد الجغرافي. ففي إطار النظام الدفاعي لدى الغرب، تحتل الأراضي الجزائرية مكانة مميزة. وهذا ما سيُبرزه المدافعون العديدون عن الجزائر الفرنسية. وسيطرح السيد دبري (Debré) المسألة من هذا الجانب أيضاً حين يقول: «علينا من جهة أخرى أن نفهم أن الحرية والتقدم والأمن والسلم مسائل مرتبطة في هذا الجزء من العالم بوحدة تتعدى البحر المتوسط وفرنسا الوطنَ الأم بوابة أوروبا والجزائر رأس إفريقيا. وأي تعدٍّ على هذه الوحدة يعرّض الأمن للخطر! وكل تعزيز لهذه الوحدة يشكل ضمانة للسلام. وعلى فرنسا إذاً أن

تعدّل تصرفها حتى لا تدع أحداً يشك في إرادتها بأن تجعل هذه الوحدة أكثر صلابة من أي وقت مضى».

فعلى الجزائر إذاً أن تبقى أرضاً فرنسية لأن هذا ما تتطلبه حاجات أوروبا وفرنسا الاستراتيجية. وجغرافيا السيد دبري (Debré) هي إذاً جغرافيا تحرّكها النوايا: فسلطة فرنسا في الجزائر هو ما تتطلبه الطبيعة. إن نظام الطبيعة هو الذي يفرض على فرنسا الحفاظ على النظام الاستعماري في الجزائر. وما إن تبدأ الأنظمة أو رجالها بقراءة أعمالهم السياسية من خلال تعرجات الميدان حتى تظهر الفاشية والنازية.

فبتمديدها بعض خطوط الميدان في مخيلاتها تطرح الحكومات السلام العالمي مجدداً على بساط البحث. وتريد فعلياً أن تطلق العنان لأهوائها وتوسيع ما يسمى منذ قرون عدة بالحدود الطبيعية فيما تبقى شعوب كاملة مرمية وسط البؤس والدماء.

إن جغرافيا الجزائر تطالب أولاً بأن يكون هذا البلد مستقلاً، وهذا أمر لا يخفى على أحد.

وبعد ذلك عليها بالطبع أن تستعيد مكانتها في المغرب الإفريقي وفي العالم. ولكن نفي مستقبل الجزائر الوطني بإسم «اتحاد فرنسي ـ جزائري أكبر» هو مجرد تضليل. ولا يمكن اعتبار السيد دبري (Debré) مجدِّداً في هذا الميدان. فمنذ أربع سنوات وهذه الأعراف قائمة لدى الحكومات الفرنسية.

وتهرّباً من موضوعي التاريخ والطبيعة، وصل السيد دبري (Debré) إلى مسألة الأخلاق. وفي هذا المجال أيضاً يستعيد، ومن دون أي جهد على ما يبدو، المبادىء الكبرى للكولونيالية المتطرفة: «ماذا سيفعل الجزائريون من دوننا؟». كما قال مستعمرو

«ميديا» (Mitidja) في السابق وما زالوا يقولون اليوم: «إن كروم العنب هذه ستتحول إلى مستنقعات في خلال أربع سنوات».

ولا يختلف السيد دبري (Debré) عنهم حين يقول: «يريدون وضع الجزائر في البؤس والهمجية والدماء».

الأخلاق لنجدة الاستغلال

ولكن جرى تبني فكرة رئيسية أخرى هي أن فرنسا الوحيدة القادرة على التكفل بالجزائر بشكل مناسب.

ووحدها فرنسا تستطيع أن تتكفل اقتصادياً بالجزائر.

فكل ذلك تصاريح سيرددها السيد دبري (Debré) في العاصمة الجزائر.

«إن فرنسا مُلزَمة من الناحية الاقتصادية... إن فرنسا ملزمة من الناحية الاجتماعية... إن فرنسا ملزمة من الناحية الإنسانية لأنها الوحيدة القادرة على إبقاء وتعزيز... هذه الوحدة والأخوّة حتى في الأفكار تعطي الجزائر طابعاً وقوة فريدة في العالم».

إشارة الأزمنة! كانت هذه الحجة المثارة في بداية الغزو. إنه الكفاح ضد الهمجية والبؤس والتخلف. أمّتنا اليوم، وبعد مئة وثلاثين سنة من الاستغلال أعطتها الحق بالبقاء المناقِض لجوهره وبعد كفاح الكُتَل، بات التاريخ والاستراتيجية يأخذان المكانة الأولى.

فالأخلاق الفرنسية والقيم الفرنسية وحدها قادرة على إبقاء الجزائر في موقع «المناطق الإنسانية». وينبئنا السيد دبري (Debré) بأن رحيل فرنسا سيكون مؤشراً لإنغماس الجزائر من جديد في الفوضى والتخلف والخَبَل.

وبعد ثمانية أشهر من تولي الجنرال ديغول (De Gaulle) السلطة، ترانا عدنا من جديد إلى أشهر كفاح التحرير الأولى التي بدأها شعبنا: «إن فرنسا هي في معقلها في الجزائر لأن الجزائر هي من صُنع فرنسا. وفرنسا تحتاج إلى الجزائر، فماذا تستطيع أن تفعل فرنسا من دون الجزائر؟ والجزائر تحتاج إلى فرنسا، فماذا تستطيع أن تفعل الجزائر من دون فرنسا؟».

وخلاصةً نضيف هذا الإيضاح الوارد في كلمة السيد دبري (Debré) نفسه: «مَن سوى أصحاب النوايا السيئة بأفكارهم المبيّتة يستطيع أن يشك في قرارات الجنرال ديغول (De Gaulle)؟ ومن سوى أصحاب النوايا السيئة بأفكارهم المبيّتة يجرؤ على الشك بعدما أعلن الجنرال ديغول (De Gaulle) أنه لن تجرى أي مفاوضات سياسية؟».

لا يبدو أن الجمهورية الفرنسية الخامسة تتمتع بخيال أوسع مما تمتعت به سابقاتها. إذ استعادت التأكيدات نفسها بالعناد الأعمى نفسه واحتقار الأحداث نفسه وفهم التاريخ نفسه.

فالإدعاء في عام 1959 بأن الجزائريين جميعهم فرنسيون وبأن فرنسا باقية في الجزائر وبأنه لن تجري أي مفاوضات سياسية هو سلوك طريق تعزيز الحرب على عكس ما يفرضه المنطق.

إنه الابتعاد الأكيد عن المفاوضة والتعقل.

صحيحٌ أن هذا العمى لم يأت نتيجة خطأ في التقدير. ففرنسا وحكومتها لا تزال تحكمهما المصالح الكولونيالية. ولكننا نشهد منذ الثالث عشر من أيار/ماي تحالف هذه المصالح التقليدية مع المد الفاشي والعسكري القوي جداً اليوم في فرنسا (والممثل ببولنجي (Boulanger) ودو لاروك (De la Roque) وبيتان (Pétain)...) ومع جزء معين من رأس المال الضخم.

وطالما سيبقى هذا التحالف من دون أي مساءلة، سيكون رؤساء مجلس الوزراء الفرنسي محكومين بأن يستوحوا تصاريحهم من العرف الكولونيالي المتطرّف.

وعلينا أن نعرف أن الوقت ما زال مبكراً جداً حتى نشهد انهيار الكتلة الكولونيالية بفعل تطور المتناقضات.

فاليوم كما منذ أربع سنوات مضت، ما زالت كلمة السر تعزيز الكفاح المسلح. وعلى محاولات تحويل الأنظار من قِبل العدو أن تتوقف.

وما زال الجانب الفرنسي بعيداً جداً عن جمع الشروط اللازمة لإجراء المفاوضات. فبرنامج السيد دبري (Debré) يقوم على إشعال الحرب ونفي الأمة الجزائرية وتعميق ضمّ بلدنا.

أجل، كان وزير الإعلام السيد يزيد محقاً حين تحدث عن السيادة الفرنسية في الجزائر في عام 1959 فقال: إنه الجنون بعينه. فما من كلمة فضلى لوصف الوضع.

19 ـ هيجان عنصري في فرنسا[1]

منذ سنتين، إثر عملية فدائية قام بها جيش التحرير الوطني على الأراضي الفرنسية، وجاءت إما لإضعاف الثورة المضادة الناشطة جداً في تلك الفترة، أو لمقاومة بعض جلادي الشرطة الفرنسية، لاحظنا نمو مواقف عنصرية وتمييزية انفعالية عفوية تجاه المَغاربة. ـ وأصبح اتخاذ الحذر من العرب على الفور أمراً فطرياً على نحو شامل. وإن قام أحدهم بخطوة إضافية تنطلق المطاردة. ـ ونذكر في تلك الحقبة كيف كان القادم من أميركا الجنوبية نفسه يُخرَق بالرصاص لأنه يشبه القادمين من إفريقيا الشمالية.

وعانى المواطنون التونسيون والمغربيون أيضاً هذا السلوك العنصري. فتم إيقاف العمال التونسيين واعتقالهم وتوسيعهم لكماً... وجرى القبض على الطلاب المغربيين واستجوابهم في مركز الشرطة القضائية... وانتشرت في الشوارع الملاحظات الفظة والمهينة الموجهة إلى الأشخاص ودولهم الفتية في آن.

ونذكر في تلك الحقبة كيف كان يجري استجواب كل شخص

(1) المجاهد، العدد 42 الصادر في 25 أيار/ماي 1959.

قادم من المَغرب العربي مراتٍ عديدة وكيف كان العديد من العمال التونسيين أو المغربيين العاملين في فرنسا يقررون العودة إلى وطنهم.

وفي تلك المناسبة، جرت عادة الإعلان بأن الجزائريين وحدهم مسؤولون عمّا آلت إليه الأحداث وأن في يد الجزائريين إمكانية وضع حد لهذا الارتياب المعمّم إزاء القادمين من إفريقيا الشمالية.

وهكذا إذاً، لم يكن هذا التصرف الشديد العدائية والحقد من عناصر البنى الاجتماعية والفكرية للشعب الفرنسي، إنما أتى ببساطة كردة فعل دفاعية ذاتية لا تميز بسهولة بين مختلف سكان المغرب العربي.

تستحق التطورات الأخيرة الحاصلة على الأراضي الفرنسية أن نذكرها الآن. فستُظهر لنا من دون أدنى شك أن الارتباك في تمييز «الأجنبي المقيم» لا يمكن نسبه إلى الجهل المؤسف، إنما يجد تبريره في مبدأ تافه قوامه ترسّخ أعنف أشكال العنصرية اليوم في فرنسا، وذلك بوتيرة متفجرة بالفعل.

كاتب مطعون بخنجر

إن الحدث الأول هو الاعتداء على الكاتب الشاب أويونو (Oyono) منذ ثلاثة أسابيع. إذ كان مؤلف «حياة غلام» خارجاً من مطعم برفقة امرأة حين هوجم الثنائي وأهينت المرأة بطريقة بذيئة وجرى لطمها وركلها. أما أويونو (Oyono)، فبعد مقاومته لمهاجميه، إنهار على الأرض مطعوناً بخنجر في كتفه وتم إدخاله إلى قسم الطوارىء في مستشفى باريسي. وبدأ يتعافى بعدما

أجريت له عملية نقل دم. وصرّح علانيةً بعد شفائه بأنه لا يحس بالأمان على الأراضي الفرنسية ويستعد للرحيل.

كيف يمكننا أن نفسر هذا الحدث؟ فالمسألة ليست مجرد هجوم ضد رجل أسود ولا محاولة سرقة. فالمسألة كما نادى بها مطلقوها بما فيه الكفاية هي مسألة تأديب المرأة (إذ كانت بيضاء) وتوجيه إنذار إلى الزنجي. فقد انقض المتكالبون على أويونو (Oyono) وهم يصرخون «الموت للزنوج!».

استطاع أويونو (Oyono) قبل فقدانه الوعي أن يسلّم أحد المعتدين عليه إلى الشرطة. ولكن، ما زلنا حتى اليوم نجهل أسماء مهاجميه. ورغم اتخاذ العديد من الجمعيات مواقف صلبة، تبقى المتابعة القضائية لهذه القضية أمراً مشكوكاً فيه. والجدير بالإشارة إليه أن هذا الحادث وقع وسط الحي اللاتيني، أي وسط حي ثقافي يرتاده طلاب من الجنسيات كافةً بشكل اعتيادي. ولم يهبّ أحد لنجدة المعتدى عليه وتمكن المهاجمون من الاختفاء بهدوء تام بعد انتهاء العملية.

مهاجمة فيلم معادٍ للعنصرية...

تم تصوير العديد من الأفلام حتى الآن كخطوة تهتم بمكافحة الجو العنصري السائد في الولايات المتحدة الأميركية وغيرها من البلدان. ويمكن توجيه الكثير من الملاحظات حول الفيلم الأخير بينها «أمعاء في الشمس» الذي عُرض مؤخراً في باريس. ولكن منذ العرض الأول له، أثار شبان باريسيون صخباً هائلاً وحطموا المقاعد ولطّخوا الشاشة وأظهروا عدوانيتهم عند نهاية العرض. وانطلقت هتافات «ليسقط الزنوج» و «الموت للزنوج» و «ليحيَ هتلر (Hitler)» فقامت الشرطة «بتفريق المتظاهرين».

ومنذ أسابيع عدّة، بدأت مهاجمة المنظمات المعادية للفاشية بطريقة منظمة. وتتعرض حركة مناهَضَة العنصرية ودَعْم الصداقة بين الشعوب لحملات مستمرة علماً بأنها إحدى أبرز الحركات الناشِطة ضد العنصرية ومعاداة السامية والمكافِحة من أجل السلام، وكانت في طليعة من اتخذوا موقفاً معادياً لمبدأ خوض الحرب في الجزائر وداعماً للاعتراف بالأمة الجزائرية. فيجري اقتحام مراكزها بشكل يومي تقريباً ويتعرض أعضاؤها الموجِّهون للتهديدات وتُستخدم معهم أساليب العنف. كما ظهرت منذ بضعة أسابيع أيضاً صلبان معقوفة على جدران مدينة باريس. إن تلك الصلبان في باريس ليست سوى نُسَخ عن صلبان بدأنا نراها منذ فترة أطول في مدينتي الجزائر وقسنطنطينة.

فحين تقوم منظمة لا تخشى من إطلاق شعار: الموت للزنوج! بمهاجمة فيلم معادٍ للعنصرية في باريس في وضح النهار، يمكننا أن نقول إن الديموقراطية بحالة سيئة للغاية في فرنسا وإنه حري بالزنوج أن يغادروا السفينة.

ولكن قد يُقال لنا حينئذٍ: ألا يجدر بكم أن تتجنبوا التعميم طالما ترتكزون على هذه الأحداث وحدها؟

أليست المسألة عبارة عن مجرد مظاهرات عَرَضية يعاقب عليها القانون ويدينها الضمير الوطني الفرنسي بالإجماع؟ قد يكون من الأفضل التريث بعد. ولكن قد لا تكون تلك المظاهرات عملاً عفوياً. فحتى تنشأ وتتحقق، لا بد أن تكون قد حدثت إلى حد ما في الضمير الوطني تحديداً عملية ترسّب كافية للعنصرية ومركّب التفوق والتمييز العنصري. إن هذه المظاهرات النابعة مباشرةً من القلب، أي من قلب كل فرد من المشاركين فيها تعبر

عن علة في التربية الفرنسية تجاه بقية الإنسانية، وتأتي كذلك كتابعة حتمية لعشرات السنين من الاحتلال الاستعماري.

ألم يجد الجنرال ديغول (De Gaulle) نفسه طريق القلب هذا مجدداً بطريقة عجائبية أثناء إلقائه خطابه الأخير في بلوا؟

ألم يقل في معرض حديثه عن ضرورة عقد اتفاق بين الأوروبيين: «علينا نحن البيض والمتحضّرين أن نجد مجالاً للتفاهم»؟

تواً تحضر إلى بالنا الفقرة التالية للشاعر الأسود سيزير (Césaire):

«ما لا يستطيع بورجوازيّ القرن العشرين صاحب النزعة الإنسانية أن يسامح هتلر عليه ليس ارتكابه الجريمة بحد ذاتها أو الجريمة بحق الإنسان الأبيض، إنما تطبيقه على الأوروبيين أساليب كولونيالية لم تُطبَّق حتى الآن إلا على عرب الجزائر وحمّالي الهند وزنوج إفريقيا».

أجل، فحين تبلغ العنصرية أبعاداً مماثلة في فرنسا، يكون قد حان وقت مغادرة الزنوج للسفينة. ويبقى على أعضاء «المجتمع الفرنسي» أن يقرروا ما إذا كان مكانهم لا يزال إلى جانب من لم يتخلصوا بعد من نذالتهم وشعورهم بالحقد تجاه العرق الأسود.

20 ـ الدم يسيل في الأنتيل الرازحة تحت الاحتلال الفرنسي[1]

هكذا إذاً سلكت المستعمرات القديمة هي الأخرى طريق «التمرد». إذ بدأت بالتحرك زُهَيْرات الأمبراطورية، تلك البلدان المخصية التي أعطت العديد من الخدام الطيبين والأوفياء.

وسيشعر كل أنتيلي وغواياني أينما كانا اليوم بهزة عنيفة. فبالفعل بعدما صنّف الفرنسيون العرب بطريقة سلبية، سلّم الملغاشيون وسكان الهند الصينية بالواقع واعترفوا بأن الأمور تأخذ منحى مختلفاً مع الأنتيليين، إذ انتشر في كل مكان بأن الأنتيليين فرنسيون. وكانت أعداد هائلة من الأنتيليين والأنتيليات يصدّقون ذلك. وبالطبع كانت العنصرية تنفجر من وقت إلى آخر. وبالطبع قام نظام القناعة الزراعية الأنتيلي بإضطهاد العمال الزراعيين والحكم عليهم بالمجاعة الدائمة ولكن اكتساب صفة المواطنة الفرنسية يستحق تحمّل بعض المضايقات البسيطة. وبالطبع كانت ثلاثمئة طن من الذهب تغادر أراضي الغوايان سنوياً لتعويم فرنسا،

(1) المجاهد، العدد 58 الصادر في 5 كانون الثاني/ جانفي 1960.

ولكن أليس منح المواطنية الفرنسية من الدرجة الثانية أو الثالثة للسيد مونيرفيل (Monnerville) رمزاً وسداد دين في آن واحد؟

ولكن، رغم هذا التسميم الفكري الهائل وهذا التضليل الضخم، وُجِدَ مارتينيكيون يريدون الدخول في كفاح مفتوح ضد القوات الفرنسية ومحاصرة المفوّضيات وقطع الطرقات. وبعدما أرهقتهم ثلاثمئة سنة من الوجود الفرنسي، قام مارتينيكيون بسحب سلاحهم واحتلال فور ـ دو ـ فرانس لأكثر من ست ساعات. نتائر القتلى! والجرحى أيضاً.

قالوا لنا إن خمسة عشر شخصاً ماتوا وجُرح العشرات وتم توقيف المئات.

وتم إرسال دعم بإتجاه الأنتيل وإغراق الغوادلوب بالبحّارة ـ الرماة وجماعات الأمن الجمهورية والجنود بغية تحطيم حركة لا بد وأنها تبدو وشيكة كفايةً.

وتدعي أجهزة الاستخبارات الفرنسية أن أصل الفتنة مجرد حادث سير تافه. ربما، ولكن لمَ هذا الاتساع المفاجىء إذاً؟ لمَ أتت ردة فعل السكان عنيفة وحانقة إلى هذه الدرجة؟ ولمَ أتت ردة فعل جماعات الأمن الجمهورية على هذا القدر من العجلة والطلاقة لإنقاذ حياة «المواطنين»؟

لقد تم طرح المسألة في الواقع. وهذا أفضل بكثير. فتم البحث في وهم الأنتيل الفرنسية وصيغة «ما من مشكلة بالنسبة إلى الأنتيلي». وهذا أفضل بكثير.

وبعدما تم استيعاب السياسيين القدامى وإصابتهم من الداخل علماً بأنهم لم يمثّلوا منذ زمن طويل إلا مصالحهم الرديئة ورداءتهم الشخصية، عليهم اليوم أن يقلقوا جداً. إذ يكتشفون

فجأة أنه يمكن لفرنسا أن تعامل المارتينيكيين على أساس أنهم بكلّ بساطة متمردون. كما يكتشفون وجود فكر متمرد وفكر وطني.

عندما نظمت فرنسا استفتاءً، سأل أحدهم سيزير (Césaire) عن سبب تأييده لديغول (De Gaulle). فأجاب: ذلك لأن المارتينيكيين أقاموا رهاناً مع الجمهورية الخامسة. قال سيزير (Césaire): إن تأييدنا هو تأييد موضَّح، ففرنسا التزمت بتحسين وضعنا ومنحنا بعض الامتيازات على الصعيد المحلي.

ويبدو الآن إذاً أن الشعب يعيد طرح هذا الرهان على طاولة البحث ويطرح موضوع المسألة الوطنية. إذ لا يمكن التكتم حول المسألة الأنتيلية ومسألة الاتحاد الفدرالي الكارايبي بعد الآن. إذ تجذب تجربة الغوايان الهولندية في السابق وتلك البريطانية في السابق والمستقلتان اليوم الغوايان الرازحة تحت الاحتلال الفرنسي. وتسعى الأنتيل الرازحة تحت الاحتلال البريطاني إلى الاستقلال. ويعطي كاسترو الحاكم في كوبا الكاراييب وجهاً جديداً. نعم، لقد تم طرح المسألة.

على الفور ستقوم القوى الفرنسية وحلفاؤها رجال السياسة الحاليون من نواب وشيوخ بتحطيم تجلي الروح المارتينيكية الوطنية الأول ذاك من دون أدنى شك. ولكننا نعرف الآن أن الغوادلوبيين والمارتينيكيين والغوايانيين سينالون استقلالهم وسيبنون بلدانهم كما يريدون. والشعب الجزائري يُطَمْئِن الأنتيليين والغوايانيين بمنحهم تعاطفه الأخوي ويشجعهم على إذكاء روحهم القتالية. أما الجنود الأنتيليون والغوايانيون، الضباط وضباط الصف ممن يكافحون ضد أشقائهم الجزائريين فيما تقصف الفرق الفرنسية شعبيهم في فور - دو - فرانس أو باسّ - تير، فعليهم أن يرفضوا القتال ويفروا من الخدمة.

نعرف اليوم الصلة القائمة بين الحرب الجزائرية والأحداث الأخيرة التي أدمَت المارتينيك. إن الموظفين الفرنسيين القدامى في إفريقيا الشمالية والمطرودين من المغرب وتونس ومَن كانوا معرّضين لخطر داهم في الجزائر هم مَن حرّضوا الطبقات الشعبية المارتينيكية على الانتقام. فردة فعل الشعب المارتينيكي تشير ببساطة إلى أن الوقت قد حان لإيضاح المسائل وتبديد الخلافات.

21 ـ الوحدة والتضامن الفعّال شرطان لتحرير إفريقيا[1]

إن خلاصة تفرض نفسها بشيء من البداهة على مراقب يتابع تطور القارة الإفريقية على مدى السنتين الماضيتين: فالشعوب التابعة والرازحة تحت وطأة الاحتلال الأجنبي تقترب بشكل تدريجي من تحقيق السيادة الوطنية.

فبعد غانا وغينيا، نرى الكاميرون الخاضع للانتداب الفرنسي والتوغو والصومال الخاضعين للانتداب الإيطالي ونيجيريا تصبح جميعاً دولاً مستقلة. ولم يبق أي مجال للشك فيما تهز الاضطرابات التجمع الحديث للدول التابعة لفرنسا وينادي حكام مختلف دول التجمع بتحقيق مطالب بلدانهم بشكل صريح أو مستتر أحياناً. فقد بدأت عملية واضحة، ويمكننا القول إنه لا يمكن الرجوع عنها إذا كنا نثق بالصيغ العامة المقولبة.

(1) المجاهد، العدد 58 الصادر في 5 كانون الثاني/ جانفي 1960.

يد التاريخ هي يد الإنسان

يكتفي المراقبون المطّلعون، غير الأجانب، إذاً بالأمل المعمّم بالتطور التاريخي لما يسمّى عملية إزالة الاستعمار الموضوعية، فيما يُطلب من الأفارقة بشكل شبه ضمني أن يثقوا باستعداد الأسياد السابقين الكامل وألا ييأسوا في كل حال من الضرورات التاريخية التي تنظم تحويل الاضطهاد الاستعماري عن مساره السابق.

ومن الصحة القول بشكل قاطع إن عملية إزالة الاستعمار جارية بالفعل، ولكن من الخطأ الادعاء بشكل قاطع والاعتقاد بأن إزالة الاستعمار هذه تأتي نتيجَة جدليةٍ موضوعيةٍ وقد تأخذ سريعاً هيئة آلية مرفوضة بالكامل.

فالتفاؤل السائد اليوم في إفريقيا ليس وليد استعراض قوى طبيعية أصبحت أخيراً الآن مؤاتية للأفارقة. كما أن هذا التفاؤل ليس ناتجاً عن اتخاذ المضطهِد السابق تدابير أقل وحشية وأكثر تسامحاً. إنما يأتي التفاؤل في إفريقيا كنتيجة مباشرة لعمل الطبقات الشعبية الإفريقية الثوري، السياسي أو المسلح أو الاثنين معاً في أغلب الأحيان.

فنفهم الآن إذاً لمَ ينتاب كل قومي إفريقي وسواس إعطاء عمله بعداً إفريقياً بشكل مستمر. ذلك أن الكفاح من أجل الحرية والاستقلال الوطني مرتبط جدلياً بالكفاح ضد الكولونيالية في إفريقيا.

إن عدو الإفريقي الخاضع للاحتلال الفرنسي ليس الكولونيالية كما تمارَس حصراً ضمن حدود أمته، إنما هو أشكال الكولونيالية ومظاهر الكولونيالية، ولا فرق تحت أي راية تتم ممارستها لتعيث فساداً.

لقد اهتز حديثاً جزء كبير من الإنسانية في أسسها الأكثر عمقاً أمام تدفق إيديولوجية معينة: فالنازية أعادت إحياء أساليب التعذيب والإبادة الجماعية الممارسة في الأزمنة الغابرة.

لذا توحّدت البلدان المستهدفة مباشرةً من قبل النازية وتعهّدت في ما بينها كي لا تحرر أراضيها المحتلة فحسب، بل أن تقطع تماماً أوصال النازية وتستأصل الشر من معقله وتصفّي أنظمته.

وهكذا إذاً، على الشعوب الإفريقية أن تتذكر كذلك أنها واجهت شكلاً من النازية وشكلاً من استغلال الإنسان وممارسة التصفية الجسدية والنفسية المقصودة، وأنه عليها أن تتوقف عند مظاهر ذلك الشر الفرنسية والإنلكيزية والجنوب - إفريقية، إنما عليها أن تتعهد أيضاً بمواجهة ذلك الشر بصفته شراً منتشراً على مجموعة الأراضي الإفريقية بكاملها.

إن الدول الأوروبية مهتمة اليوم بمسألة السلام. فبعد إفراطهما في التسلح، تدرك كتلتا الشرق والغرب مذعورتين بأن كل صراع عالمي جديد سيضع مسألة بقاء الحياة على سطح الأرض نفسها موضع بحث. وستصبح المواجهة السلمية بين التصورين المختلفين للعالم مسألةً لا غنى عنها.

فلهذا الهدف بالذات انطلق الجنرال أيزنهاور (Eisenhower) في رحلته الأخيرة واجتمع مجلس حلف شمال الأطلسي في باريس وستتم المواجهة في مؤتمر قمة تَعَيّن عقدُه في الأشهر الأولى من عام 1960.

نحن الأفارقة نقول إن مسألة السلام بين البشر غير الأفارقة في هذه الحالة هي مسألة جوهرية، ولكننا نقول أيضاً إن تحرير

إفريقيا من آخر معاقل الكولونيالية يشكل المسألة الأولى بالنسبة إلينا.

وحين نقول نحن الأفارقة أننا محايدون في مسألة العلاقات بين الشرق والغرب، نقصد أن المسألة الوحيدة التي تشغلنا حالياً هي مسألة محاربتنا الكولونيالية. وهذا يعني أننا لسنا محايدين بالكامل إزاء الإبادة الجماعية الممارسة من قبل فرنسا أو إزاء التميز العنصري في جنوب ـ إفريقيا.

إن حيادنا يعني أننا لسنا مضطرين أن نتخذ موقفاً داعماً لحلف شمال الأطلسي وحلف وارسو أو معادياً لهما.

ففي إطار معركتنا المناهضة للاستعمار لا نأخذ صلابة التزامنا ودعم هذا البلد أو ذاك لنا في عين الاعتبار. وفي هذا الإطار يمكننا القول إن الشعوب المجموعة تحت اسم البلدان الشرقية تساندنا بطريقة صلبة للغاية وإن البلدان المسماة غربية تضاعف غموضها.

في الأسلحة والرجال

إن الشعوب الإفريقية ملتزمة فعلياً بكفاح شامل ضد الاستعمار، فنحن أبناء الجزائر لا نفصل بين قتالنا وقتال الروديسيين أو الكينيين. إن تضامننا مع أشقائنا الأفارقة ليس مجرد كلام، ولا تتم ترجمته بالتصويت أو التهليل لقرارات أو إدانات تجري في محفل دولي. وحين كانت الدول الكولونيالية في خطر واكتسحتها الفاشية والنازية، وحين كانت حريتها واستقلالها مهدّدين إذاً، لم تتردد في استنزاف الطبقات الشعبية الإفريقية وإرسال أكثرية «مستعمَريهم» لمواجهة المواقع النازية. أما اليوم فحرية الأفارقة واستقلالهم هما موضع بحث.

وعلى التضامن بين الأفارقة أن يكون تضامناً فعلياً، تضامناً عملياً، تضامناً حسياً بالرجال والمعدات والأسلحة.

ستتحرر إفريقيا. أجل، ولكن عليها أن تباشر بالعمل وألا تنسى وحدتها الخاصة. فبهذه الذهنية جرى تبني أحد أهم بنود مؤتمر الشعوب الإفريقية الأولى وسواه في أكرا في عام 1958. فورد في هذا القرار أن الشعوب الإفريقية تتعهد بأن تشكل جيشاً شعبياً مهمته مساندة الشعوب الإفريقية المكافحة لنيل استقلالها.

وليس محض صدفة أن تتجنب الصحافة الغربية ذكر هذا القرار. إن عنف الديموقراطيات الغربية أثناء حربها على النازية وعنف الولايات المتحدة الأميركية بإلقائها قنبلة ذرية على هيروشيما لا يشكلان مثلاً بقدر ما يظهران ما تستطيع الديموقراطيات أن تقدم عليه حين تكون حياتها في خطر.

نحن الأفارقة نقول إنه منذ أكثر من مئة سنة يعيش مئتا مليون إفريقي حياة ذل متنازَع عليها، حياة يطاردها شبح الموت على الدوام. نقول إنه لا يجدر بنا أن نثق بحسن نية الكولونياليين بل علينا أن نتسلح بالصلابة وروح القتال. فتطور القوى المادية الميكانيكي لن يحرر إفريقيا، ولكن يد الإفريقي وعقله سيطلقان جدلية تحرير القارة ويصلان بها إلى النهاية المرجوّة.

وقبيل عقد مؤتمر الشعوب الإفريقية الثاني على أبواب الجزائر الغارقة بالنيران والدماء، على الأفارقة أن يتذكروا أن ما من تفاؤل موضوعي يفرض نفسه بطريقة قد تكون آلية، إنما على التفاؤل أن يأتي نتيجة الشعور الذي يرافق الالتزام الثوري والقتال.

ففي ظل هذه الشروط، أجل يمكننا أن نكون متفائلين.

خامساً ـ الوحدة الإفريقية

1 ـ إفريقيا المرتقبة تلك

ملحوظة: [عقد عقداء ولايات جيش التحرير الجزائري اجتماعاً في شمالي قسطنطينة في نهاية العام 1958. وتنبهوا في تلك المناسبة إلى خطر إخماد الكفاح المسلح تدريجاً في الداخل بعدما قام العدو بالتجهيز لذلك (من خلال المناطق الممنوع الدخول إليها ومخيمات التجمعات الهادفة إلى فصل جيش التحرير الجزائري عن سائر السكان).

وقررو إرسال عقيد الولاية الثالثة أميروش (Amirouche) إلى تونس حتى يشرح الوضع لحكومة الجمهورية الجزائرية المؤقتة وتحديد سبل تزويد الداخل بالسلاح والذخيرة والمال.

ولم يستطع العقيد أميروش (Amirouche) أن يصل إلى مدينة تونس، فالعدو قام باغتياله أثناء رحلته في منطقة بو ـ سعاده في آذار/مارس 1959.

ولمواجهة هذا الوضع، قرر المجلس الوطني للثورة الجزائرية خلال اجتماعه في خريف عام 1959 إنشاء مجلس قيادة.

وبعدما عزز الجيش الفرنسي تجهيزاته على الحدود (خط شال)، بات من الصعب تموين الداخل بالذخيرة عبر المغرب وتونس.

وفي آذار/مارس 1960، تم تعيين فانون (Fanon) في أكرا. فاستطاع أثناء إقامته في إفريقيا الغربية أن يفكر في احتمال تعزيز الوضع في الداخل من خلال الحدود الجنوبية أي من خلال الحدود مع مالي. وقام لهذه الغاية بإتصالات مع المسؤولين في مالي واطلع القادة الجزائريين على اقتراحاته فقرروا إنشاء قاعدة ثالثة في جنوب الصحراء لنقل الأسلحة إلى الولايتين الأولى والخامسة.

وقام فانون (Fanon) بكتابة الملاحظات التالية أثناء مهمة الاستطلاع عن هذه القاعدة وتجهيزها في خلال صيف عام 1960.

وألحقنا بيوميات رحلته هذه بعض الإرشادات التقنية بشكل ملاحظات سريعة لم يتممها فانون (Fanon) إنما درس فيها مختلف الحلول الممكن تبنيها على صعيد العمليات البحت].

تحريك إفريقيا والمساعدة على تنظيمها وتجميعها وراء مبادىء ثورية والمشاركة في حركة قارة منظمة هو تحديداً العمل النهائي الذي اخترت القيام به. فشكلت غينيا قاعدة الانطلاق الأولى أو الركيزة الأولى، ثم مدت مالي رأس الجسر وأفسحت المجال للتطلع نحو أهداف غالية بعدما صممت على المشاركة حتى النهاية بكل حماستها وعنفها وتماسكها وصلابتها الفريدة. وفي الشرق كان لومومبا يراوح مكانه. فمع أن الكونغو يشكل الشاطىء الثاني لإيصال الأفكار الثورية، وجد نفسه عالقاً في شبكة تناقضات عقيمة مضنية. وكان لا بد من الانتظار قبل البدء باستثمار معاقل الاستعمار المسماة أنغولا والموزامبيق وكينيا واتحاد جنوب - إفريقيا استثماراً فعالاً. ومع أن كل التحضيرات كانت جاهزة، ترى نظام الدفاع الاستعماري رغم انشقاقه يحيي المصالح القديمة ويطفىء الحمم التحريرية. فلا بد حالياً إذاً من التمسك بالكونغو والمضي نحو الغرب. وبالنسبة إلينا نحن الجزائريين، كان الوضع بمنتهى الوضوح. ولكن الطريق بقي وعراً وشاقاً للغاية. فكان لا بد لنا أن نثبت انطلاقاً من الغرب ومن خلال دلائل ملموسة بأن القارة موحّدة وبأنه من الممكن تحديد نقاط واضحة وراء خيارات القادة العامة تلتقي عندها الشعوب والرجال والنساء وتتعاون وتبني معاً. فشبح الغرب والصبغات الأوروبية ما زالت حاضرة وفاعلة في كل مكان. وما زالت المناطق الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية مناطق حية: أكسفورد بمواجهة السوربون، وليشبونة بمواجهة بروكسل، والقادة

الإنكليز بمواجهة القادة البرتغاليين، والاسترليني مقابل الفرنك والكنيسة الكاثوليكية مقابل البروتستانتية أو الإسلام. وبالإضافة إلى كل ذلك، كانت الولايات المتحدة تتغرز في كل مكان، تسبقها الدولارات ويبشر بقدومها أرمسترونغ (Armstrong) والدبلوماسيون الأميركيون السود والمستثمرون وناشرو صوت أمريكا... ودعونا لا ننسى ألمانيا العمالية وإسرائيل التي تستصلح الصحراء...

إنه عمل شاق. ولكن لحسن الحظ، ففي كل زاوية نرى سواعد ترسل لنا الإشارات وأصوات تجيبنا وأيادي تمسك بأيادينا. يبدو إذاً أننا على طريق النجاح.

فنسمع ذاك الضجيج السريع والمطمْئن آتياً من مدن محرّرة تقطع حبالها وتتقدم بفخامة إنما من دون أي شعور بالعظمة. ونرى أولئك المحاربين القدامى، وقد أنجزوا امتحاناتهم كافةً وكللوها بالنجاح، يجلسون اليوم معاً ليتذكروا. ولكن الشمس ما زالت مرتفعةً جداً في السماء، وإذا ألصقنا أذنينا بالأرض الحمراء سمعنا بوضوح بالغ صلصلة السلاسل المصدّاة وأصوات الإعياء والضيق، فتشعر بالذهول حين تعي أن الجروح ما زالت حاضرة بقوة في هذا الجنوب القاتل. إنها إفريقيا المُعاشة. ليست إفريقيا الخاصة بالشعراء طبعاً ولا تلك النائمة، إنما تلك الحائلة دون النوم لأن الشعب يتلهف للعمل واللعب والقول. فالشعب الذي يقول: أريد أن أؤسس نفسي كشعب وأريد أن أبني وأحترم وأنشىء، هو نفسه الذي يبكي حين تقولون: آتٍ من بلدِ النساء فيه محرومة من أطفالها والأطفال من أمهاتهم، ثم تغنون الجزائر، البلد الشقيق، البلد المنادي، البلد الذي يرجو.

إنها إفريقيا بعينها. وعلينا إطلاق إفريقيا المختارة تلك نحو

خط القارة، بإتجاه القارة. وعلينا توجيه إفريقيا المختارة تلك وتعبئتها ودفعها إلى الهجوم. إنها إفريقيا المرتقبة تلك بالفعل.

في الغرب كوناكري وباماكو. إنهما مدينتان ميتتان في الظاهر ولكن الحرارة في باطنهما لا يحتملها من يحسب ويخطط ويستقر. ففي كوناكري وباماكو يقوم رجال ونساء بضرب إفريقيا وصهرها بحب وحماسة.

مومیي (Moumié) في الثلاثين من أيلول/سپتمبر التقينا في مطار أكرا. كان ذاهباً إلى جنيف لإجراء مقابلات بالغة الأهمية. وقال لي إننا سنشهد تقهقراً كبيراً للاستعمار في الكاميرون في ظل ثلاثة أشهر...

في طرابلس لم يسمح لنا الضباب بالهبوط، فكانت الطائرة تدور فوق المطار طوال ثلاث ساعات. إلا أن الطيار أراد الهبوط بأي ثمن. ورفض برج المراقبة إعطاءه الإذن المطلوب، ولكن الطيار الشجاع وغير المبالي قرر إنزال طائرته بأطنانها البالغة عشرة آلاف. فقال لي فيليكس (Félix): «إن هؤلاء الرجال يستخفون بحياة الناس». هذا صحيح. ولكن ألسنا نحن الآخرين نستخف أيضاً بحياتنا؟ وما بسالة الطيار هذه مقارنةً بحياتنا المعلقة على الدوام؟ اليوم فيليكس (Félix) أصبح ميتاً. كان من المفترض أن نلتقي بعد خمسة عشر يوماً في روما. إلا أنه لم يأت. رآني والده الواقف في مطار أكرا أصل بمفردي، فخيّم حزن كبير على وجهه.

وبعد يومين أعلمتنا برقية بأن فيليكس (Félix) دخل المستشفى، ثم بأنهم يشكّون بعملية تسميم. فقرر نائب رئيس اتحاد الوطنيين الكونغوليين كينغي (Kingué) ومارت مومیي

(Marthe Moumié) الذهاب إلى جنيف. وبعد بضعة أيام بلغنا الخبر بأن فيليكس موميي (Félix Moumié) قد توفي.

لم نحس إطلاقاً بهذه الميتة. كان اغتيالاً ولكنه كان عبثياً. لم يجر إطلاق الرصاص من رشاش أو رمي قنابل، بل حصل تسميم بالتاليوم. لم أستطع أن أفهم ما يجري. تسميم بالتاليوم! كيف تمكنوا من إدراك ذاك السبب؟ موت عبثي ضرب الرجل الأكثر واقعيةً وحياةً واندفاعاً. كانت نبرة فيليكس (Félix) مرتفعة دوماً. وكان عدائياً وعنيفاً وحانقاً ومغرماً ببلده ومبغضاً للجبناء والمناورين. وكان عبوساً وقاسياً ونزيهاً. ومثل الروح الثورية في ستين كيلوغراماً من العضلات والعظام.

في المساء ذهبنا لتعزية رفاقنا في الكاميرون. وكان الأب يستمع إليّ أحدّثه عن ابنه بوجه مهموم إنما هادىء وجامد. وتدريجاً بدأ المحارب يأخذ مكان الأب. فقال: أجل، إن الخطة واضحة ولا بد من الالتزام بها. فذكّرني والد موميي (Moumié) في تلك اللحظة بالأهالي في الجزائر الذين يسمعون بشيء من البلاهة قصص موت أبنائهم، ومن وقت الى آخر يستفسرون ويطالبون بتوضيح ثم يغرقون من جديد في جمود شعوري يخطفهم إلى مكان يحوي أبناءهم الآن بحسب ظنهم.

ولكن الحركة ابتدأت. وغداً، بعد حين، لا بد من نقل الحرب إلى أرض العدو ومطاردته وتعقبه والتضييق على أنفاسه.

فلنرحل إذاً. ومهمتنا هي: فتح الحدود الجنوبية؛ ونقل الأسلحة والذخائر من باماكو؛ ثم تحريض سكان الصحراء الغربية على العصيان والتسلل حتى أعالي الهضاب الجزائرية وبعد حمل الجزائر إلى أقاصي إفريقيا، الصعود مجدداً بإفريقيا كلها نحو الجزائر الإفريقية، نحو الشمال، نحو مدينة الجزائر القارية. وما

أريده هو: إنشاء خطوط كبرى وقنوات ملاحة كبرى عبر الصحراء وإنهاك الصحراء وإنكارها وتجميع إفريقيا وإنشاء القارة. أريد أن يندفع على أرضنا من داخل مالي الماليون والسنغاليون والغينيون والغانيون والنيجيريون وسكان التوغو وساحل العاج أيضاً. أريدهم أن يتسلقوا جميعاً منحدرات الصحراء ويتدفقوا إلى معقل الاستعمار، فيقلبوا العبثي والمستحيل رأساً على عقب ويطلقوا قارة تقتحم متاريس القوة الاستعمارية الأخيرة.

نحن ثمانية: نؤلف مغواراً قوامه الجيش والنقل والمندوبون السياسيون والقسم الصحي. وعلى كل عنصرين منهم أن يدرسا إمكانيات العمل وفق نظامهما الخاص. ولا بد من الإسراع، فالوقت يداهمنا والعدو ما زال صلباً، فهو في الواقع لا يظن أنه من الممكن هزمه عسكرياً. ولكنني لم أحس يوماً أن النصر ممكن كما أشعر به قريباً في متناول يدنا الآن. إذ يكفي أن نمشي ونهاجم، ولا نحتاج حتى إلى خطة تكتيكية. ولدينا كتائب معبّأة وساخطة، مغرمة بالقتال ونشيطة في عملها. فإفريقيا بكاملها إلى جانبنا، ولكن ما من أحد يهتم للأمر. ستتحرك قارة بأكملها وأوروبا تنام وتسترخي. منذ خمس عشرة سنة كانت آسيا مَن ينقض فيمرح الآخرون. أما اليوم، فأوروبا والولايات المتحدة تنتصب كلها فيما يقوم ستمئة وخمسون مليون صيني ببناء عالم لهم وحدهم متسلحين بسر نجاحهم العظيم وهدوئهم الدائم. إنها ولادة عالم جديد.

شوقي (Chouki) يا له من رجل غريب. إنه قائد جيش التحرير الوطني الآتي من السوف. قصير وبارد وعيناه شرستان كعيني مقاومي الحرب العالمية الثانية القدامى إجمالاً. منذ زمن بعيد وأنا أرى أقدمية المقاوم في لمعان عينيه. فهاتان العينان لا

تخدعان أبداً، بل تقولان صراحة إنهما شهدتا أحداثاً صعبة: من نمع وتعذيب وقصف وملاحقة واغتيال... نلاحظ في هاتين العينين شيئاً من التعالي والقسوة شبه الإجرامية. فلا أحد يستطيع تهويلهما. ومع أمثاله من الرجال، نعتاد سريعاً على الانتباه لما نقوله. يمكننا أن نقول لهم ما نريد، ولكن عليهم أن يشعروا بالثورة تشتعل في ألفاظنا ويلمسوها في مدى صدقنا. فمن المستحيل خداعهم أو استغلالهم أو الاستهزاء بهم.

حالياً نتشارك أنا وشوقي (Chauki) السرير نفسه. فتدوم نقاشاتنا طويلاً كل ليلة ويذهلني دوماً بذكائه ووضوح أفكاره. لقد نال شهادته من الجامعة الإسلامية في تونس وأراد أن يطلع على الحضارة الغربية. فاستقر في مدينة الجزائر ليتعلم الفرنسية ويراقب الأحداث ويحكم عليها ويميز بينها. ولكن جو الجزائر في ظل احتقار المستعمِرين وجهله اللغة الفرنسية بالكامل وانغلاق الوسط الأوروبي على نفسه ظروف دفعته إلى السفر إلى فرنسا. فعاش في باريس لمدة سنتين وتعرّف بالأوساط الأوروبية الضيقة وغزا المكتبات والتهم مئات الكتب.

وفي النهاية عاد إلى الجزائر ونوى أن يحرث أراضي والده. وفي عام 1954، أخذ بندقية الصيد وانضم إلى رفاقه. فكان يعرف الصحراء الجنوبية معرفة ممتازة. وتعجز تلك المساحة الصحراوية الشاسعة والمدهشة بملايين التفاصيل حين يتحدث عنها. فبزواياها المأهولة وطرقها الخطرة ومناطقها المميتة وجهات الدخول إليها، تصبح الصحراء عالماً فعلياً يتطور فيه شوقي متحلياً بجسارة خبير الخطط الحربية الاستراتيجية وبُعد نظره. ولن يشك الفرنسيون إطلاقاً بما يحضّره هذا الرجل من حيل لخداعهم.

عليّ القول إن مهمتنا أوشكت أن تنتهي في قاعات

الاستجواب في الجزائر. فمن أكرا أكّد لنا مينسا الموظف في خطوط طيران غانا أننا نسلك طريق مونروفيا ـ كوناكري وطلب منا عشرات آلاف الفرنكات لإجراء الحجز كما يفعل في كل مرة. ولكننا تبلغنا في المطار الليبي أنْ لا مكان لنا على الطائرة وأنه علينا الانتظار حتى اليوم التالي لبلوغ كوناكري بواسطة خطوط الطيران الفرنسية. وعاملنا الموظفون بلطف على غير عادتهم واقترحوا علينا أن ندع الشركة تتكفل بمصاريف الرحلة كاملة. ولكننا قررنا أن نغير طريقنا تحديداً بسبب ذاك الاهتمام المثالي وواقع أن بعض الموظفين يحملون الجنسية الفرنسية وتصرف موظفة فرنسية بلطف وتملق معنا كما لو كانت قيّمة على ملهى. فقررنا أن نغادر مونروفيا عبر البر وندخل غينيا ليلاً عبر نزيريكوري.

وحتى اللحظة الأخيرة بقي الموظفون مقتنعين بأننا سنستقل الطائرة علماً بأنها تأخرت ساعتين في ذلك النهار.

ولكن تكلف المكتب الفرنسي الثاني بإنهاء المهمة على أحسن وجه. إذ عادت الطائرة أدراجها عند مغادرتها روبرتسفيلد. وعوضاً من التوجه إلى فريتاون، هبطت في أبيدجان حيث فتشتها القوات الفرنسية.

ومن الواضح أن للحكومة العاجية الضلع الأكبر في هذه المسألة. فلا يمكن لعملية مماثلة أن تجري من دون تواطئها أو ترحيب منها على الأقل. وما زال هوفويه بوانيي (Houphouet-Boigny) يؤدي دوراً بارزاً في النظام الاستعماري الفرنسي بعدما حاول البعض تبييضه. وستربح الشعوب الإفريقية الكثير إذا ما استطاعت عزله وتسريع سقوطه. ويمكننا أن نعتبر بشكل موضوعي بأن هوفويه ـ بوانيي (Houphouet-Boigny) هو رادع تطور إفريقيا

وتحريرها الأكثر وعياً على الإطلاق. ولكن المكتب الثاني اضطر في النهاية أن يأكل أصابعه ندامةً. إذ لا تثمر عملية مماثلة إلا إذا نجحت. ويكشف الفشل العلني في هذه الظروف أساليب لصوصية تكاد توتّر مَن قيلَ أن يُغلق عينيه.

وآمل في كل حال أن تكون الاستخبارات الفرنسية قد فقدت كل أثر لنا وها نحن في باماكو عاصمة مالي. ولحسن الحظ أن المحارب الدائم موديبو كيتا (Modibo Keita) يفهم بسرعة، فلن نحتاج إلى خطابات طويلة وستنقضي جلسات عملنا على جناح السرعة. وهكذا اتفق معه رفاقنا في النقل بسرعة فائقة وقرروا إنشاء مكتب تنصت في كايس. وأظن أنهم سيباشرون العمل فيه خلال مهلة أقصاها الخامس من كانون الأول/ديسمبر. وحالياً ننزل في مركز الاستقبال التابع لثكنة باماكو. ونستعد للقتال طوال هذه الفترة. أما نكروما (Nikrumah) فلم يصل في زيارته الأخيرة إلا في الحادي والعشرين من الشهر الجاري.

ما زال العنصر الفرنسي في باماكو مهماً. فالمكتبات والصيدليات والمحلات التجارية تعود بمعظمها إلى مستعمرين فرنسيين. وقد نلتقي في أيّ مكان بقائد أو حتى برقيبين... ووصل البارحة في العشرين من الشهر الجاري معاون فرنسي يخدم في جيش مالي، وأتى من سيغو مع فرقة إلى مركز الاستقبال. فقدّم نفسه بتهذيب فائق وصافحنا جميعاً. وأراد أن يعرف ما إذا كنا نستطيع أن نؤمن له سريراً. لا بد أنه يتمتع بحس الدعابة. ولكن، في كل حال، كنا قد وضعنا حارساً مسلحاً منذ الساعة الثامنة ليلاً. فمن وقت إلى آخر، تدور سيارات يقودها أوروبيون حول الفيلا. لم يكن هذا المكان آمناً تماماً. ولكن لحسن الحظ

تسارعت الأحداث. وانطلقنا صباح الثلاثاء في الثاني والعشرين من الشهر الجاري في الساعة الخامسة نحو غاو. إلا أن الطريق بين باماكو وتومبوكتو لم يكن سالكاً.

من باماكو وصلنا إلى سيغو حيث استقبلنا جوانيل (Jouanelle). ملأنا السيارة بالوقود قبل الوصول إلى سان ثم بلغنا موبتي. وواجهنا عائقاً في موبتي. فعند مخرج المدينة استوقفنا حاجز درك وطلب منا الحراس جوازات سفرنا. وأجرينا معهم حديثاً شاقاً لأنهم لم يكتفوا بتصريح وزير الداخلية، بل أرادوا أن يتحققوا من هوياتنا. وفي النهاية وصل رئيس القسم وتمكنتُ من تقديم نفسي. ولكن بدا لي أننا كنا في حضرة رجل يبغي الاستعلام. وأراد معرفة طبيعة مهمتنا وصِفَة من يرافقني.

فغضبت على الفور وطلبت منه أن يحتجزني لرفضي إبراز الأوراق المطلوبة. ففهم بعدما وضعته في هذا الموقف أنه ارتكب خطأً وتركنا نرحل ووعدنا بأن يحفظ سرنا. أما الطريق بين موبتي ودوونتزا فشكلت لنا تحدياً. واضطررنا أن نتبين آثار عجلات سيارة مرت من هنا منذ ستة أشهر ونتبعها وسط غابة. فشكل استكشاف مماثل في الظلمة الحالكة عملية شاقة للغاية وتهنا مراتٍ عدّة. وأخيراً وصلنا في الثانية صباحاً. ولكننا لم نجد أحداً في القرية. وبما أن القائد غائب، أرسلتنا زوجته إلى المعسكر... فاتضح أنه مقفل. فتمدد البعض في السيارة وآخرون في مكان قريب، واستطعنا رغم الظروف أن نأخذ قسطاً من الراحة. وفي السابعة انطلقنا نحو غاو عبر هومبوري. وفي التاسعة ليلاً قرعنا باب القائد. وبعد عشر دقائق باشرنا بالعمل. ويبدو أن العملية ناجحة وأن الماليين مصممون حتماً على مساعدتنا على إنشاء هذه الجبهة الثالثة. قديما تحدثوا عن رحلة لوكلير (Leclerc) كما لو

كانت حدثاً رائعاً. وإن لم تفهم الحكومة الفرنسية ماذا يجري في الوقت المناسب، فستتحول واقعة لوكلير (Leclerc) إلى رحلة عادية مقارنةً بما نحضره لهم. لقد عثرنا في غاو على مراجع كاملة حول التخوم الجزائرية ـ المغربية تركتها الاستخبارات الفرنسية وراءها. وذكرت فيها كل أسماء الجزائريين الذين يعيشون هناك، وذكرت أيضاً في الهامش مدى ترحيب هؤلاء بالأفكار الوطنية أو رفضهم لها. كما عثرنا بسهولة على النسخة السلبية لصورة تبيّن بُنية خَلِية عمل ومرور. فالشكر للقائد كاردير (Cardaire).

وبعد يومين أمضيناهما في غاو، اتجهنا إلى أغرهوك. وطلب منا قائد غاو أن نخلع عنا ملابس إفريقيا الغربية وقدّم إلى كل منا لباساً لائقاً خاصاً بخيالة شمالي إفريقيا مع رشاش ماس 36 وعشرين رصاصة. وستسنح لنا الفرصة لاحقاً لقتل طائر حبارى وعدة ظباء.

والتقينا في أغرهوك برئيس شعبة كيدال حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكان برفقة رئيس مركز تيساليت. فقدّمنا أنفسنا. وبعد نصف ساعة بدأنا بمناقشة الخطة الاستراتيجية والميدان ووسيلة العبور...

إنه لمن المثير أن نعيش لحظات مماثلة. إذ لم يلزمنا سوى أن يعرف مسؤولان مَن نكون حتى يتضح بيننا تواطؤ كان مستتراً قبل ذلك. فأعطيانا كل ما طلبناه منهما. وسألناهما إذا كنا نستطيع أن نرى الحدود عن قرب وتيساليت وبوريسا قبالة تير زاواتين حيث يهيىء الفرنسيون مطاراً بشكل مفاجىء...؟ فوافقا على الفور.

وها نحن قد انطلقنا لنجتاز درباً يبلغ حوالى الألف كيلومتر. ولم نحس بالرتابة في هذا الجزء من الصحراء، حتى أن السماء فوقنا كانت تتغير باستمرار. فمنذ بضعة أيام شهدنا غروباً أحال

ثوب السماء بنفسجياً. أما اليوم فالأحمر الداكن يحد الرؤية. اجتزنا أغرهوك وتيساليت وبوريسا. وفي تيساليت عبرنا داخل المعسكر الفرنسي. فرفع جندي فرنسي يديه ليرحب بنا، ولكن ذراعيه كانا ليسقطا لو استطاع أن يكشف هوية من يختبىء وراء ملابس الأفارقة الشماليين هذه.

وفي بوريشا اتصلنا بجماعة رحّالة من مالي. فاستفهمنا منهم بالتفصيل عن معلوماتهم حول القوات الفرنسية لا سيما حول برج الحجاج وتير زاواتين والمنطقة الخامسة. كما استطعنا أن نكوّن فكرة دقيقة جداً حول مكان أبعد هو تامنراست من خلال مقارنة معلوماتنا بمعلوماتهم. ويبدو أن مرشدينا في بوريسّا جديون ومصممون. فلا بد من إعطاء الأولوية لإرشاداتهم.

وفي كيدال انكببتُ على قراءة كتب حول تاريخ السودان. فأحسست وكأنني عرفت شخصياً ماضي إمبراطوريات غانا ومالي وغاو القديمة ورحلة الجنود المغاربة المدهشة مع جودر الشهير وشعرت بها بقوة منحني إياها مروري سابقاً في هذه الظروف والأمكنة بالذات. واكتشفت أن الأمور ليست بسيطة كما تخيلتها. فها هي الجزائر تخوض حرباً وتطلب المساعدة من مالي. وفي هذا الوقت يطالب المغرب بموريتانيا وبجزء من مالي... كما يطالب بجزء من الجزائر.

إن هذه المنطقة الصحراوية يحرّكها على التوالي نفوذ أطراف عديدة ولا يكف الضباط الفرنسيون عن خلق نواة انشقاق فيها. وها نحن نستعد لقلبها رأساً على عقب من خلال تحويلها إلى أرض معركة يستلزم فيها التحلي بالكثير من الشدة ورباطة الجأش. ولا بد من مضاعفة التعقل بعد جمع الملاحظات من مصادر عدة والتحلي بالحذر الشديد حين تتعلق المسألة بالإسلام والعرق.

فالحق يقال إن الاستعمار ومشتقاته ليسوا أعداء إفريقيا الفعليين. وستتحرر هذه القارة في القريب العاجل. ولجهتي، فكلما توغلت في الثقافات والأوساط السياسية، كلما ازداد يقيني بأن أعظم خطر يهدد إفريقيا هو غياب الإيديولوجيا. لقد عانت أوروبا القديمة الأمَرّين لقرون عديدة قبل إنجاز وحدة دولها الوطنية. وكم خاضت من حروب حتى عندما كانت تستطيع أن تنهي المسألة! أما اليوم فنشهد اختفاء العداوات القديمة والمطالبات التقليدية بتوسيع الأراضي اختفاءً مذهلاً بفضل انتشار الاشتراكية في أوروبا الشرقية. وعوضاً من بؤر الحروب والاغتيالات السياسية الممثلة ببلغاريا وهنغاريا وإستونيا وسلوفاكيا وألبانيا، وُلد عالم متماسك هدفه بناء المجتمع الاشتراكي.

وبالمقابل، فإن البلدان الطامحة إلى نيل الإستقلال في إفريقيا تتسم بعدم الاستقرار تماماً كبورجوازياتها الحديثة أو أمرائها المجدّد لهم. فبعد قيامها بعدة خطوات مترددة داخل الساحة الدولية، اكتشفت البورجوازيات الوطنية فجأةً أنها تتمتع بشهية كبيرة لا سيما بعدما غاب عنها تهديد السلطة الاستعمارية التقليدية. وبما أنها لم تختبر يوماً العمل السياسي، نَوَت أن تدير هذه العملية كما تدير أعمالها التجارية. وأعني بذلك قبض العمولات وإطلاق التهديدات وحتى نهب الضحايا بالفعل. وكل ذلك مؤسف حقاً لأن ما من حيلة أمام الدول الصغيرة إلا أن تتوسل الدول المستعمِرة قديماً حتى تبقى قليلاً بعد. كما أن السياسة العسكرية المتبعة إلى حد بعيد في شبه الدول الإمبريالية هذه تسبب تدنياً في الاستثمارات العامة لا سيما أن بعض مناطقها ما زالت رازحة في القرون الوسطى. ويخضع العمال الساخطون لقمع يوازي بظلمه القمع الذي قاسوه خلال الفترات الاستعمارية.

وتتم محاصرة النقابات والأحزاب السياسية المعارضة فتضطر أن تجتمع خفيةً في معظم الأحيان. ويبدأ الشعب بالتساؤل حول مدى واقعية انتصاره فيداه فارغتان ومعدته خاوية بعدما ضحى بكل ما يملك في ساعات كفاح التحرير الوطني الصعبة.

منذ ثلاث سنوات تقريباً وأنا أحاول إخراج فكرة الوحدة الإفريقية الضبابية من تخبط أغلبية مؤيديها صراحةً في الذاتية وحتى في الأوهام. فالوحدة الإفريقية مبدأ نود من خلاله أن نحقق اتحاداً بين الدول الإفريقية كافةً من دون المرور بالمرحلة الوطنية البورجوازية المتطرفة بما يرافقها من حروب ومآتم.

وللبدء بهذه الوحدة، يمكن إجراء تركيبات مختلفة.

فبعض الدول مثل غينيا ومالي وربما غداً الجزائر تعطي الأهمية القصوى للعمل السياسي فيما تشدد دول أخرى مثل ليبيريا ونيجيريا على التعاون الاقتصادي. أما الجمهورية العربية المتحدة فتشدد من جهتها بشكل أكبر على الناحية الثقافية. إن كل الإمكانيات واردة، وعلى جميع الأطراف أن تتفادى التقليل من اعتبار مَن يرى هذه الوحدة وهذا التقرب بين الدول الإفريقية بطريقة مختلفة، وعليها أن تتقبل الاختلاف في الآراء. ولا بد لها من تجنب التوتر بين غانا والسنغال، والتوتر بين الصومال وأثيوبيا، وبين المغرب وموريتانيا، والتوتر داخل الكونغو... ويبدو في الواقع أن الدول المستعمَرة التي نالت استقلالها عبر الكفاح السياسي لا يشغلها إلا البحث عن أرض معركة لها لتشهد فيها الجروح والدمار. ولكن من الواضح أننا لا نرضى بتفسير نفسي مماثل يستند إلى فَرَضية الحاجة إلى إطلاق العدائية. وعلينا أن نستند مرة أخرى إلى البيانات الماركسية. فالبورجوازيات المنتصرة تكون الأكثر مبادرةً واندفاعاً لضم الدول الصغيرة إلى

الدول الكبيرة على الإطلاق (لذلك قامت البورجوازية الفرنسية في خلال عام 1789 بتدمير أوروبا).

إرشادات تقنية

1) مرور الشاحنات: صعب تحقيقه في الحالة الحاضرة. لا بد من تحضير المسألة والاتصال بالسائق، ثم دراسة العملية ودراسة الودائع. وعليّ أن أسأل عن المطلوب فعله إذا كنا نريد أن نؤمن الحد الأدنى من التدابير الاحترازية لضمان الحد الأقصى من النجاح، وذلك ضمن فترة تحضير تستغرق ثلاثة أشهر على الأقل ابتداءً من التاريخ الفعلي لبدء تطبيق المشروع.

2) تنحصر المسألة في معرفة ما نريده بالضبط:

أ) إما إمداد القوات الرابضة الآن في الصحراء؛

ب) أو إمداد الولايتين الأولى والخامسة وبقايا السادسة؛

ج) أو إنشاء سلسلة خطوط هجومية عمودية مع خريطة التلال حتى تلتقي عند الحاجة بالولايات الموجودة في الأصل وتعمل بالاتفاق معها.

حتماً سيجيبونني بأن هذه الخيارات ليست مطلقة وأنه يمكن احتواء هذه الاحتمالات الثلاثة في برنامج واحد. في كل حال، لا بد من إعطاء الأولوية لواحد من هذه الإمكانيات الثلاث حتى وإن توجب على مجموعة العملية الصحراوية أن تحوي الثلاثة معاً.

شخصياً، أميل إلى النقطة ج.
ولكن كيف ننجزها؟

قبل كل شيء، علينا حمل الحد الأقصى من المعدات إلى الحدود، وذلك في خلال الشهرين القادمين:

10000 بندقية؛

4000 قذيفة رشاشة؛

1500 رشاش؛

600 سيارة مصفحة؛

3 إلى 400 قاذفة صواريخ.

وعلينا الاحتفاظ بالألغام والقنابل اليدوية غير الممكن استخدامها في الصحراء لإمداد ولايات الشمال بها.

فماذا نفعل بهذه الأسلحة؟ أعني كيف نحقق العملية؟

أرى المسألة بإتجاهين مختلفين:

الأول عمودي؛

والثاني أفقي.

الاتجاه الأفقي هو اتجاه الإنشاء، أما العمودي فإتجاه الدخول.

يعرف حوالى الأربعين عنصراً الصحراء، ويمكن تسمية محاربين ممتازين ليترأسوا المغاوير.

وستتقدم هذه المغاوير بأقسامها العشرة. ويمكن لكل مغوار أن يحوي في البداية بين العشرين والخمسة وعشرين عنصراً، وعلى الرؤساء أن يتكفلوا بإيصال العدد سريعاً إلى مئة وحتى إلى مئة وخمسين. وسيتم اختيار المجندين بدايةً ضمن الإطار المحلي: إما عناصر جزائريين مقيمين في مالي أو حتى عناصر بربر من مالي. ويمكن إنجاز ذلك في شهر ونصف. ويمكننا أن نسلّح من 500 إلى 800 رجل وإدخالهم إلى الجزائر في مدة أقصاها 15 كانون الثاني/ جانفي.

إنها أول موجة تسييس وتعبئة. ولا بد من تجنب أي اشتباك أثناء هذه الفترة وتمرير مناسبات ضرب العدو الملائمة كافةً حتى ولو كان النجاح مضموناً. فدورها ينحصر في توعية السكان وطمأنتهم بشأن المستقبل وعرض عتاد جيش التحرير الوطني وتحريرهم نفسياً وفكرياً من سطوة العدو.

وعند الالتقاء بأي قبيلة مهمة، على المغوار أن يجنّد ثلاثة أو أربعة عناصر جدد والتخلي عن ثلاثة أو أربعة عناصر أصليين. لماذا؟

أ) المجندون الجدد يعرفون الميدان الأبعد ويصلحون في البداية كصلة وصل أو مترجمين سياسيين للتواصل مع قبائل الشمال؛

ب) عناصر المغوار المتروكون في هذا الموقع يحضّرون قنوات الاتصال المختلفة لاستقبال الموجات الجديدة.

فنحصل إذاً على البيان التالي:

80
إلى
100
كلم

القاعدة 11 أ

ب ج د هـ و ز ح ط ي

100 إلى 150 كلم

القاعدة 10 أ

القاعدة 9 أ

القاعدة 8 أ [سيكون لنا إذاً موقع مجابه وإتجاه عمودي].

القاعدة 7 أ

القاعدة 6 أ

القاعدة 5 أ

القاعدة 4 أ

القاعدة 3 أ

القاعدة 2 أ

القاعدة 1 أ

القاعدة صفر أ

ستصعد طوابير التموين إلى القاعدة 1 في الوقت نفسه.

وسترسل القاعدة 2 طوابير التموين إلى القاعدة 1.

والقاعدة 3 إلى القاعدة 2... وهكذا دواليك. ولن نتمكن

من طرح مسألة إطلاق العمليات إلا عندما تكون القواعد المتقدمة قد تلقت ثلاث أو أربع كميات كبيرة من الذخائر.

وحينذاك ستسمح لنا الاتصالات مع سائقي الشاحنات والتحسن المحتمل للوضع في فزان بإمداد فرق جيش التحرير الوطني بإنتظام.

وسيحصل كل فريق مؤلف من 25 عنصراً عل العتاد التالي:

2: قاذفتا صواريخ و20 قذيفة مدفع؛

2: سيارتان مصفحتان وواحدة منهما مضادة للطيران؛

3 رشاشات.

وسيفصل يومان بين انطلاق كل فريق. ولا بد من رصد محطة إرسال في البداية للقاعدة صفر الكائنة في د،

وللقاعدة 4 في ي،

والقاعدة 9 في أ،

ومحطتين أو ثلاث على الحدود.

وسيكون لمحطات الحدود هذه ساعات إصغاء مع مجلس قيادة الشمال وكذلك لكل من المحطات صفر و4 و9.

2 ـ موت لومومبا (Lumumba): هل كان باستطاعتنا التصرف بطريقة مختلفة؟[1]

استطاع المراقبون الموجودون في العواصم الإفريقية في خلال شهر حزيران/ جوان 1960 أن يتبينوا عدداً من الأمور. فلقد تزايد بالفعل عدد الشخصيات الغريبة المتوالية على عرش الكونغو في حين أن البلد لم يظهر على الساحة الدولية إلا منذ فترة وجيزة للغاية. فماذا يقول هؤلاء الكونغوليون؟ يقولون ما لا معنى له: إن لومومبا (Lumumba) قد تم بيعه للغانيين؛ وإن جيزنغا (Gizenga) اشتراه الغينيون، واليوغسلاف كشمور (Kashamura)؛ وإن الوقت ما يزال مبكراً جداً على رحيل البلجيكيين، إلخ...

ولكن، إذا تجرأنا على الإمساك بواحد من هؤلاء الكونغوليين وعلى حشره في الزاوية للاستفسار منه عن رأيه، لاحظنا حينذاك أن مؤامرة خطيرة للغاية تُحاك ضد استقلال الكونغو وضد إفريقيا.

إذ قام نواب كونغوليون وأعضاء من مجلس الشيوخ بالفرار

(1) إفريقيا العمل، العدد 19 الصادر في 20 شباط/فيفري 1961.

من الكونغو بُعَيد الاحتفال بالاستقلال ولجأوا... إلى الولايات المتحدة. وأقام آخرون في برازافيل لأسابيع عديدة. وتمت دعوة نقابيين إلى نيويورك. وإذا أخذنا أحد هؤلاء النواب أو الشيوخ في زاوية أيضاً واستفسرنا منه، تبين لنا أنه سيتم إطلاق عملية واسعة ودقيقة للغاية.

فقبل الأول من تموز/جويليه 1960 بكثير، تم إطلاق عملية كاتنغا. وما هدفها؟ حماية اتحاد المناجم طبعاً. ولكن ما يتم الدفاع عنه خلف هذه العملية هو مفهوم بلجيكي. فالكونغو الموحد مع حكومة مركزية يضرّ بالمصالح البلجيكية. أما السياسة البلجيكية قبل الاستقلال فكانت تنص على دعم مطالبة الأقاليم المختلفة باللامركزية، بالإضافة إلى إثارة هذه المطالب وتعزيزها.

وكانت سلطات اتحاد روديسيا ـ نياسّالند الفدرالي تساعد البلجيكيين في مهمتهم. ويعلم الجميع اليوم، وخصوصاً السيد هامرشولد (Hammarskjoeld) أن جسراً جوياً بين سالسبيري واليزابيثفيل كان يؤمن السلاح لكاتنغا قبل 30 حزيران/جوان 1960. وكان لومومبا (Lumumba) قد أعلن في وقت سابق بأن تحرير الكونغو يشكل المرحلة الأولى لتحرير إفريقيا الوسطى والجنوبية بالكامل، وحدد أهدافه المقبلة بدقة بالغة على أنها: دعم الحركات القومية في روديسيا وأنغولا وجنوب ـ إفريقيا.

إن الكونغو الموحد وعلى رأسه مناضل يكافح الاستعمار يشكل خطراً فعلياً على إفريقيا المستعبدة تلك، المستعبدة للغاية بالفعل فيما يغض باقي العالم الطَرْف عنها. ونود القول تحديداً إن باقي العالم يكتفي بالبكاء كما فعل في حالة شاربفيل أو يتقن صياغة تمارين الإنشاء لمناسبة حلول أيام مناهضة الاستعمار. وبما أن لومومبا (Lumumba) كان رئيس أول بلد ينال استقلاله في

هذه المنطقة، وبما أنه يعرف وزن الاستعمار الفعلي على أرض الواقع، تعهّد باسم شعبه بأن يساهم حسياً في دفن إفريقيا تلك. فلا يدهشنا إطلاقاً لجوء سلطات كاتنغا والبرتغال للوسائل كافةً لنسف استقلال الكونغو. أما تعزيزها لأعمال البلجيكيين وتحريضها لتدافع القوى المركزية في الكونغو، فهما واقع قد حصل. ولكن هذا الواقع لا يعلل تدهور الوضع التدريجي في الكونغو، كما أنه يعلل اغتيال لومومبا المخطَّط له والمنفَّذ ببرودة أعصاب تامة. ولا يكفي التعاون الاستعماري هذا في الكونغو لتعليل مرور إفريقيا في شباط/فيفري من عام 1961 في أزمتها الكبرى الأولى حول الكونغو.

إنها أزمتها الكبرى الأولى لأنه عليها أن تتقدم مناطقياً لذا عليها أن تتقدم بكليتها كجسم كبير يرفض كل بتر، وعليها أن تفهم أيضاً أنه لا يمكنها أن تقسم نفسها إلى إفريقيا تقاوم الاستعمار وأخرى تحاول مصالحة الاستعمار. كما أنه على إفريقيا، أي على الأفارقة أن يفهموا أن ما من عظمة في التريث وما من عار في الاعتراف بما هم عليه وبما يريدون، وأن فطنة المستعمَر في الواقع لا يمكن أن تكمن في نهاية المطاف إلا في شجاعته وإدراكه أهدافه وتحالفاته بشكل واضح وصلابته في تحقيقه التحرير.

آمن لومومبا (Lumumba) بمهمته ووثق بالشعب ثقةً عمياء. فبالسنبة إليه، لا يمكن لهذا الشعب أن يضلّ فحسب، إنما لا يمكن تضليله. وفي الواقع، ساهمت الأحداث كافةً في تعزيز رأيه هذا. ففي كل مرة توصل أعداء الكونغو إلى تحريض الرأي العام ضده في منطقة ما على سبيل المثل، كان يكفيه أن يظهر فيها ليشرح موقفه وينفي الإشاعات حتى يعود الوضع إلى سابق عهده.

إلا أنه نسي بشكل خاص أنه لا يستطيع أن يكون في كل مكان في آن واحد، وأن معجزة التبرير لم تكن حقيقة ما يعرضه بل كان حقيقة شخصه بنسبة أكبر.

فخسر لومومبا (Lumumba) معركة رئاسة الجمهورية. ولكن، بما أنه جسّد بالدرجة الأولى ثقة الشعب الكونغولي في شخصه، وبما أن الشعوب الإفريقية فهمت رغم التشويش بأنه الوحيد الحريص على كرامة بلده، استمر لومومبا في تمثيل الوطنية الكونغولية والقومية الإفريقية بكل ما تحملانه من أعلى درجات الشدة والشهامة.

وهكذا قررت بلدان أخرى أكثر أهمية من بلجيكا والبرتغال أن تهتم مباشرةً بالمسألة. فتم الاتصال بلومومبا (Lumumba) واستجوابه. وبعد رحلته إلى الولايات المتحدة، تم اتخاذ القرار التالي: على لومومبا (Lumumba) أن يختفي.

لماذا؟ لأن أعداء إفريقيا لم يخطئوا. لقد تبينوا بوضوح بأن لومومبا (Lumumba) تم بيعه، ونفهم من ذلك أنه بيع لمصلحة إفريقيا، أي أنه لا يمكن شراؤه.

وتبين أعداء إفريقيا بشيء من الخوف بأن احتمال نجاح لومومبا (Lumumba) في قلب آلية الاستعمار، بالإضافة إلى تحوّل إفريقيا الفرنسية إلى مجتمع مجدَّد وأنغولا إلى «مقاطعة برتغالية» وإفريقيا في النهاية إلى إفريقيا شرقية، سيؤدي كل ذلك إلى نهاية إفريقيا «الخاصة بهم»، تلك التي أعدوا لها مخططات دقيقة للغاية.

ويمكن نجاح أعداء إفريقيا الكبير في تعريض الأفارقة أنفسهم للخطر. فمن الصحة القول إن هؤلاء الأفارقة أفادوا من مقتل لومومبا (Lumumba) بشكل مباشر. وهكذا تحول رؤساء

الحكومات إلى دمى في ظل استقلال مزيّف في مواجهتهم اليومية المتزايدة لمعارضة شعوبهم الواسعة، فلم يطل بهم الأمر حتى توصلوا إلى الاقتناع بأن استقلال الكونغو الفعلي يعرّض حياتهم الشخصية للخطر.

وتخوّف أفارقة آخرون أقلّ زيفاً من رؤساء الحكومات ما إن طرح الغرب مسألة تحرير إفريقيا. ويبدو أن زعماء دول إفريقيا هؤلاء يخافون دوماً من مواجهة قارتهم. فساهم هؤلاء أيضاً بنشاط أقل إنما بوعي أعيد بتدهور الوضع في الكونغو. وجرى الاتفاق شيئاً فشيئاً في الغرب على أنه من الضروري التدخل في الكونغو ومن غير الممكن ترك الأمور تتطور على هذا المنحى.

واتضحت شيئاً فشيئاً فكرة تدخل منظمة الأمم المتحدة. ويمكننا إذاً اليوم أن نقول إن الأفارقة ارتكبوا خطأين متزامنين.

ارتكب لومومبا الخطأ الأول حين طلب تدخل منظمة الأمم المتحدة. ما كان عليه أن يستدعي منظمة الأمم المتحدة. فمنظمة الأمم المتحدة لم تستطع يوماً أن تحلّ بشكل فعّال مشكلة واحدة يطرحها الاستعمار على ذمة الضمير الإنساني. وفي كل مرة تدخلت فيها، كان ذلك لمساعدة سلطة استعمار البلد القامع بشكل فعلي.

تأملوا ماذا حصل في الكاميرون. فبأي سلام ينعم أتباع السيد أهدجو (Ahidjo) حين توقفهم حملة عسكرية عند حدهم علماً بأنها بدأت أولاً في الجزائر؟ مع أن منظمة الأمم المتحدة راقبت تقرير الكاميرون لمصيرها وأقامت الحكومة الفرنسية فيها حكومةً «تنفيذية مؤقتة».

وتأملوا ماذا حصل في الفيتنام.

وتأملوا ماذا حصل في لاوس.

ليس من الصحة القول إن منظمة الأمم المتحدة تفشل لأن القضايا صعبة.

ففي الحقيقة، إن منظمة الأمم المتحدة هي ورقة قانونية تستخدمها المصالح الإمبريالية عندما تفشل ورقة استخدام القوة الوحشية.

وما المحاصصات واللجان المشتركة المراقِبة ووضع البلدان تحت الوصاية إلا وسائل دولية شرعية للتعذيب وتحطيم رغبة الشعوب في الاستقلال وزرع الفوضى واللصوصية والبؤس.

ففي النهاية، لم تحدث أي مجازر في الكونغو قبل وصول منظمة الأمم المتحدة. فبعدما انتشرت ضجة هائلة متعمَّدة إثر رحيل البلجيكيين، لم يكن عدد القتلى يتجاوز العشرة ضحايا تقريباً. ولكن ما إن وصلت منظمة الأمم المتحدة حتى باتت العادة الصباحية اليومية تقضي بالتبليغ بأن مئات الكونغوليين يرتكبون المذابح بحق بعضهم.

ويقولون لنا اليوم إن بلجيكيين تنكّروا بزي جنود منظمة الأمم المتحدة ليحرّضوا الناس بشكل متكرر. ويكشفون لنا اليوم بأن موظفين مدنيين تابعين لمنظمة الأمم المتحدة قاموا بتشكيل حكومة جديدة بعد ثلاثة أيام من تكليف لومومبا (Lumuba). فنفهم الآن بشكل أوضح بكثير ما سموه آنذاك عنف لومومبا (Lumumba) وصرامته وحساسيته الشديدة.

فكل الأحداث تبيّن في الواقع بأنّ لومومبا (Lumuba) كان هادئاً على خلاف عادته.

لقد كان رؤساء بعثة الأمم المتحدة يتصلون بأعداء لومومبا (Lumumba) ويتخذون معهم قرارات مُلزِمة لدولة الكونغو. فكيف

تكون ردة فعل رئيس الحكومة إزاء حالة مماثلة؟ إن ما تم السعي إليه وتحقق هو التالي: إظهار غياب السلطة وإثبات عجز الدولة. فالهدف هو بالتالي تبرير وضع الكونغو تحت الحراسة.

وكان خطأ لومومبا (Lumumba) الأول حينذاك إيمانه بحياد منظمة الأمم المتحدة الودي. فنسي بشكل خاص أن منظمة الأمم المتحدة ليست في الوضع الحالي إلا جمعية حفظ يديرها الكبار لمتابعة «الكفاح السلمي» بين كل صراعَيْن مسلحين حتى يتقاسموا العالم. وإذا كان السيد إيليو (Iléo) في آب/أوت من عام 1960 يؤكد للعالم أجمع ضرورة إعدام لومومبا (Lumumba)، وإذا كان وزراء حكومة لومومبا (Lumumba) لا يعرفون ما يفعلون بدولارات بدأت تغزو ليوبولدفيل منذ تلك الحقبة، وأخيراً إذا كان موبوتو (Mobutu) يذهب في كل ليلة إلى برازفيل ليقوم بما نتكهن به بشكل أفضل اليوم ويُسمعه للآخرين، فلمَ إذاً اللجوء بهذه الصراحة ومن دون أي تحفظ إلى منظمة الأمم المتحدة؟

على الأفارقة تذكر هذا الدرس: إذا احتجنا إلى مساعدة خارجية، فلنستدع أصدقاءنا. فوحدهم يستطيعون مساعدتنا كلياً وفعلياً على تحقيق أهدافنا لأن الصداقة التي تربطنا بهم هي تحديداً صداقة قتال.

ولكن الدول الإفريقية ارتكبت من جهتها خطأ حين قبلت بإرسال جيوشها تحت غطاء الأمم المتحدة. فقبلت فعلياً أن تكون على الحياد وسمحت للآخرين أن يفعلوا ما يريدون من دون أن تشكّ في الأمر.

كان لا بد من إرسال جيوش لمساعدة لومومبا (Lumumba) بالطبع، ولكن ليس ضمن إطار منظمة الأمم المتحدة، إنما بشكل مباشر، من بلد صديق إلى بلد صديق. فالجيوش الإفريقية انهزمت

في الكونغو هزيمة معنوية تاريخية، إذ شهدت تفكك دولة وأمة بينهما إفريقيا كلها في السابق ورحّبت بهما، ولكنها لم تتصرف بسلاحها لأنها لم تكن سوى فرق تابعة لمنظمة الأمم المتحدة. يا للعار!

إن خطأنا نحن الأفارقة هو أننا نسينا أن العدو لا ينسحب بصدق أبداً، فهو لا يفهم أبداً. يستسلم، ولكنه لا يتبدّل.

إن خطأنا هو أننا ظننا أن العدو خسر حبه للقتال والأذية. ولكن إذا كان لومومبا (Lumumba) عائقاً، فعلى لومومبا (Lumumba) أن يختفي. فالتردد في القتل لم يكن يوماً ميزة إمبريالية.

تأملوا ابن مهيدي (Ben M'hidi) وتأمّلوا موميي (Moumié) وتأملوا لومومبا (Lumumba). إن خطأنا هو أننا لم نكن أكيدين تماماً من مساعينا. فالواقع اليوم أن الخونة موجودون في إفريقيا. وكان لا بد من التنديد بهم ومحاربتهم. وإذا كان هذا الواقع صعباً، خصوصاً أنه جاء بعد الحلم العظيم بإفريقيا ملتفة على بعضها البعض وخاضعة لشروط الاستقلال الفعلي نفسها، فصعوبة هذا الواقع لا تغير شيئاً من حقيقته.

لقد قام أفارقة بضمان السياسة الإمبريالية في الكونغو، فكانوا وسطاء وكفلوا نشاطات منظمة الأمم المتحدة في الكونغو وسكوتها الغريب.

أما اليوم، فهم يشعرون بالخوف. ويتخاصمون بنفاقهم حول لومومبا (Lumumba) الممزق. وعلينا ألا نشك في ذلك، فهم يعبرون عن خوف موكليهم. فالإمبرياليون خائفون أيضاً، وهم محقون في خوفهم لأن عدداً كبيراً من الأفارقة والأفارقة ـ الآسيويين قد فهموا. سيسجل الإمبرياليون توقفاً مؤقتاً. وسينتظرون

هدوء «الانفعال الشرعي». وعلينا الاستفادة من هذه الاستراحة القصيرة لنتخلى عن مساعينا الوجلة ونقرر إنقاذ الكونغو وإفريقيا.

قرّر الإمبرياليون اغتيال لومومبا (Lumumba) ونفذوا قرارهم. وقرروا إنشاء فرق متطوعين، فأصبحت واقعاً على الأرض.

وبدأ طيران كاتنغا منذ بضعة أيام بقصف الأرض بالرشاشات بأوامر من طيارين من جنوب - إفريقيا وبلجيكا. وتنطلق اليوم من برازافيل طائرات أجنبية ممتلئة بالمتطوعين والضباط المظليين لإنقاذ الكونغو.

فإذا قررنا مساندة جيزنغا (Gizenga) فعلينا أن نقرّر ونقوم بالمساندة. ففي إفريقيا ميل محدد يمثله رجال محددون. إن هذا الميل الخطير على الإمبريالية هو موضوع الخلاف. فلنتجنب نسيانه: لأن مصيرنا جميعاً يتقرر في الكونغو.